في الأزمنة الحديثة

تأليف

محمد رفعت

استاذ التاريخ بمدرسة المعلمين السلطانية

(والحاصل على درجة العالمية ودرجة الأمتياز من الطبقة الأولى
في التاريخ الحديث وعلى منحة البحث العلمي من جامعة لفربول)

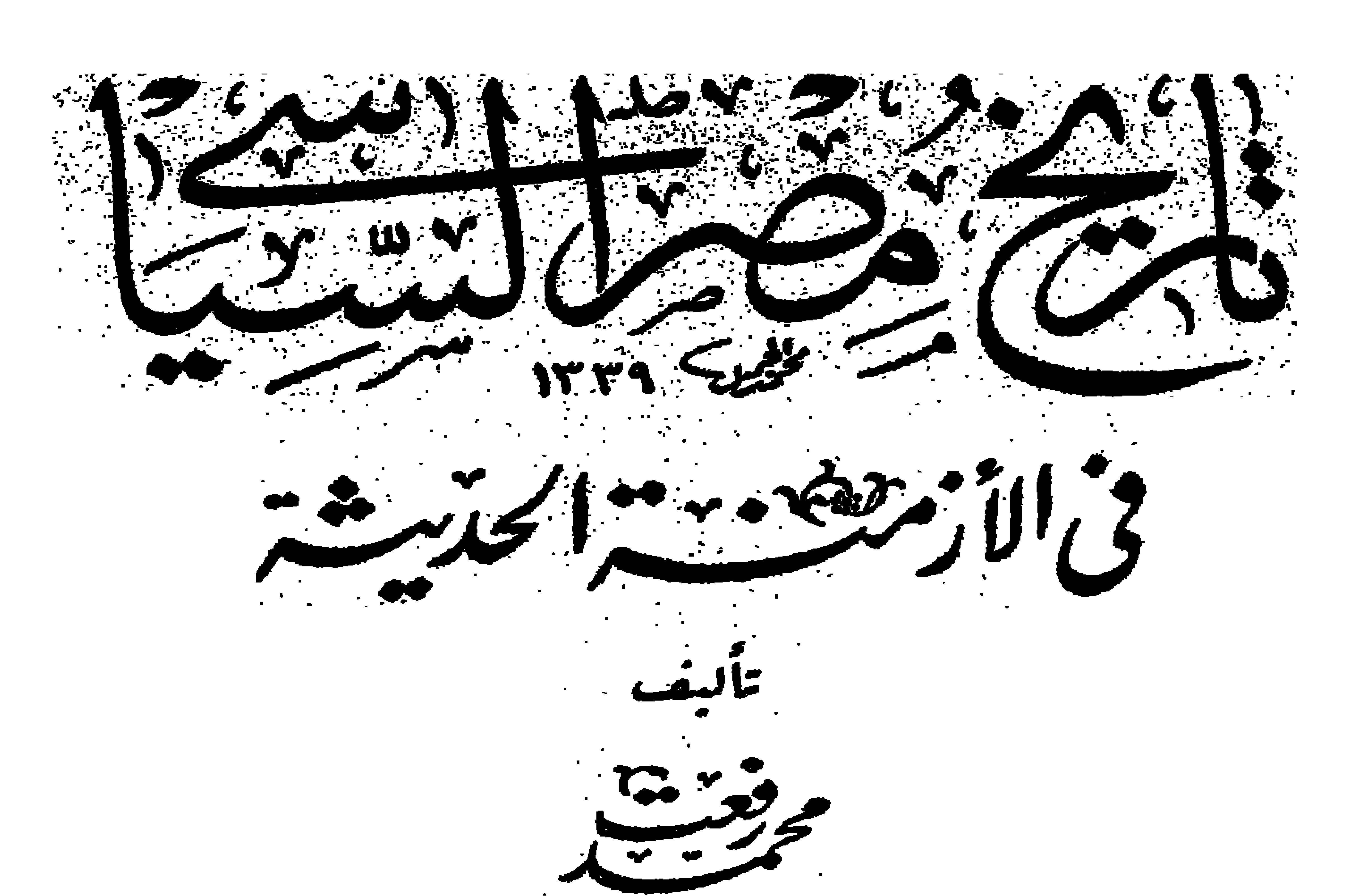
الجزء الأول

من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٤١ ميلادية

الطبعة الأولى

مطبعة الشعب بشارع محمد علي بمصر

الى الجمعية التاريخية المصرية



تاريخ مصر السياسي

في الأزمنة الحديثة

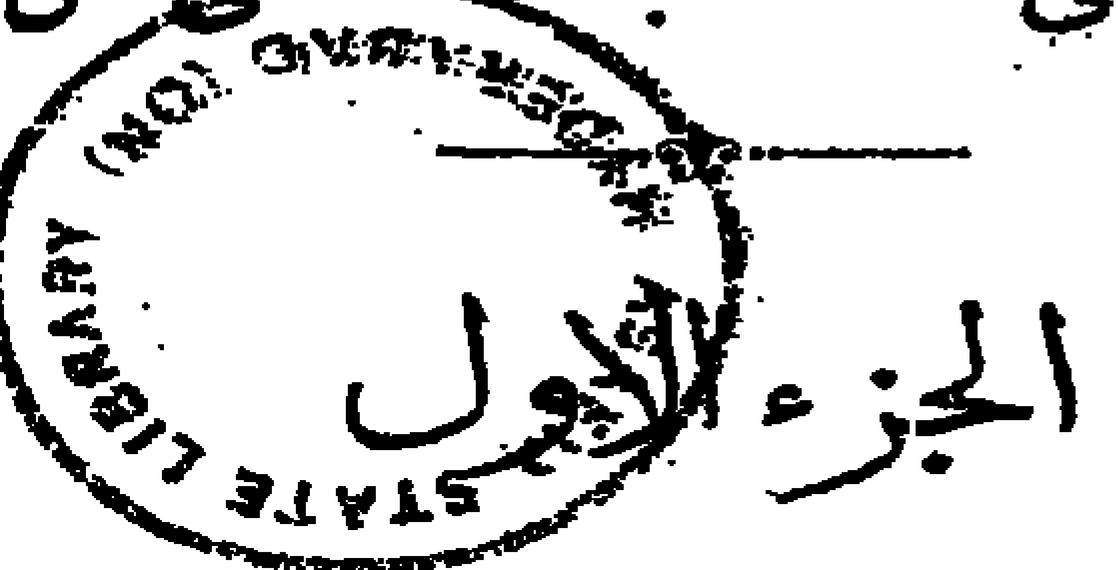
تأليف

محمد رفعت

استاذ التاريخ بمدرسة المعلمين السلطانية

(والحاصل على درجة العالمية ودرجة الامتياز من الطبقة الاولى

في التاريخ الحديث وعلى منحة البحث العلمي من جامعة لفربول)



الجزء الأول

من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٤١ ميلاديه

الطبعة الاولى

الثمن

مطبعة الشعب بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم كتابى الى قراء التاريخ وأنا شاعر بأنى بعيد عن الغرض الذى كنت ارمى اليه . ولكننى وجدت الاحجام عن نشر ما تهيألدى لفائدة أبناء وطنى، لمجرد الاعتقاد بأن ذلك دون ما أبغى من الكمال ، ضربا من الجمود العلمى لا يتفق مع سنة النشوء والترقى فى العلوم الحديثة ، التى يتوارثها العلماء ناقصة فلا يلبثون ان يورثوها غيرهم وافية بقدر المستطاع ، اذ العصمة والكمال لله وحده

لذلك أقدمت على نشر ابحاثى التى يرجع البدء فيها الى سنة ١٩١٤ أيام أن كنت أواصل الدراسة فى انجلترا فى مكتبة «المتحف البريطانى» ودار «سجلات الحكومة» بلندره . ولقد قصدت الى أن يكون بحثى مستمداً من أصوله الرسمية ومن المصادر الموثوق بها حتى يحوز الصفة العلمية التى تحتمها الجامعات الأوربية أولا وحتى يتسنى لمصرى مثلى يفهم الروح المصريه أن يضع كتابا مستقلا فى الموضوع بحيث لا يكون جل اعتماده فيه على ما يكتبه العلماء الاوربيون بل على المصادر التى يأخذ عنها هؤلاء العلماء رأساً .

وما أكثر وأعظم ما يعثر عليه الباحث المنقب من أصول ومادة فى تاريخ مصر الحديث ، فسجلات وزارة الخارجية بلندره — ناهيك عما فى العواصم الاخرى حافلة بمجلدات مكدسة بعضها فوق بعض حاوية لجميع انواع الرسائل الرسمية والخاصة والسرية والتقارير والجرائد وغير ذلك مما يتطلب عدة سنوات للفحص عنه فحصاً دقيقا . ولقد انتهزت فرصة تعيينى طالبا للبحث العلمى فى لندره باتفاق جامعة لفربول مع وزارة المعارف المصرية فقضيت عام ١٩١٦ فى درس الوثائق الهامة الخاصة بحالة مصر فى عهد محمد على . ثم حضرت مصر وواصلت بحثى فى المكتبة السلطانية واستوفيت ما كان ناقصا وخاصة فى الجزء الاول من الكتاب

وسيرى القارىء انى توخيت فى كتابى أسلوبا سهلا وطريقة علمية غايتها الوحدة التاريخية واتجاه السياسة العامة وربط الاسباب بالمسببات واغفال التفاصيل المملة وابداء النقد على حسب الحقائق المقررة لا على حسب ما تمليه العواطف — وهنا الفرق كل الفرق بين المؤرخ الذى يجب ان يكتب ويبحث لاجل الحقيقة و بين "سياسى الذى يكتب ويجادل ارضاء لعواطفه الخاصة

وغاية رجائى أن يفى الكتاب بحاجة المتعلمين الى كتاب فى التاريخ على الطرق العلمية الحديثة وان يتقدم العاملون للبحث والكتابة العلمية فى موضوعاتهم التاريخيه وأن يتكرم أولو الفضل بموافاتى بما يعن لهم من الآراء ووجوه الاصلاح التاريخية فى الكتاب

وانى أتقدم قبل الختام بشكر حضرة صديقى الاستاذ عبد الحميد أفندى حسن على تكرمه بالاشتراك معى فى مراجعة مسودات الكتاب وعلى ما اسداه الى من نافع الاقتراحات . كذلك أسدى الشكر لحضرات : الاستاذ عبد الرحيم بك محمد عثمان والاستاذ محمد افندى احمد حسونه واحى سيد افندى احمد خليل وخليل بك صادق صاحب مطبعة الشعب على ماقدمه حضراتهم لى من المساعدات. والله أسأل أن يوفقنى الى اتمام الجزئين الباقيين من الكتاب وان يوفقنا جميعا الى خدمة بلادنا العزيزة بالصدق والاخلاص ؟

محمد رفعت

القاهرة فى أول رمضان سنة ١٣٣٩ الموافق ٩ مايو سنة ١٩٢٠

فهرس الكتاب

الفصل الاول — الحملة الفرنسية فى مصر

صور الكتاب



محمد علي الأكبر

الفصل الأول

الحملة الفرنسية فى مصر

(يوليه ١٧٩٨ — سبتمبر ١٨٠١)

حالة مصر قبل الحملة

وصلت مصر فى القرون المعروفة فى التاريخ بالعصور الوسطى وهى التى تنتهى بانتهاء القرن الخامس عشر إلى درجة عظيمة من الثروة والرقى فى جميع شؤونها حين كانت أوربا فى ذلك الوقت فى حالة جهل وجمود عظيمين . وكان أصحاب الأمر فى مصر حينذاك سلاطين دولة المماليك البحرية والشراكسة الذين تركوا بالقاهرة آثاراً بديعة من نماذج الصناعة العربية تدل على ما كان لهم من وفرة المال وعظيم الجاه . وما ذلك إلا لأن موارد ثروتهم لم تكن مقصورة على ما كانت تنتجه أرض مصر من المحصولات الزراعية بل كانت خزائنهم تفيض بأموال الأجانب من تجار «البندقية» و«جنوه» الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق الى أوربا ويدفعون عنها ضرائب ونفقات مختلفة كانت سببا فى إثراء الحكومة والأهالى معاً . وكان المماليك هم القابضين على طريق التجارة بين الشرق وأوربا : طريق نهر الفرات وحلب واسكندرونه ، وطريق البحر الاحمر والسويس والاسكندرية. فضمن المماليك بذلك تفوقهم فى شرق البحر الابيض المتوسط.

ولكن سرعان ما تغيرت الاحوال وتبدلت الأمور ففى الوقت الذى بدأت فيه حركة النهضة الحديثة فى أوربا فى أواخر القرن الخامس عشر وأخذ القوم ينبذون الأفكار والأنظمة القديمة التى انتشرت

فيها أيام العصور الوسطى وقفت حركة الرقى فى مصر وبدأت تخطو خطوات سريعة إلى الوراء كانت نتيجتها التعثر فى ظلام العصور الوسطى مدة ثلاثة قرون أخر. وما ذلك إلا لتحول طريق التجارة بين أوربا والشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح الذى استكشفه «فاسكو ده جاما» فى سنة ١٤٩٨ بعد أن استكشف «كولمب» طريق الدنيا الجديدة. فاحدث هذان الاستكشافان انقلابا ذا شأن فى عالم التجاره كان له أسوأ أثر فى تجارة البحر الابيض المتوسط وموانيه ودوله، إذ حرمت مصر من مرور تجارة الشرق التى كانت تملأ خزائنها فضة وذهبا فأخذت تضعف تدريجا حتى اصبحت إيالة عثمانية فى عهد سليم الأول (١٥١٧) يحكمها الأتراك العثمانيون بالاسم ولا يهمهم منها إلا إرسال الجزية سنويا ويتصرف فى أراضيها وأهلها وأموالها فئة المماليك «البيكوات» الذين أتوا إلى مصر عبيدا فما لبثوا أن انقلبوا سادة واستعبدوا فيها كل شىء واتصلوا بالفلاح مباشرة فاضطهدوه وعملوا على جمع الثروة لأنفسهم ولم يكترثوا بغيرهم وقوى سلطانهم لعدم بقاء الولاة العثمانيين مدة طويلة فى مناصبهم ولعدم معرفة هؤلاء بالأحوال مما جعل زعيم المماليك بالقاهرة المعروف «بشيخ البلد» نفوذا يفوق كثيرا نفوذ الباشا وأصبح المماليك يعزلون الولاة أو يقرونهم كما يشاءون.

أثر استكشاف طريق (الرأس)

ولما تحولت تجارة الشرق عن طريق مصر فقدت مصر سبب الاتصال بالعالم الأجنبي واكتفت بمحصولاتها ومصنوعاتها فلم تنتج إلا بقدر حاجات أهلها ولم تستهلك إلا مقدار ما تنتجه وعلى ذلك كانت الحكومة دائما فى حاجة إلى المال تجبيه من التجار الأجانب والوطنيين الذين يجرءون على إحراز الثروة. وكثيراً ما كان يشتد العوز فى البلاد

وتهددها المجاعات والأمراض من حين إلى آخر لعدم عناية المماليك بالزراعة وهى مورد تموين البلاد الوحيد. وكانت الوظائف والحرف وراثية فى أكثر الأحوال والتعليم معدوماً اللهم إلا فى الجامع الأزهر حيث كان يدرس القرآن والفقه واللغة درساً ناقصا جداً ففشى الجهل والخزعبلات والبدع وكسب رجال الدين نفوذاً بين الناس لا يقل عن نفوذ رجال الدين فى أوربا فى العصور الوسطى

كانت الحال كذلك حينما أراد نابليون الخروج بحملته الشهيرة الى
درس مشروع الحملة
مصر بعد أن أوقع الهزيمة بأعداء الثورة الفرنسية فى ايطاليا وألمانيا وعقد أول صلح مشرف للثورة ورجالها مع أمبراطور النمسا فى «كاميوفورميو» (١٧٩٧). وما هى الا نظرة فى هذا الصلح حتى تتجلى سياسة نابليون وآماله فى الشرق، فانه زيادة على أخذ فرنسا الأراضى المنخفضة النمسوية وحمايتها الجمهوريات الصغيرة التى كونها نابليون فى ايطاليا أصر نابليون على أن يكون لفرنسا جزائر «الأيونيان» وأهمها «كورفو» و«زانتى» التى كانت تابعة للبندقية معتقداً أن هذه ستكون محطات تجارية ذات شأن فى طريق فرنسا الى الشرق. وبعد هذا الصلح لم يبق أمام فرنسا الا انجلترا ولما كان من المتعذر الاشتباك معها براً أو بحراً درس نابليون مشروع منازلتها فى الشرق وانكب على سجلات وزارة الخارجية فعثر فيها على أكثر من مشروع يقضى باستحواذ فرنسا على مصر. وترجع العلاقات بين فرنسا ومصر الى حملة الملك لويس التاسع المعروف «بسان لويس» فى الحرب الصليبية (١٢٤٨ ـ ١٢٥٢) وهى التى انتهت بهزيمة لويس عند المنصورة. ثم تحسنت العلاقات عندما وضع الملك فرنسيس الأول مبادىء الامتيازات

الاجنبية بتعاقده مع السلطان سليمان القانونى فى سنة ١٥٣٥ فنال الفرنسيون منذ ذلك الوقت فى أملاك الدولة العثمانية مركزا خاصا ممتازا على غيرهم من الأجانب الذين أخذوا يتشبهون بهم ويعقدون مع تركيا معاهدات امتيازات مشابهة لامتيازات فرنسا . ومن المشروعات التى وجدها نابليون مشروع قدمه « ليبنتز » للويس الرابع عشر فى سنة ١٦٧٢ يقترح عليه اعداد حملة على مصر بدلا من محاربة هولانده فى بلادها مبينا أن هـذا هو السبيل الوحيد لهزيمة هولنده التى كان لها مستعمرات فى الهند الشرقية . ولما كان غرض لويس هو السيادة فى أوروبا أهمل مشروع « ليبنتز » وزج بنفسه فى حروب أوربية طاحنة

أسباب الحملة

قرأ نابليون كل هذه الأوراق وغيرها وما كتبه « مجالون » ممثل حكومة فرنسا بالاسكندرية إلى حكومته يشكو معاملة مراد بك وابراهيم بك تارة وتارة أخرى يحبذ لحكومته فكرة إرسال حملة إلى مصر ويبين سهولة إخضاع البلاد وما يمكن أن تعود به على فرنسا من وافر الخير وعظيم القوة فاقتنع نابليون بأن من المستطاع تنفيذ الفكرة وأن نجاحه سيكون الخطوة التمهيدية لهزيمة انجلترا فى الشرق حيث مستعمراتها وتجارتها الهامة وأنه إذا أضيفت مصر إلى دائرة نفوذ فرنسا فى ايطاليا وجزر « الأيونيان » لا يلبث أن يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية. هذا إلى ما كان يدور فى خلد نابليون من واسع الآمال مقتفيا خطوات الاسكندر و « يوليوس قيصر » وما كان يعتقده من أن الشرق مهد عظماء الرجال وأن الساعة لم تحن بعد للقبض على ناصية الأمور فى فرنسا . جعلت هذه الاسباب جملته يلح على « حكومة الأدارة » لأصدار

أوامرها باعداد الحملة .

ولم يكن من صالح الحكومة فى ذلك الوقت إرسال خيرة جنودها واكفأ قوادها خارج فرنسا ولذلك ظلت «حكومة الادارة» تعارض المشروع مدة طويلة إلى أن أقنعها نابليون وعززه «تاليرند» أحد أعضاء الحكومة. فصدر الأمر فى ابريل سنة ١٧٩٨ واحتفظ به نابليون فى السر لئلا يصل أمره إلى البحرية الانجليزية فتعرقل مساعيه

قيام الحملة وأغراضها

وبينما كانت فرنسا قائمة على قدم وساق استعداداً لحملة لا يعرف حقيقة أمرها إلا أشخاص معدودون كان نابليون يتظاهر بعمل استطلاعات على سواحل «نورمنديا» ليوهم الحكومة الانجليزية ويشغلها عن أمر حملته. وحقيقة استولى القلق على نفوس الانجليز فى السواحل الجنوبية فجمعوا رجالهم استعداداً للحرب وصدرت الأوامر إلى الأسطول بالتيقظ ومراقبة حركات الأساطيل الفرنسية ووصل إلى علم أمير البحر «نلسون» خبر إعداد الحملة ولكنه لم يعلم وجهتها فوقف الأسطول الانجليزى أمام بوغاز «جبل طارق» عند ميناء «قادس» استعدادا للطوارىء.

وأخيراً فى مايو سنة ١٧٩٨ كانت قد تمت معدات الحملة من رجال وضباط ومؤن وذخائر وخيول وعُدد وآلات وعلماء ومترجمين مغاربة ومالطيين واجتمع كل ذلك فى ثلاث موان «طولون وسفيتاقكيا . وجنوه» وفى ١٩ مايو أقلعت الحملة من طولون وبلغ عددها ٣٢ الف نفس تحملها ٣٠٠ سفينة ونقالة وكان نابليون هو القائد العام ومعه من مشهورى الضباط «ديزيه وكليبر وكفارلى ومينو ومسينا ومورا» وكان قائد الأسطول أمير البحر «دهبروى» ومن مشهورى العلماء «منج وبرتوليه وفورييه وكنتى»

إذ لم تقتصر أغراض الحكومة الفرنسية من هذه الحملة على الاستحواذ على مصر وتهديد طريق الهند بل كان من أغراض الحملة درس الحالة الاقتصادية والطبيعية والتاريخية فى مصر درساً وافيا يساعد على تكوين مستعمرة جديدة لفرنسا تعوض عليها ما فقدته من المستعمرات فى القرن الثامن عشر، ولهذا الغرض جاء هؤلاء الاخصائيون المختلفون البالغ عددهم مائة أو أكثر للقيام ببحث أحوال مصر

وليس هذا بغريب من حكومة الادارة لأن فرنسا كانت قد أخذت على عاتقها منذ قيام الثورة تنوير الشعوب وتحريرها من ربقة العبودية والجهل وإدخال مبادىء الثورة من حيث المساواة والتسامح الدينى وإشراك الشعب فى الحكومة ولو كان مركز فرنسا فى البلاد التى تريد نشر دعوتها فيها غير شرعى

ظهور المسألة المصرية

ومن يوم ١٩ مايو الذى خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء طولون قاصدة مصر ولدت «المسألة المصرية» وأخذت صبغتها السياسية فوراً لانه إذا كان الاستحواذ على الهند يعد مغنما اقتصاديا هاما فان الاستيلاء على مصر منذ أن حلت بأرضها جنود نابليون أصبح من المسائل السياسية الدولية الأولى التى ما فتئت تشغل بال الدول إلى الآن

وما كانت الدول لترتبك بشأن مصر بسبب خصب أرضها أوجودة هوائها أو سوقها التجارية بل هناك أشياء خاصة تتنازع من أجلها الدول وهى المواصلات المختلفة والموقع الحربى والنفوذ السياسى فيها . لأن مركز مصر فى شرق البحر الأبيض المتوسط بين القارات الثلاث مع قربها لأوربا وسيطرتها على طريق الشرق وسهولة تهديدها فلسطين والشام من ناحية

الحربية جعل لها شأناً دولياً زاده أهمية فتح قناة السويس وكشف منابع النيل فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . هذا سبب اهتمام الدول وخاصة انجلترا بأمر مصر لأنها تريد صيانة تجارتها وعلاقاتها مع الهند من أن يعبث بها أجنبى يثبت مركزه بمصر . ولكن فرنسا وحدها هى الأولى التى اخترقت ببصدق نظرها الحجب السميكة التى أخفت مركز مصر عن أنظار باقى الدول فى ذلك الوقت وهى التى عملت على أخذ العالم على غرة بالاستحواذ عليها . وهذا يبين إلى أى درجة وصل انحطاط مصر وخمول ذكرها فى تلك العصور حتى ان العالم لم يعد يذكر لها وجوداً ذا منفعة .

سير الحملة

[illegible] تلق الحملة الفرنسية إلا مقاومة ضعيفة بمصر بعد افلاتها من رقابة نلسون بشكل مشقة وجهد ونزولها بالاسكندرية فى أول يوليه . وبعد الاستيلاء عليها سارت الحملة بطريق الصحراء غرب فرع رشيد وقاسى الجنود أهوالاً شديدة بسبب شدة العطش والحر وقابلها مراد بك ومعه بعض المماليك والأعراب عند (شبراخيت) فانهزم المماليك وتقهقروا إلى (امبابة) [illegible] فرسان المماليك أمام صفوف جنود نابليون المتراصة [illegible] المعروفة بواقعة الأهرام (٢١ يوليه) [illegible] المماليك على أثرها . إذ أخذ «ديزيه» يتعقب مراد بك [illegible] وسار نابليون يطارد ابراهيم بك [illegible] حيث بدأ يحرض القوم ضد الفرنسيين

تدمير أسطول نابليون

[illegible] الأحوال حتى ظهر خطر داهم هدد [illegible] الفرنسيين فى مصر [illegible] خطراً جديداً أو غير منتظر . ذلك [illegible] من وجود الفرنسيين بمصر عاد اليهم

فى أول اغسطس والتقى بالاسطول الفرنسى فى خليج أبى قير فدمره عن آخره وقتل أمير البحر الفرنسى «ده بروى» وهو على ظهر أكبر سفن اسطوله «الشرق» وهى تحترق. ووصلت الأخبار الى نابليون فذعر وخاطب ضباطه وهم فى وليمة عقب انتصارهم فى الصالحية قائلا «الآن ابتهجوا ولتنشرح صدوركم ولكن عليكم أن تعتادوا جو هذا الأقليم فاننا أصبحنا ولا مراكب لدينا تنقلنا إلى أوروبا». والحقيقة أن الحملة الفرنسية بمصر بعد هذه الواقعة أصبح مقضيا عليها لا محالة إذ صار الفرنسيون فى مصر كأنهم محصورون فى مدينة مضيق عليها ومصيرها الى التسليم آجلا أو عاجلا.

خطة نابليون فى مصر

لذلك رأى نابليون ضرورة العمل كأن فرنسا ستبقى فى مصر إلى أجل غير مسمى فأخذ ينظم فروع الادارة ودعا المشايخ الوطنيين للاستشارة فى الشؤون الوطنية لمعرفتهم بالأهالى ولتأثيرهم فيهم وكون الشرطة وعين حكاما عسكريين فى الأقاليم وأخذ الفرنسيون يسوون المسائل المالية وبدءوا بمصادرة أملاك المماليك وفرضوا الضرائب ووزعوها على الجميع وجمعوها بنظام فما لبث أن عاد الأمن فى البلاد وفتحت الناس متاجرها واستأنس الناس بالفرنسيين واطمأنوا اليهم ونشطت حركة العمل فى البلد وأنشئت فى القاهرة محال تجارية وقهاوى ومطاعم ومصانع وأذيع التنبيه بوجوب الانارة والنظافة ونظم «المجمع العلمى» وبدأ كل يعمل فى دائرته الخاصة

وأراد نابليون أن يستميل اليه الرأى العام بظهوره مظهر المحترم للديانة الاسلامية وصاحب شريعتها فوزع المنشورات بين الناس بأنه مثلهم مسلم يؤمن بالله ويعترف برسالة نبيه وأظهر اهتماما زائدا بالاحتفالات الدينية. غير أن العامة لم تنخدع مطلقا وعدوا مبالغته هذه خداعا ومواربة

وكانت من أسباب القيام ضده. ثم وجه همه الى تحصين المدينة خوفا من قيام الأهالى أو هجوم الأعداء فوضع المهندسون مشروعا يقضى بخلع ابواب الحارات وهدم بعض الأحياء الفقيرة فى الحسينية وبعض المساجد والمنائر مما كان يقف فى طريق التحصين وإقامة الاستحكامات، وأخذ يضم الى جيشه بعض أفراد الأفرنج الذين كانوا بمصر وبعض المسيحيين الشرقيين.

ثورة المصريين على نابليون

ولكن مالبث ان قام سكان القاهرة بثورة فى ٢٢ اكتوبر ضد تصرفات الفرنسيين، وأسباب هذه الثورة ظاهرة كهدم بعض الأماكن والتشديد فى جمع الضرائب بنظام وإساءة الفرنسيين إلى أسر المماليك وقتلهم كثيرين بتهمة الخيانة ومن هؤلاء «السيد محمد كريم» حاكم الاسكندرية. ومن الأسباب ظهور البدع الجديدة وتهتك النساء فى الشوارع وانحطاط الاداب وسوء معاملة نابليون لبعض العلماء الذين أبوا وضع شعار الثورة الفرنسية على صدورهم. وأهم من كل ذلك تواتر الأشاعات بأن السلطان يعد جيشا عظيما لطرد الفرنسيين من مصر وكان «ابراهيم بك» يرسل المنشورات بذلك الى القاهرة

وقد أخذ الفرنسيون بغتة ولم يستعدوا مطلقا لمقابلة هذه الثورة، فقتل عدد كبير منهم القائد «ديبوى» حاكم القاهرة و «سالكسكى» رئيس اركان حرب نابليون. ولكن نهض نابليون فى الحال واتخذ الاحتياط اللازم فوضع المدافع على ربى المقطم، وهدم مراكز الثورة القوية فى الأزهر وقسم الحسينية وما زال بهم حتى وقع الرعب فى صدور الناس وفرغت جعاب أهل الحسينية، فقام العلماء وطلبوا الأمان من نابليون. ولكن نابليون فقد كل ثقة فى العلماء وتأكد أنهم المحرضون على الثورة فاستعمل

الشدة والصرامة المتناهية وارتكب إثما لا يزال مقرونا باسمه إلى اليوم فى مصر ، ذلك أن جنوده وخيوله دخلت الأزهر فانتهكوا حرمته وأساءوا استعماله . وبدلا من أخماد نار الثورة وإزالة سخط الناس أضاف نابليون بذلك وقودا جديداً لابدّ أن يشتعل يوماً ما مادام الأتراك والأنجليز على الأبواب .

تحرك الباب العالى ضد الحملة الفرنسية

ولقد كان من نتائج واقعة «أبى قير» البحرية وتدمير الأسطول الفرنسى أن سهل على انجلترا حمل تركيا على اعلان الحرب ضد فرنسا وإعداد حملة لطرد الفرنسيين من مصر، وكانت الحكومة الفرنسية قد أخذت حِذْرها من أول الامر فارسلت «تالليرّند» إلى القسطنطينية عقب خروج الحملة ليؤكد للباب العالى حسن نيات فرنسا نحو السلطان وان الغرض من إرسال الحملة ليس إلا تأديب المماليك وتخليص الباب العالى من حكمهم فى مصر . ولكن السلطان ارتاب فى عمل فرنسا وبدأت الحكومة الأنجليزية من جهة أخرى تحرك الباب العالى ضد فرنسا وتنصح لتركيا بأعلان الحرب عليها ، فلما سمعت بواقعة أبى قير تشجعت وأعلنت الحرب على فرنسا فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ وتحالفت مع انجلترا والروسيا ضد فرنسا . ولما كانت السيادة البحرية للأسطول الانجليزى تمكن الحلفاء من أخذ جزيرة «مالطه» وجزائر «الأيونيان» بمعاونة الأسطول الروسى ، وأعد الباب العالى جيشين أحدهما فى جزيرة « رودس » لتحمله السفن الأنجليزية الى ساحل أبى قير والثانى يزحف على مصر من طريق البر بقيادة والى « عكاء » احمد باشا الجزار

حرج الحالة فى فرنسا

وكانت الحكومة الفرنسية تريد إرسال المدد لنابليون بأية طريقة، ولكن حال دون ذلك تألب الدول عليها مرة ثانية متشجعة بغياب

نابليون وبهزيمة أسطوله فى أبى قير وعداء السلطان له ، فنشبت تلك الحرب في أوربا وشغلت فرنسا عن نابليون . أما هو فبدأ بالهجوم فى الشرق لما علم بوصول الجيش العثمانى على الحدود الشرقية ، مفضلا كعادته خطة الهجوم . ولا يبعد أن يكون قد فكر وقتئذ فى تنفيذ مشروعه الشرقى العظيم الذى لو تم لأمكنه أن يصل إلى باريس عن طريق القسطنطينية وڤينا .

حملة نابليون فى سوريا

سارت حملة نابليون وتبلغ (١٢٠٠٠) جندى قاصدة سوريا فى فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن قبض على ناصية الأمور بمصر وترك عدداً قليلا من الجند فى حاميات القاهرة والأسكندرية ورشيد ودمياط . ودخل الفرنسيون «العريش» ثم «غزه» و «يافا» وهنا سلمت حاميتها وعددها (٤٠٠٠) جندى للضابط الفرنسى فأمنهم على حياتهم، ولكن نابليون ضاق بهم ذرعا ، ولما لم يكن لديه زاد يكفيهم أو سفن تحملهم إلى مصر خاف أنه إذا تركهم وشأنهم لا يلبثون أن يحملوا السلاح ضده فلم يجد مناصا من قتلهم جملة واحدة وتحمل أمام التاريخ إثم هذا العمل الفظيع . وعلى أثر ذلك فشى الطاعون بين جنوده ثم سار نحو «عكا» فحاصرها وكان واليها احمد باشا الجزار جنديا شهما فأحسن تحصين الميناء بمساعدة مهندس فرنسى من الحزب الملكى كان على سفينة حربية انجليزية بقيادة «السير سدنى إسمث» . واجتهد نابليون مراراً فى الهجوم فلم يقو على احداث أى تأثير ولكنه تمكن من هزيمة الجيش التركى الذى أرسل لأمداد الحامية فى واقعة «تل طابور» (ابريل سنة ١٧٩٩) . واستمر الحصار إلى مايو فهجم نابليون آخر هجمة ودخلت جنوده المدينة ولكنهم وجدوا بيوتها قلاعاً وشوارعها محصنة بالخنادق والمتاريس ، فقرر نابليون العودة إلى مصر فوصلها بعد متاعب هائلة بسبب شدة الحرارة

وتفشى الطاعون وكثرة المرضى .

تقهقر نابليون من سوريا وعودته الى فرنسا

وبعد أن فقد ثلث رجاله وصل القاهرة فى ١٤ يونيه فوجدها فى حالة اضطراب غير عادى ، وعلى الرغم من تظاهره بالانتصار وإقامة الاحتفالات قد أثر ارتداد نابليون من أمام عكاء فى سمعة الفرنسيين كثيراً وحقر من قدرهم ، فزحف مراد بك من الجنوب ونزل الأتراك بأبى قير . عند ذلك التقى نابليون بالمماليك فهزمهم ثم قصد إلى أبى قير فارتد العثمانيون إلى البحر أمام الجنود الفرنسية ولكن تدخل الأسطول الأنجليزى فتقهقر الفرنسيون وتعقبهم العثمانيون إلى أن قطع عليهم الفرنسيون خط الرجعة فانكسر الجيش العثمانى وقضى عليه فى واقعة « أبى قير البرية » (اغسطس سنة ١٧٩٩) . وبعد أن حسن نابليون سمعته قليلا بهذا الانتصار فكر جديًا فى مغادرة ميدان الشرق لأخفافه فيه وخشية أن يضيع مستقبله إذا بقى بمصر ، وكان قد علم بما يجرى من الأحوال فى أوربا وبانهزام فرنسا أمام أعدائها وفقدها الأراضى المنخفضة وإيطاليا وكانت قد وصلته دعوة من الحكومة بالحضور فصمم على مغادرة مصر وأسر الأمر إلى أمير البحر « غانتوم » وسافر سرا فى (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩) على سفينة حربية ومعه ثلاثة من ضباطه وترك القيادة « لكليبر » ووصل فرنسا بعد شهرين .

صعوبة مركز « كليبر » بعد نابليون

ولما علم رؤساء الحملة بسفر نابليون امتلأت قلوبهم يأساً وتبدد كل أمل فى نجاح بقائهم بمصر ، وكان استياء « كليبر » عظيما لحرج مركز الحملة فى مصر بسبب احتياجها إلى أشياء كثيرة لا سبيل إلى وجودها بالشرق ، ولانحطاط قواها الأدبية على أثر تقهقرها من سوريا ، ولوجود الأتراك

على أبواب مصر من الشرق ، ولثورة الأفكار فى داخل البلاد وتحينهم أول فرصة للقيام بالثورة ضد الفرنسيين. وقد أثرت هذه الأحوال فى «كليبر» فكتب مذكرة إلى حكومته وصف فيها حالة اليأس والقنوط التى وصلت اليها الحملة فى مصر، وفتح باب المفاوضات مع السير «سدنى إسمث» بقصد جلاء فرنسا عن مصر واتفقا على الهدنة أولا، وتعهد السير سدنى إسمث» بالنيابة عن تركيا بأن تنقل الحملة إلى فرنسا على سفن انجليزية على حساب تركيا (اتفاق العريش يناير سنة ١٨٠٠) ولكن كان مركز «السير سدنى إسمث» غير معترف به رسمياً وكانت الحكومة الأنجليزية واللورد «كيث» القائد العام الانجليزى لقوات البحر الأبيض المتوسط ضد عقد الأتفاق لوقوع خطاب «كليبر» الذى أرسله إلى حكومته فى أيديهم ، ومنه عرف الأنجليز حقيقة الحال فى مصر فكتب «اللورد كيث» إلى «كليبر» يقول بضرورة تسليم الجيش الفرنسى كأسرى حرب ، وعلى ذلك انقطعت المفاوضات .

انتصار «كليبر» ثم مقتله

ورأى «كليبر» أن الثورة من ورائه والعدو أمامه فجمع جيشه وبعث فيهم روح الحماسة وحصن القاهرة وقابل اربعين الفاً من الأتراك عند المطرية يقودهم الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا بعشرة الآف جندى فهزمهم شر هزيمة فى واقعة «عين شمس» (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) . وكان قد دخل جزء من الجيش العثمانى القاهرة وساعد على تأجيج نيران الثورة وحصار من بقى داخل المدينة من الفرنسيين فزحف كليبر إلى القاهرة واصطلح هو ومراد بك بأن يترك له الصعيد وحاصر القاهرة حصاراً دام شهراً ، وأخيرا خضعت القاهرة فقبض على الأتراك وأرسلهم إلى سوريا، وفرض غرامة كبيرة على البلاد وبدأ بتقوية مركز الحملة فزاد فى عدد جيشه وفتح

المصانع ووطد الأمن . وبينما هو يفتتح عهداً جديداً للحملة إذ فاجأه القدر فقتل فى (١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) وخلفه القائد «مينو» وكان أضعف خلف لسلفيه المشهورين .

تدخل انجلترا وارسالها الحملة الأنجليزية العثمانية

وكانت حكومة أنجلترا ما فتئت تتحين الفرص لأنزال حملة على مصر لتساعد السلطان على طرد الفرنسيين، فلما قتل «كليبر» وخلفه «مينو» تحققت أن الفرصة قد سنحت لضعفه العسكرى وعدم ثقة الجنود الفرنسية به لميله للبقاء بمصر واستعمارها فى حين أن الجزء الأعظم من الجيش كان يريد العودة الى فرنسا. وربما كان ميله للبقاء راجعا إلى تزوجه بمسلمة واعلان اعتناقه للأسلام. فأسرعت أنجلترا وصممت على بذل أعظم جهد لطرد الفرنسيين قبل أن تفوت الفرصة فأرسلت قوة برية على أسطول عظيم للنزول بأبى قير وعلى رأسها «السير رالف أبركرمبى» وأوعزت إلى السلطان بأرسال قوة برية عن طريق الشام وقوة تنقل على سفن شراعية الى أبى قير للاشتراك مع الحملة الأنجليزية ؛ وكلفت حكومة الهند إرسال حملة من سبعة آلاف هندى للاشتراك فى طرد الفرنسيين من جنوب مصر عن طريق «القصير وقنا».

سوء تدبير القائد (مينو)

فنزلت الحملة الأنجليزية عند أبى قير، ولو كان على رأس الحملة الفرنسية «نابليون» أو «كليبر» لجمع كل قواته وقصد النقطة المهددة وبدد الأعداء . أما «مينو» فوزع قواته ولم يعزز قوة حاكم الأسكندرية خوفا من هجوم الأتراك من الشرق وفاته أن الجيش العثمانى سيعمل بالأشتراك مع الحملة الانجليزية فلا يتحرك الا وفق حركتها . فنزل الأنجليز الى البر من غير صعوبة ولما وصل «مينو» لمقابلة العدو انهزم فى واقعة «كانوب» قرب

أبي قير (مارس سنة ١٨٠١) وقتل القائد الأنجليزى وخلفه القائد « هتشنسون » واحتمى « مينو » ومن معه بالاسكندرية فعزلها « هتشنسون » وقطع الجسر وأحاطها بالماء المالح.

انتصار الحلفاء وانهزام الفرنسيين

وسارت الحملة الانجليزية قاصدة القاهرة وانضمت عند «الرحمانية» الى القوة العثمانية التى كانت تبلغ ٦٠٠٠ على مراكب شراعية بقيادة القبطان حسين باشا وكان محمد على من ضباط هذه الحملة . ثم زحف الجيش الانجليزى العثمانى إلى القاهرة . وبعد تردد القائد « بليار » الذى تركه « مينو » حاكما على القاهرة رأى أن يسلم فى ٢٧ يونيه على أن ينقل الفرنسيون الى فرنسا على مصاريف عدوهم . أما «مينو» فصمم على المقاومة للنهاية، ولكنه أضطر فى سبتمبر إلى عقد معاهدة بنفس شروط معاهدة « بليار» . وهذه المعاهدات لا تخالف «اتفاق العريش» فى شىء ، ولم تكن نتيجة الأصرار على الغاء هذا الاتفاق إلا إراقة الدماء وزيادة فى النفقات زيادة عظيمة وفى خلال ذلك حضرت القوة الهندية ولكنها لم تشترك إلا فى بعض مناوشات بالاسكندرية قبل تسليم «مينو» .

نتائج الحملة الفرنسية

على ذلك انتهت الحملة بعد أن بقيت بمصر ثلاث سنوات وثلاثة شهور، وقد كانت نتيجتها من الوجهة الحربية لا شىء ولكن نتائجها الأدبية والاقتصادية كانت ذات شأن عظيم . انتهت الحملة بعد أن قضت على سطوة المماليك فى البلاد وفتت شوكتهم وأظهرت ضعفهم وعجزهم أمام المصريين الذين رأوا لأول مرة إمكان اعتمادهم على أنفسهم دون المماليك وتكوين دولة عربية . وهذا ما كان يرمى اليه نابليون فقد كان يؤلف المجالس الوطنية فى القاهرة وفى البلاد ليستعين بهم فى إدارة الحكومة

ويستشيرهم فى شؤونها، وكان يطبع وينشر منشوراته باللغة العربية، ولا شك فى أنه كان يرمى الى تأليف دوله عربية تجمع بين مصر والشام وبلاد العرب لو أتيح له البقاء بمصر طويلا وساعده الحظ عند عكاء.

على أن الهزة المنيفة التى سببتها الحملة للمصريين قد أيقظتهم من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى وفتحت أعينهم لعصر جديد ومدنية جديدة تنطوى على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها من قبل، فآنس المصريون من هذا الضوء بريقاً لامعاً وتنسموا فى الهواء عنصرا منعشاً من ناحية أوربا فاندفعوا بالطبيعة نحوها واصبحت أوربا من ذلك الوقت موضع إعجابهم وإرهابهم فى آن واحد. فالحملة كما أنها أيقظت المصريين من سباتهم كذلك لفتت أنظار دول أوربا إلى مصر ومركزها التجارى بين العالم وكانت مصر إلى ذلك الوقت بعيدة عن أفكار الدول لا يعلمون عنها إلا أنها ولاية عثمانية شرقية، فلما نجح الفرنسيون فى احتلالها ورأت الدول ما يمكن أن تجنيه فرنسا من الفوائد التجارية والسياسية تاقت نفس كل منها إلى التداخل فى مصر وإحراز بعض الغنائم منها.

أما انجلترا ففطنت فى الحال إلى أن لمصر مركزا حربيا بالاضافه إلى علاقاتها مع مستعمراتها فى الشرق، وأنه إذا فاقها فى مصر عدو لها أمكنه أن يكبد لها كيداً عظيما ولذلك لم تأل جهداً منذ ذلك الوقت فى انتهاز كل فرصة للتدخل فى مصر ومحاربة من يتصدى لتقوية مركزه فيها دونها.

غير أن هذا العداء لم يؤثر فى مركز فرنسا الأدبى بمصر بعد أن غادرتها الحملة، أذ أصبح للفرنسيين المركز الأول فى نظر المصريين وأصبحوا هم ممثلى المدنية الغربية والرقى الحديث فلما حان الوقت واحتاجت مصر إلى



نابليون بوناپرت

رجال يعالجون شؤونها استعانت بضباط فرنسيين فى تنظيم جيوشها ، وبمهندسين فرنسيين فى تنظيم ريها وطرقها ، وبأطباء فرنسيين وأساتذة ومشرعين فرنسيين .

وبدأ الفرنسيون يزيدون فى عدد من بقى منهم بعد ذهاب الحملة فأسسوا جالية كبيرة صناعية وتجارية وأصبحت الصلة التى تربط فرنسا بمصر صلة أشبه بالصلة التى تربط الأستاذ بتلميذه . وهذا يفسر كثرة الأموال التى دفعها الفرنسيون فى القروض وفى انشاء قناة السويس ، وظلت فرنسا مدة قرن تقريباً حافظة نفوذها الأدبى إلى أن جاء الاتفاق الفرنسى الأنجليزى سنة ١٩٠٤ فذهب بهذه الميزة .

تأسيس «المجمع العلمى المصرى»

وإن أهم أثر تركته الحملة فى مصر هوما خلفه العلماء الذين جاءوا مع نابليون وكونوا فى مصر «المجمع العلمى المصرى» المعروف لمساعدة نابليون فى تأسيس مستعمرة فرنسية على قواعد ثابتة ودعائم راسخة ، فعهد اليهم نابليون وكليبر من بعده بالبحث فى أحوال مصر المختلفة فقاموا بأبحاث خالدة وبخاصة فيما يتعلق بأحوال البلاد الطبية والتاريخية والجغرافية .والى هذه الجماعة يرجع الفضل فى درس مشروع وصل البحر الأبيض بالأحمر درسا هندسيا بهمة « لابير » الذى كتب تقريراً فنياً فى الموضوع كان موضع اعجاب واستفادة «دلسبس» فى المستقبل على الرغم من خطأه فى توهم ارتفاع سطح البحر الأحمر عن سطح البحر الأبيض مما أدى الى تعطيل انشاء قناة السويس .

كذلك قام المعهد العلمى بوضع خريطة جغرافية صحيحة عن مصر وبدرس تاريخ مصر القديم والتنقيب عن الآثار القديمة التى أجادوا فى

وصفها ورسمها .

ولما جاءت الحملة الى فرنسا أمرت حكومة القنصلية فطبعت جميع أبحاث العلماء فى مجلدات عنوانها « وصف مصر » وهى أوثق المصادر التى نستمد منها تاريخ مصر الطبيعى وأحوالها عند دخول الفرنسيين أما «حجر رشيد» فقد كشفه ضابط فرنسى اسمه « بوشار » ولكن استولى عليه الأنجليز أثناء حملتهم الاولى، وهو الآن فى متحف لندره .

وفى سنة ١٨٢٢ انبرى «شامپليون» الفرنسى لحل الغاز اللغة المصرية القديمة المنقوشة على الحجر مستعينا باللغتين الديموطيقية واليونانية المنقوشتين على الحجر . وللحملة يرجع الفضل فى إقامة الصنائع والمعامل وتنظيم الطرق وانشاء المطاحن للغلال والمستشفيات والحدائق والمتنزهات والعناية بالرسم والنقش والتصوير وانشاء المكاتب وطبع الجرائد . ولهم فضل كبير فى تأديب عرب الصحراء الذين كانوا يغيرون على القرى وفى تحصين القاهرة وساحل مصر الشمالى وغير ذلك من الأصلاحات التى وان لم تكمل إذ ذاك قد كونت النواة التى تجمعت حولها اصلاحات محمد على العظمى فى المستقبل

الفصل الثانى

تنازع البقاء فى مصر بعد الحملة

لما رحل الفرنسيون عن مصر بقى بها ثلاث قوات مختلفة : أولا العثمانيون ويمثلهم يوسف باشا بالقاهرة وحسين باشا القبطان بالاسكندرية. ثانيا الجيش الانجليزى تحت رياسة أمير البحر « لورد كيث » وكان الجيش معسكراً فى إنبابه وفى الاسكندرية . ثالثاً المماليك الذين ساعدوا العثمانيين والانجليز فى الوقائع الأخيرة. وكان المماليك هم الحزب الأقوى بسبب معرفتهم للبلاد وخوف الأهلين منهم وتعودهم طاعتهم على الرغم عما نالهم من العطب بسبب قلة عددهم على أثر الحروب الأخيرة وعدم سماح السلطان لهم بجلب مماليك جديدة إلى مصر ، وقد دعاهم ذلك إلى تكميل عددهم بضم بعض الأعراب إلى صفوفهم . لذلك لما رحل الفرنسيون عاد امراء المماليك إلى طرقهم الأولى فى الحكم بالسطو على القرى واهلاك الحرث والنسل أينما حلوا .

انتشار الفوضى فى البلاد

وكان الجنود العثمانيون كذلك يكثرون من التعدى على الأشخاص والسطو على محال التجارة وعلى البيوت ، وحجتهم فى ذلك كله أنهم خلصوا البلاد من « الكفرة » الذين ساموا الناس العذاب وانتهكوا حرمة بيوتهم وعلى ذلك كان حقاً على المصريين أن يسمحوا لأولئك المجاهدين بشيء مما سمحوا به للأجانب . وكانت الجنود لا تجد لها عملا إلا سلوك هذا المسلك

الوعر وذلك لتأخر صرف رواتبهم بسبب إفلاس خزانة الوالى وعدم قدرة الأهالى على الدفع بسبب ما حل بهم فى السنوات الأخيرة من العطل والغرامات، وبسبب قلة الزرع والحصد فى السنوات الأخيرة. ولو أن الحال وقفت عند ذلك لرضى المصريون بالانزواء فى بيوتهم كما اعتادوا من قبل وقنعوا بالشىء اليسير. ولكن مما زاد الحالة حرجاً انشقاق المماليك بعضهم على بعض من جهة وانفصام عرى الجنود العثمانية من جهة أخرى، فكانت الحروب بين الجماعات والأفراد ناشبة فى البلد فى كل شارع وفى كل وقت مما أدى إلى إغلاق الحوانيت ومحال التجارة وتملك الفزع من النفوس

والحقيقة أن المدة من يونيه سنة ١٨٠١ ويونيه سنة ١٨٠٥ لم تكن إلا فترة اضطراب وارتباك كانت مصر فى أثنائها فى حالة فوضى ليس لها مثيل فى التاريخ إذ انحطت فيها البلاد إلى الحضيض من كل وجهة. تعاقب عليها فى هذه المدة سبعة أو ثمانية حكام قتل منهم اثنان وطرد الباقون بعد أن سجنوا، وفى هذه الفترة كانت بعض المماليك حكومة فرنسا طالبين حمايتها وانفق آخرون على طلب حماية انجلترا وقد نزل فى هذه المدة بمصر كثير من مختلف الجنود: ارناؤد وانكشارية ودلاة من الشام فساموا الناس سوء العذاب ولما لم يجد الحكام نقوداً حاضرة عمدوا إلى أخذها قسراً، فقتلوا من النصارى و اليهود والمماليك عدداً عظيما بقصد الاستيلاء على ثروتهم. كل ذلك أثار امتعاض عامة المصريين وسخطهم إلى درجة جعلتهم يتحينون الفرص للتخلص من هذه الفئات الطاغية.

والحقيقة أنه لم يفطن لحقيقة الحال إلا شخص واحد هو محمد على. فلا تركيا أمكنها أن تنتفع بمركزها بعد خروج الفرنسيين، ولا انجلترا.

ولا المماليك انفسهم . أما فرنسا فيظهر أنها نفذت إلى قلب محمد على وعرفت أغراضه فعضدته منذ الساعة الأولى . وأما انجلترا فانها عجزت عن اكتناه حقيقة الحال لأنها وطنت نفسها على أن يكون لها حق احتلال أو حماية السواحل الشمالية لمصر بعد خروج فرنسا . وذلك اما باستمرار المحالفة مع تركيا إن فاقت تركيا غيرها فى مصر، أو باتفاقها مع المماليك إذا لم تتمكن تركيا من ذلك .

تلخيص خطة انجلترا بعد الحملة

ولكنها أخفقت فى الحالتين ، فان فرنسا عقب خروج الحملة بدأت مفاوضات الصلح مع تركيا وتم ذلك فى سنة ١٨٠٢ بفضل « سبستيانى » سفير نابليون فى القسطنطينية بالرغم من العراقيل التى وضعتها انجلترا . ثم عقد صلح « أميان » سنة ١٨٠٢ بين انجلترا وفرنسا ، وبه نزل كل جانب عما احتله فى هذه الأثناء وتحتم على أساطيل انجلترا وجنودها الخروج من مصر وتم ذلك فى مارس سنة ١٨٠٣

وبعد ذلك أستعد الأنجليز لتنفيذ سياستهم بالطريقة الثانية وهى طريقة الاتفاق مع المماليك . وذلك أولا بمساعدتهم ضد العثمانيين فى كل حروبهم، وثانياً بدعوة محمد الألفى بك الكبير إلى انجلترا حيث اكرموه وقدموا له الهدايا واتفقوا معه على أن تسعى الحكومة الانجليزية لدى الباب العالى ليعفو عن المماليك ويترك لهم السلطة فى مصر برياسته . وإذا ما تم له ذلك ترك ادارة الاسكندرية والسواحل فى أيدى انجلترا . ولكن هذه السياسة أيضاً لم تصادف نجاحاً . وذلك لأن عثمان بك البرديسى وابراهيم بك زعماء المماليك كانا بالاتحاد مع محمد على ينافسان الألفى فتمكنا من قهره . ولما طاش سهم الانجليز سعوا لدى الباب العالى بأن يصدر أمره

بطرد الألبانيين من مصر ومعهم رئيسهم محمد على والما يتم ذلك كشفت انجلترا القناع وأرسلت حملة القائد «فريزر» فى سنة ١٨٠٦ الى مصر كما سيجىء بعد.

المماليك ومحاولة الفتك بهم

أما المماليك تلك الفئة الطاغية التى هى كأسرة « البوربون » فى فرنسا لم تتعلم شيئاً من محنها ولم تنس شيئاً من ماضيها ، فانهم كانوا يمنون أنفسهم بعد خروج الفرنسيين بأن ينالوا مركزهم القديم فى البلاد و يعيشوا عيشة البذخ والتنعم بالسطو على أهلها . ولكن هناك عوامل كانت من أقوى الأسباب على زوال قوتهم وهى انفسامهم وكره الأهالى لهم ورغبة السلطان فى الخلاص منهم . ولقد أبدى الباب العالى فى أول الأمر رغبته فى أن يتمكن ممثلو سلطته من الايقاع بالمماليك ، وتنفيذاً لهذا دعا حسين باشا القبطان فى الاسكندرية الطمبورجى بك خلف مراد بك لزيارته بأبى قير هو وأتباعه وأرسل يوسف ضيا باشا فى القاهرة الى ابراهيم بك وأتباعه دعوة أخرى ، وقد قتل عدد منهم فى أبى قير فى عرض البحر ولكن تدخل القائد « هتشنسون » وخلص الباقين . وكذلك فى القاهرة تدخل القائد الانجليزى « رمزى » وخلصهم من فتك العثمانيين بهم

المماليك يستنجدون بنابليون

بعد ذلك لم يأمن المماليك البقاء فى القاهرة مع العثمانيين ، ووطنوا أنفسهم على محاربتهم حتى النهاية. وخلف الطمبورجى « عثمان بك البرديسى » وهو من أقوى زعماء المماليك وأحسنهم سياسة فبدأوا يشكون إلى نابليون حالهم وكتبوا اليه يقولون انه هو الذى أوصلهم إلى حالة البؤس والضعف التى هم فيها ، ويرجون أن يساعدهم فى إعادتهم الى سلطانهم الأول ويسمحون له مقابل تدخله بأى امتيازات يرضاها ، غير أن نابليون كان

قد شغل عن مصر بمطامع أخرى فلم يأبه بصرخة المماليك وسرعان ماقامت الحرب بينهم وبين الاتراك

انتصار المماليك على الاتراك

وكان محمد باشا خسرو أول وال عثمانى عين بعد خروج الحملة قد أرسل جيشا لمحاربة المماليك فانهزم عند بنى سويف وانتشر المماليك فى الوجه البحرى وتحصنوا عند دمنهور واتصلوا بالانجليز الذين مافتئوا يعضدونهم وخاصة بعد اتفاق نابليون وتركيا . فانتصر البرديس انتصاراً عظيما عند دمنهور فى نوفمبر سنة ١٨٠٢، وكان جيش محمد على على مقربة من الواقعة ولكنه لم يتحرك للمساعدة . ولما علم خسرو بذلك طلبه لمقابلته ليلا فاجابه محمد على انه سيحضر نهاراً ومعه جنوده

خطة محمد على المبدئية

هذا تفسير سياسة محمد على الأولى التى أوصلته الى مركز الحاكم فى مصر ، وذلك انه رأى تفاهة الأغراض التى يقاتل من أجلها الطرفان . فالوالى كان يريد اخضاع المماليك ليجعل مصر تحت سيطرة الباب العالى ويرسل منها كل سنة من المال اكثر ما يستطيع إرساله ليبقى فى منصبه . والمماليك من جهة أخرى كانوا يريدون أن تكون مصر لأنفسهم ينعمون بخيراتها ويسومون أهلها صنوف العذاب، وفى كلتا الحالتين خراب مصر واضمحلالها وانحطاطها . لذلك عوّل محمد على على أن لا يساعد فى تقوية حزب دون آخر، وصمم على أن لا يعمل إلا لما فيه نفعه الشخصى . وكان قد دبر فى نفسه أن ينتفع بمركز مصر وخصب أرضها وما فطر عليه أهلها من الولاء والسكينة فيبنى لمصر ولنفسه مركزا عاليا ومجدا مؤثلا . فلماذا إذن لا يترك محمد على هذه الفئات تتطاحن حتى تسنح له الفرصة ، وفى أثناء ذلك يمكنه بدهائه وحزمه وعقله وبعد نظره أن يعد العدة لنفسه ؛ هذا ما عوّل عليه

محمد على وهو الانتفاع بما يسنح من فرص والسعى لتنفيذ أغراضه الشخصية أو المصرية

ثورة الجنود على الوالى

أما المماليك فما كان أسوأ حظهم : لأنهم بعد انتصارهم فى دمنهور ذلك الانتصار الباهر بفضل البرديسى صدرت الأوامر بجلاء الانكليز عن مصر ومعهم الألفى . وكان المماليك يعتمدون على مساعدة الانجليز فلما رحلوا لم يأمنوا على أنفسهم فى أقليم البحيرة ، إذ كان حسين باشا قد عين خورشيد باشا حاكما على الاسكندرية فصاروا مهددين من خلفهم بعد أن كانوا فى أمان لذلك رحلوا إلى الصعيد وحاصروا المدينة وعاثوا فسادا ونهبوا وهم سائرون . فارسل اليهم خسرو الجنود ولكن هؤلاء أبوا السير حتى يعطوا رواتبهم المتأخرة ولما لم يجابوا الى طلباتهم تجمهروا فصوب عليهم خسرو المدافع، غير أن احمد باشا طاهر رئيس الحركة قاد الأرنؤود وهزم خسرو ففر هذا إلى دمياط وعين طاهر باشا واليا مؤقتا حتى يصدر الامر بتوليته . ولكن ومت قيامة الأنكشاريه وكانوا فى القاهرة مع قائدهم احمد باشا والى المدينة فطلبوا رواتبهم أيضا وقامت الحرب بينهم وبين الأرنؤود فدخل اثنان من الانكشاريه وقتلوا « طاهراً » وتولى احمد باشا الحكم وأرسل يستميل محمد على الذى أصبح بعد موت « طاهر » قائد الأرنؤود وكان عددهم نحوا من ٤٠٠٠

اتفاق محمد على مع المماليك

ولكن محمد على لم يجبه الى طلبه بل دعا عثمان بك البرديسى وابراهيم بك خضرا ، ودخل المماليك القاهرة بعد الاتفاق مع محمد على ، وتسلموا مقاليد الأعمال وطردوا الانكشاريه واحمد باشا واصبح الأمر بأيديهم . ولكن كان كل شىء يعمل باشارة محمد على، فتقرب اليه الأعيان والمماليك



القلعة عند دخول الحملة الفرنسية

والمشايخ . وسار البرديسي وقبض على خسرو واعتقله فى القلعـة . وبدأ محمد على والبرديسى يتحببان الى الناس ففتحوا مخازن الغلال ووزعوا الصدقات على الفقراء . كل هـذا والوالى الجديد على باشا الجزائرلى أو الطرابلسى بالاسكندرية يخشى الحضور الى القاهرة ، ويكاتب المماليك ليتفق معهم . وأخيراً سار إلى القاهرة ومعه عدد عظيم من الجنود ففطن المماليك لغرضـه وترصدوه فى الطريق واجبروه على الرجوع الى سوريا وقتلوه فى الطريق . وبعد ذلك حضر الألفى الكبير من انجلترا فخشى البرديسى ومحمدعلى عاقبة اتفاقه مع الحكومة الانجليزية . وكانت مصلحة المماليك تقضى عليهم إذ ذاك بالاتحاد ، ولكن البرديسى كان واثقاً وثوقاً تاماً من محمد على فلم يهتم بذلك وعمل على تشتيت قوى الألفى الذى لم يسعه إلا الأختفاء

تغلب محمدعلى على المماليك

بعد ذلك قامت ضجة الالبانيين أو الأرنؤود وطلبوا رواتبهم فاحالهم محمدعلى على المماليك إذ كان تاركا كل شيء فى أيديهم ظاهرياً، ففرض البرديسى ضرائب جديدة وأرسل رسله لجمعها فذعر الناس وقاموا صاخبين وسخط العلماء والمشايخ على تصرفات المماليك وثارت الجنود عليهم . عنـد ذلك خاف محمد على أن يكيد له المماليك كما يكيد هو لهم فلم يجد مناصاً من كشف الحجاب واظهار نياته . فأرسل فى مارس سنـة ١٨٠٤ جنوداً لحصار البرديسى فى منزله وآخرين لحصار ابراهيم بك ، فما تنفس الصبح إلا والمماليك قد رحلوا عن القاهرة، وبذلك تخلص محمد على من مشاركة المماليك له . ولم يبق بينه وبين غرضه النهائى إلا خطوة واحدة وهي تسلم مقاليد الحكم فى يده

احتراس محمد على

ولكن ذلك الباشا الحذر رأى أن الفرصة غير سانحة . فأملت عليه سياسته الدقيقة أن يتريث ، فعمد الى القلعة وفك أسر خسرو باشا . وبعمله هذا برهن أمام الشعب المصرى انه لم تكن له أغراض شخصية من فعلته وانه انما قام بعمله خدمة للمصلحة المصرية . وأظهر كذلك ولاءه للسلطان وعدم تآمره مع المماليك على الباب العالى . وبذلك حسّن محمد على مركزه فى نظر الباب العالى وفى نظر الأمة المصرية التي تعلمت أن توليه عطفها واحترامها

تولية خورشيد باشا

ولكن حياة محمد على لم تنجح ، لأن أقرباء طاهر باشا ثاروا على خسرو وأنزلوه فى قارب إلى رشيد ومنها الى القسطنطينية . واستعمل محمد على الدهاء والصبر مرة ثانية فعين خورشيد باشا حاكم الاسكندرية واليا . فوصل خورشيد واشتبك محمد على فى وقائع ضد المماليك وأخذ يطاردهم فى الصعيد . وفى أثناء ذلك بلغه أن خورشيد استقدم جندا من الشام يعرفون « بالدلاة » ليعاونوه ضد الارنؤود ، ففقه محمد على امرض خورشيد وعاد إلى القاهرة . وكان « الدلاة » قد انتشروا فى الدا[illegible] المدينة يعيثون فسادا ، وأراد خورشيد طرد الالبانيين و[illegible] محمد على ولكن هؤلاء أبوا ، وأخيراً وصل الأمر بتولية محمد على ولاية «جده» فابى محمد على أولا وامتنع عن الدخول فى القلعة فنزل الوالى إلى بيت صديق لمحمد على والبسه شارات الحكم . وعاد محمد على إلى منزله نااثر الذهب فى طريقه

نداء الشعب بتولية محمد على

وبعد ذلك بثلاثة أيام كانت الجنود « الدلاة » قد أتت مخازى استفزت غضب العلماء والأهالى فقام المشايخ والعلماء ونقابات [illegible]

فى مايو ١٨٠٥ برياسة «السيد عمر مكرم» وساروا فى موكب عظيم إلى منزل محمد على وطلبوا عزل خورشيد باشا ، فسألهم محمد على عمن يريدون توليته بدله ، فقالوا أنهم يريدونه هو . وساروا نحو القلعة فأبى خورشيد النزول وقال انه معين من قبل السلطان بخطه الشريف فلا ينزل عن كرسيه بأمر « الفلاحين » واستمر محصوراً فى القلعة حتى حضر مرسوم السلطان بتولية محمد على حكم مصر فى يوليه سنة ١٨٠٥ ، فاذعن خورشيد للأمر .

مصاعب محمد على

وصل محمد على إلى غرضه الأساسى ولكنه وجد نفسه فى مركز لا يقل خطورة عن مركز سابقيه . فكان أمامه المماليك فى الصعيد يتهددونه ويبذلون كل شىء فى سبيل طرده من مصر ، فلم يكتفوا بالكتابة إلى خورشيد باشا يعلمونه باستعدادهم لتعضيده ضد محمد على ، بل سعوا سعيا متواصلا لدى ممثل انجلترا يطلبون مساعدة الحكومة الأنجليزية وحض السلطان على استدعاء محمد على واعادتهم إلى مراكزهم . كذلك كانت أمامه مشكلة دفع رواتب جنوده المتأخرة . فكان احتياج محمد على للمال عظيما لمقاتلة المماليك ولاعطاء الجنود مرتباتهم . غير انه اتبع فى ذلك سياسة حكيمة وهى انه اظهر لأصحابه من المشايخ والعلماء ضرورة جمع المال منعاً لتألب الجنود واستعداداً لهزيمة المماليك أعداء المصريين ، وبفضل هذا الاتفاق فى الغرض حصل محمد على على الأموال اللازمة من غير أن يعرض نفسه لكره الشعب

محاولة نقل محمد على من مصر

أما من جهة المماليك فقد استعملت الحكومة الانجليزية سياسة الضغط على حكومة القسطنطينية حتى أرسلت عفواً عن المماليك وأسطولا عظيما يحمل موسى باشا والياً جديداً على مصر ومرسوماً بنقل محمد على

إلى ولاية سالونيكا. فتظاهر محمد على بالقبول ولكنه حرك المشايخ والعلماء فكتبوا التماساً للسلطان ولقبطان الأسطول. وظل الألفي يكاتب ويرسل الهدايا والقبطان يشدد على محمد على وجنوده بالخروج من مصر. إلى أن دعا القبطان أمراء المماليك اليه وانتظر فلم يحضر أحد. وما لبث أن رأي بثاقب بصيرته ما عليه المماليك من تفرق الكلمة والشقاق إذ أبى البرديسى أن يشترك مع الألفى فى الاستنجاد بانجلترا. فنزل القبطان عن رأيه الأول وكتب يؤيد محمد على فأرسل محمد على الهدايا إلى السلطان مع إبنه ابراهيم وكتب خطابا يتعهد فيه بكل ما يطلبه الباب العالى فيدفع ٤٠٠٠ كيس « فى كل كيس خمسة جنيهات مجيدية » كل سنة زيادة على قيامه بالحج ونفقاته. وتثبت محمد على فى ولاية مصر فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وبتثبيته انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة وأصبح أمر مصر بيد محمد على

موت البرديسى والألفى

غير أن الألفى لم يقلع عن سياسة المناوأة فأرسل يستنجد بالحكومة الأنجليزية التى وعدته فى هذه المرة بأرسال حملة انجليزية مكونة من ٦٠٠٠ جندى تعمل بالاشتراك مع المماليك. فظل الألفى يترقب وصولها عند دمنهور، ومحمد على يرسل ضده قوة بعد أخرى فكانت تنهزم فى كل مرة. وأخيراً مات البرديسى فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ ففرح محمد على كثيراً وما لبث أن تضاعف سروره بموت الألفى فى يناير سنة ١٨٠٧، وأيقن أن مصر قد أصبحت له فأخذ محمد على ينظر فى اصلاح الأحوال فى مصر وجمع من المال ما أمكنه جمعه من الأقباط والعلماء والتجار.

وصول الحملة الانجليزية بقيادة « فريزر »

ولم يكد محمد على يشرع فى الاصلاح حتى دهمه خطر جديد وهو بلا شك أول صدمة قوية واجهته فى أوائل حكمه وذلك انه لما أعيت

انجلترا الحيل فى تثبيت نفوذها فى مصر بواسطة المماليك عمدت إلى استعمال القوة ، فأرسلت حملة بحرية ضد تركيا فى سنة ١٨٠٧ بقيادة أمير البحر « دَكورث » لترغم تركيا على التخلى عن محالفتها مع نابليون وعلى الانضمام مع روسيا وانجلترا ضده . فلما لم تذعن لذلك أعلنت عليها الروسيا الحرب ووقفت العمارة الانجليزية بالدردنيل وأخذت الحكومة العثمانية تستعد للدفاع بفضل تعضيد « سِبَستيانى » سفير نابليون فى القسطنطينية ، فأعلنت تركيا الحرب وأقامت الاستحكامات ونصبت المدافع ودبّت الحماسة فى قلوب السكان فتطوع الشبان آلافا فى خدمة الأسطول الجديد . فلما رأى الانجليز ما عليه البوغازات من المناعة انقلبوا على اعقابهم وباءت الحملة بالفشل بعد أن أصابها بعض العطب اثناء هروبها فى مارس سنة ١٨٠٧

انهزام الحملة عند رشيد

ولم ترض انجلترا أن تظهر بمظهر الفشل فأرسلت حملة بقيادة « فريزر » أمام الأسكندرية فى ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ ، وهذه هى الحملة التى كان قد وعد بها الألفى من جانب الحكومة الانجليزية ، ولو كان حيا لكان للحملة شأن غير شأنها . وأراد الانجليز أن يتشبهوا بالفرنسيين فرسوا عند الاسكندرية وسلمت المدينة من غير مقاومة تذكر ، ثم احتلت الحملة رشيد بسهولة فظن الانجليز ابهم فى « نزهة حربية » ، وكان الوقت صيفا فانتشروا فى رشيد وألقوا أسلحتهم وتفيئوا الظلال نائمين ناعمين . وانهم لكذلك إذا بحاكم المدينة قد أمر فأطلقت عليهم النيران من النوافذ ومن فوق الجدران فبادت الفرقة جميعها وأرسلت الأسرى ورءوس القتلى للقاهرة تأييداً لخبر الانتصار .

موقف محمد على

وقد وصل خبر الحملة إلى محمد على وهو بأسيوط يحارب المماليك

ويطاردهم، فخاف جانب الانجليز وتلكأ أولا ولكن مالبث أن اتخذ الأهبة للسفر وترك العلماء يقومون بعقد الصلح ويجيبون المماليك إلى كل مطالبهم على شرط أنهم يحاربون العدو المهاجم ، وأخذ محمد على يعد العدة للمقاومة ويبدى همته المعهودة فشرع ينظم قواته بمشورة صديقه « دروڤتى » ممثل فرنسا الذى ما فتئ من أول ظهور محمد على يرشده إلى الطريق الحكيم والسياسة الرشيدة التى تمكنه من الظهور على أعدائه . فدرّب الجنود على طرق الحرب الحديثة وبنى الاستحكامات ، وفى اثناء ذلك كان « فريزر » قد أرسل قوة كبيرة إلى رشيد على رأسها القائد « أستوارت » لينتقم لما أصابه من الهزيمة الأولى فلم تفلح ونقهقرت إلى الاسكندرية خوفا من أن يصيبها ما أصاب سابقتها . ورأى « فريزر » انه ليس من الحزم أن يعرض جيشه لهزيمة فجائية فقطع سد بحيرة مريوط وأحيطت الاسكندرية بالماء الملح كما فعل « هتشنسون » فى حملة سنة ١٨٠١ . وظل بالاسكندرية ينتظر مفاوضات مماليك الألفى الذين انتخبوا شاهين بك رئيسا لهم

المماليك لا يتحركون لمساعدة انجلترا

وكان المنتظر أن يخابر « فريزر » المماليك ويدعوهم إلى الوفاء بعهودهم وهى القيام بالثورة فى الداخل ليقع محمد على بين نارين ، ولكن [illegible] فى بافيا لتفاقم الخطب ولتعذر عليه توجيه عناية ضد العدو المهاجم من الخارج . ولكن ماذا كان ينتظر من المماليك الذين ترددوا والانجليز منتصرون . أيقومون الآن والانجليز منهزمون ؟ آثر المماليك فى هذه المرة المصلحة القومية والمابة على الفائدة الشخصية وأخلدوا الى السكينة بفضل اقناع العلماء لهم بأن قيامهم مع الانجليز مجلبة للشر وفيه خروج عن الدين ، وتلى الجد وص أن الانجليز قوم متمسكون بشعائرهم الدينية وليسوا كالفرنسيين.

لا يعرف لهم دين .

عقد الصلح وجلاء الانجليز عن مصر

وبعد أن أمن محمد على جانب المماليك واستمالهم اليه زالت هواجسه ومخاوفه وخرج على رأس جيشه لمقابلة الانجليز، فعجل هؤلاء بفتح مفاوضات الصلح فتم ذلك بتبادل الأسرى، ورفض محمد على قبول فدية عن أسرى الانجليز فترك بذلك أثراً حسنا فى نفوسهم لاسيما وانه أحسن معاملة الاسرى وعنى بالجرحى منهم فاحضر الأطباء والممرضين لمداواتهم والسهر على راحتهم . فاكسبه كل ذلك رضاء الحكومة الانجليزية عنه . ولم يكن ليعرف هذه الاساليب الحديثة لولا ارشاد « دروقى » له وقد أقلعت العمارة الانجليزية على عجل فى سبتمبر سنة ١٨٠٧ بسبب عقد صلح « تلست » بين روسيا ونابليون إذ اصبحت انجلترا بعد ذلك بمفردها أمام نابليون .

بذلك تغلب محمد على على اعظم خطر تهدده إلى ذلك الوقت فى حياته الجديدة، وزاد حبه فى قلوب المصريين فاصبح فى نظرهم بطل مصر وحامى ذمارها ووصل اسم محمد على لأول مرة إلى مسامع أوربا وصار بذلك من عوامل السياسة فى العالم الخارجى اما الباب العالى فدارى حسده وانعم على محمد على بحكومة السواحل المصرية وقد كانت الى ذلك الوقت تحت حكم السلطان مباشرة وفى دائرة نفوذ القبطان باشا

ولما انتهى محمد على من أمر الأنجليز التفت إلى تنظيم الأحوال . فكان من أول اعماله أنه سلم مقاليد المصالح المصرية لأشخاص اكفاء من ذوى قرباه او من اتباعه « قوله » مثل محمد بك الدفتردار وحسن باشا الأرنؤودى . ثم ارسل لجلب زوجته واولاده، وعينهم فى المناصب العالية

واعتمد عليهم فنجح نجاحا عظيما . واستمر محمد على للنهاية يثق بأولاده واحفاده ويوليهم عطفه واهتمامه فحاط بذلك ملكه بسياج من الأمانة وتبادل المحبة إلى درجة غير معهودة ، ولم يصب ملكه لشيء من منافسات الأسر التي هي آفة دول الشرق . ولما اصلحت الأمور بحسن تدبيره مالت اليه قلوب المصريين، وقبلوا دفع الضرائب المنظمة لما رأوه من ثمرة الاصلاح وخاصة في وسائل الدفاع عن القطر، إذ أمر بتحصين السواحل عند دمياط ورشيد وابي قير والاسكندرية والسويس، وأصبحت الأمور لأول مرة في أيدي حكومة قوية مصلحة

الفصل الثالث

نهضة محمد على (١)

خصائص القرن التاسع عشر

ولد القرن التاسع عشر والثورة الفرنسية تتمخض عن نابليون ابنها الحقيقي الذى مالبث أن سوى حسابها وأخذ أمرها بيده وواصل السعى وهو أحد أفراد الشعب حتى تسنم مركزا ظهر به على الذين توارثوا تالد ما لكهم عن ملوك متوجة تستمد عظمتها وأحكامها من لدن الله تعالى. هنا بلغت الثورة الفرنسية المتجسمة فى شخص نابليون سمت النجاح فنفذ نورها الى قلوب الشعوب فى كل صقع ووصل أثرها الى أعماق النفوس من حيث تدرى ولا تدرى ، حتى اذا ماتألبت الرءوس المتوجة على نابليون وتمكنت فى النهاية من أسره وكسر جنده وانظمته انبلجت الحقيقة

---

(١) ولد محمد على فى ميناء «قوله» بالبانيا (وهى الآن تابعة لليونان) فى سنة ١١٨٢ هجرية (سنة ١٧٦٦ افرنكية) وقد ولد فى نفس هذه السنة « نابليون بونابرت » و « ولنجتون » وكانت هذه المصادفة موضع فخر محمد على على الدوام. كان الابن الوحيد الذى عاش لأبيه ابراهيم اغا رئيس حرس المدينة فأغدق عليه النعمة ومات أبواه ولم يتركا له شيئا فكفله عمه طوسون ومات فآواه الشوربجى حاكم البلد ورباه مع ولده وزوجه من احدى قريباته، واشتغل محمد على بالتجارة وتعرف بفرنسي اسمه المسيو « ليون » وقد أرسلته حكومة الباب العالى ضابطا على فرقة « قوله » التى سارت لمحاربة الفرنسيين بمصر فى سنة ١٨٠ وأعجب به رؤساء الجيش عند الرحمانية ففاز رتبة « قائد » ثم بقى بمصر بعد خروج الحملة مع الجنود الالبانية وقام بخدمة خسرو باشا وأنعم عليه برتبة « رئيس فياق » .

وبقيت روح الثورة عاملة بين الأمم التي استضاءت بهديها على الرغم من معادرة الملوك لها في حلفهم المقدس وغيره. وما كان في مقدور حكومات أوربا أن تتسلط على نفوس الناس أو تطفىء نور العرفان أو تمحو حقائق التاريخ من صدور مستوعبيها، لذلك سرعان ما قامت الثورات في العالم المتمدين وسرعان ما تشخص نابليون الملك في غيره من الأفراد — وزراء وجنود ما جرت في عروق آبائهم أو أجدادهم قطرة من دماء الملوك من قبل ولكنهم وصلوا الى ما وصلوا اليه من سلطان أو ملك بمحض جهادهم ونبوغهم مثل هؤلاء «برنادوت» في السويد و«مورا» في ايطاليا و«تابوزستريا» في اليونان «ولويز نابليون» في فرنسا «ومحمد علي» في مصر.

محمد علي ونابليون

إن محمد علي إلا نابليون آخر ولدته الثورة أيضا ولكن في الشرق. فلولا الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر ما وطىء محمد على أرض مصر. والحملة الفرنسية من بنات أفكار الثورة قامت بها الثورة في شخص نابليون. [illegible] اضطر الى الرجوع الى فرنسا ولحقته الحملة الفرنسية بأكملها بعد [illegible] ظهر محمد علي على مسرح [illegible] بمصر [illegible] سياسة نابليون في الشرق بكل حذافيرها. [illegible] محمد علي حيث أخفق نابليون. فقد ساد الشرق [illegible] الأحمر وطريق نهر الفرات، وجمع [illegible] العرب تحت [illegible] من جزيرة «كريت» غربا الى خليج العجم شرقا [illegible] شمالا الى [illegible] جنوبا، وحارب [illegible] سنوات [illegible] وانتصر على جيوش السلطان في مواقع عدة. وكان [illegible] على [illegible] أن [illegible] من عرش الخلافة

ثم نال محمد على من لدن الدول ما نال نابليون نفسه فقد تحداها حتى تحالفت عليه فى آخر الأمر وأرغمته على الخضوع ولكن نظر محمد على إلى الظروف المحيطة به بعين الحكمة والحذر فأبدل اخفاقه نصراً وثبت لنفسه بموافقة الدول عرشاً لا يزال يتوارثه نسله إلى الآن ، أما نابليون فقد خسر باخفاقه فى «واترلو» كل شىء . ليست الموازنة بين نابليون ومحمد على ضربا من المبالغة أو المغالطة ، فأوجه الشبه بينهما كثيرة على الرغم من اختلاف أحوالهما اختلافا بينا — والمطلع على المستندات الرسمية السياسية التى دارت بين ممثلى الدول ومحمد على أثناء أزمة سنة ١٨٤٠ يرى أن كثيرا من ساسة ذلك العصر وهم ينصحون أو يهددون محمد على لم يترددوا فى الاشارة إلى العواقب الوخيمة التى قد تعود عليه كما عادت على نابليون من قبل من جراء مخالفته الدول . أما السحر الشخصى الذى كان لاسم نابليون على محمد على فقد كان عظيما حتى جعله يدرس تاريخ نابليون درسا وافيا من أوثق الكتب الفرنسية ، وظل نابليون القدوة والمثل الأعلى الذى اختاره محمد على لنفسه طول حياته وبقى النهاية ينتفع بخدمات رجال نابليون والذين اضطهدتهم الحكومة الفرنسية عقب عودة الملكية فزودوا وجوههم شطر مصر ومصلحها العظيم

وكما أن نابليون بونابرت الايطالى جاء فرنسا وهو جندى وما لبث أن أصبح ملكا مطلقا بارادة الشعب الفرنسى ، كذلك جاء محمد على الألبانى [illegible] وما هى إلا خمس سنوات حتى أصبح صاحب الأمر بارادة الشعب المصرى فحمد على مصرى مثلما قيل انه ألبانى أو تركى كما [illegible] نابليون فرنسى مثلما قيل انه «قورسيقى» أو ايطالى [illegible] ما خل [illegible] مصر فاتحا [illegible]

يملكها بحد السيف انما حقه مستمد من أهل مصر الذين نادوا به حاكما وأجبروا الباب العالى على الموافقة . لقد كان يوم ٥ صفر سنة ١٢٢٠ (مايو سنة ١٨٠٥) بمصر من الأيام التاريخية المشهودة ففيه وضعت مصر بيدها الحجر الأساسى لحريتها اذ تمثلت طوائف مصر المختلفة من علماء ومشايخ وصناع وتجار وساروا فى شوارع القاهرة إلى منزل محمد على بهيئة مظاهرة وطنية عظمى منادين بسقوط « العثمانلى » ومعانين رغبتهم فى تولية محمد على . وعلى ذلك يكون محمد على لفظة الشعب المصرى وكلمته الفاصلة فى موضوع الحكم فى مصر

منذ ذلك التاريخ أصبح محمد على بطل مصر الفذ وما زال يعمل على أحياء وتقوية مصر زراعيا وحربيا وصناعيا وتجاريا حتى أصبحت فى ربع قرن بفضل جهوده الهرقلية أول دولة فى الشرق كله وثالث دولة بحرية فى البحر الابيض المتوسط بعد انجلترا وفرنسا . ولم يكن ليتيسر له ذلك لولا غريزة « التاجر » التى كانت تحرك قواه النفسية والتى قادته الى هذا النجاح المنقطع النظير .

« حرب الوهابيين »

ضعف الباب العالى

لم يشأ الباب العالى أن يترك محمد على بمصر هادىء البال يعمل على تقويتها واصلاحها على الرغم مما بذله فى تخليص مصر من المفسدين والأعداء فحالما رحلت حملة الانجليزية أتت المكاتبات اليه بضرورة الاستعداد لمقاتلة الوهابين وكانت داخلية بلاد الدولة فى حالة من الفوضى شديدة والحكومة عاجزة عن صيانة البلاد من الخراب وسبب ذلك زندقة

السلطان سليم الثالث في إدخال النظام الحديث في الجندية في سنة ١٨٠٨،
فقام العلماء وساعدوا الانكشارية على الثورة فخربوا ودمروا واستبدوا
بالأحكام بعد أن عزلوا السلطان سليم وولوا السلطان مصطفى الرابع،
ثم ما لبث أن انتصر أعداء الانكشارية وعزلوا السلطان مصطفى ثم
قتلوه بعد بضعة أشهر وولّوا السلطان محمود الثاني، وكان شابا حازماً فصالح
الانكشارية وترقب الفرص للقضاء عليهم. ولكن هذه الحوادث تركت
الجيش في حالة سيئة من الضعف، فلما رأى السلطان أن قوة الوهابيين
أخذت تستفحل وان جنوده تنهزم في كل مرة كتب إلى محمد على ليجهز
حملة على الوهابيين (١٨٠٩) وكانوا قد استولوا على الحرمين وقطعوا طريق
الحج وهدموا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ودانت لهم العرب بأكملها.

منشأ الوهابيين

ظهر في أوائل القرن الثامن عشر رجل في بلاد «نجد» اسمه محمد بن
عبد الوهاب من علماء الحنابلة وكان يظهر شذوذاً في كثير من المسائل
الدينية ومخالفة للسنة وأئمة الدين. وخلاصة مذهبه أن التوسل لله بالنبي
شرك وان زيارة قبر النبي وقبور الأنبياء جميعهم والأولياء شرك. ومن
دعوته التقشف وعدم التزين بالحرير والذهب وهدم المزارات وقباب
الأولياء لأنها من مظاهر الوثنية، ومنع الناس من التدخين والمسكرات.
ومن دعوته أيضاً التمسك بالقرآن الكريم. ولما ذاع أمره دعاه محمد بن
سعود أمير «الدّرعية» الى المكث في بلاده فدخلها محمد بن عبد
الوهاب في سنة ١٧٤٦ وقد وعده بن سعود بحمايته ممن يناوئه، فانشر دعوته
وأخذ نفوذه السياسي يزداد بانضمام بن سعود اليه، فكاتب مشايخ القبائل
ودعاهم الى مذهبه والا قاتلهم برجال «الدرعية» جهادا في سبيل الحق فأذعن

له كثير وحضروا اليه فى الدرعية حتى زاد عدد أنصاره زيادة يخشى منها.
ثم تزوج بن سعود بابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز الذى
خلف أباه سنة ١٧٦٥ وكان شجاعا فدانت له شبه جزيرة العرب ، وكانت
الدولة إذ ذاك مشتغلة بمشاكلها الخارجية فى أوربا وفى مصر . ومات فى
١٨٠٢ وخلفه ابنه سعود فهدد الدولة فى العراق والشام وهزم جنودها
وفتح مكة والمدينة واستولى على ما فيهما من التحف ، ونشر دعوته بهمة
وكتب الى السلطان سليم يأمره بعدم إرسال المحمل السنوى الى البلاد
المقدسة بالزمر والطبول قائلا أن ذلك ليس من الدين فى شيء . هذه كانت
الحال لما وصل الى محمد على فى سنة ١٨٠٩ أمر تجهيز الحملة

تجهيز محمد على للحملة

ولما وصل الأمر بذل محمد على جهده فى تجريد العساكر وتجهيز
المؤن والذخائر ، ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر الى بلاد
العرب صعب للغاية يهلك فيه كثير من الجند ونووا [illegible] على
ان يتخذ طريق البحر الاحمر الى ينبع وجده . و[illegible] هذه العزمة
حين لم يجد سفنا له لنقل الجند الى الحجاز اصدر اوامره الى سائر جهات القطر
المصرى بجمع الخشب وما يلزم لانشاء خمسة عشر سفينة كبيرة وطلب من
الاستانة ارسال الخشب كذلك . ولما تم جمع الاشياء [illegible]
احضرت الى ساحل بولاق حيث انشأ هناك دار صناعة مكونة من
معامل مختلفة اجتمع فيها النجارون والنشارون والحدادون وغيرهم ولما
اعداد اجزاء السفينة كانت تحمل على الجمال الى السويس وهناك يجمع
الصناع اجزاءها ويهيئونها للنزول الى البحر ، وانجز عمل اربع سفن كبيرة
من النوع المعروف « بالابريق » واحدى عشرة من النوع [illegible]

«بالشونة». وسافر محمد على بنفسه الى السويس ليباشر العمل بهمته المعهودة وكان الجيش المراد نقله يبلغ ٢٠٠٠ من الفرسان يسيرون عن طريق القصير و ٦٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من المدفعية يسيرون بحراً بطريق السويس.

تحفز المماليك

وفى اثناء اشتغال محمد على ورجاله فى تجهيز الحملة كان المماليك يمنون أنفسهم بقرب القضاء على سلطان محمد على فى مصر . وكان محمد على قد صالح مماليك الالفى وأقطع شاهين بك الجيزه والفيوم وأسكنه قصراً فخماً بالجيزة، فجاء المماليك من الصعيد وخيموا بالجيزة وبلغ محمد على وهو بالسويس خبر استعدادهم للحرب فوصل القاهرة بسرعة خوفاً من تربص المماليك به فى الطريق ونزل اليهم هو وابنه طوسون وبعض جنوده، وكان شاهين الالفى قد انضم الى ابراهيم وحنث فى تعهده لمحمد على فأخذ محمد على يستميل اليه بعض أمراء المماليك فانحاز اليه كثيرون وما زال محمد على وابنه طوسون يستميلانهم حتى انحاز اليه اكثرهم وانهزم الباقون وتشتتوا فى الصعيد.

الفتك (?) بالمماليك

ولما عاد محمد (?) على الى مصر ومعه أمراء المماليك الذين تغلب عليهم [illegible] رأى أن المسألة بينه وبينهم أصبحت مسألة حياة او موت (?) وأنه يستحيل (?) عليه أن يأمن جانب المماليك ما داموا يعيشون [illegible] . فصمم (?) على أن يغدر بهم إراحة لنفسه ولمصر [illegible] فدبر لهم مكيدة القلعة الشهيرة فى أول مارس [illegible] الأمراء والأعيان بملابسهم الرسمية للاحتفال [illegible] جاءوا الى القلعة وقابلهم محمد على بلطف وترحاب، ثم سار الموكب [illegible] بعض الجنود والمشايخ والاعيان وبينما

أمراء المماليك سائرون في الطريق الجبلي إلى «باب العزب» أقفلت الأبواب وأطلقت النيران من كل صوب على صفوف المماليك المحصورين بين الأسوار في ذلك الطريق الضيق فحصدتهم النيران واستمر الضرب حتى فنوا أجمعهم إلا اثنين. ثم سرى الخبر إلى الخارج فقتل عدد عظيم في القاهرة وفي الأقاليم بأمر الباشا.

مكيدة المماليك في نظر التاريخ

وكانت هذه الحادثة في يوم الجمعة واستمر التقتيل إلى يوم السبت فخرج محمد على وابنه طوسون وأوقفا النهب والسلب والقتل وأخذ محمد على أبناء المماليك وأدخلهم في خدمته وأجرى الأرزاق على نسائهم وزوجهن لضباط جيشه وأتباعه، وقتل من المماليك في هذه المكيدة نحو من ألف منهم اربعمائة من الامراء والباقون من الأتباع. وبذلك قضى محمد على في يوم وليلة على طائفة طالما أراد الباب العالي القضاء عليها فأعياه الأمر. قضى محمد على عليهم ولكن لا في ميادين الحرب حيث يجتني الشرف ويبرر القتل قضى عليهم خاسة وغدرا وهم في ضيافته لا فرق بين مجرم منهم وبرىء، فخلف في تاريخه نقطة سوداء إذا بررت وجودها الضرورات السياسية فلا يمكن أن تمحو عارها أبدا. ولكن يجب قبل الحكم - الذى لا سبيل للعواطف اليه - أن نفهم الزمن والأحوال والبيئة التي كان يعيش فيها محمد على ونذكر سوابق الطائفة المجنى عليها فلا نحكم عليه بمقتضى مقاييس الأمم الراقية

لقد أعيا أمر المماليك محمد على إلى درجة لم يدع له مجالا للتريث فما كانت الحروب تفنيهم ولا المعاهدات تربطهم ولا الوفاق يستميلهم ولا المعروف يأسرهم. بل كلما هزمهم محمد على وشتت شملهم عادوا فرفعوا

رؤسهم وتجمعوا صفوفاً ضده متحينين الفرصة للقضاء عليه . وياليتهم مع ذلك كانوا متصلين بالبلاد صلة تعود عليها بفائدة حيوية بل كانت مصالح المماليك الحقيقية متنافرة مع مصلحة البلاد والاهالى . وكأنهم فى مصر حكومة داخل حكومة أخرى تتعارض اغراضها فى كل شيء

رأى محمد على أن مصر لا يمكنها أن تخطو خطوة واحدة فى سبيل الرقى والأصلاح إلا إذا أمنت كل خطر من جانب هذه الطائفة التى لم يكن لها أثر فى مصر إلا الخراب والدمار والحروب والمجاعات . ورأى أنه عما قريب سيرسل جنده وقواده الى بلاد العرب ضد الوهابيين وأنه سيصبح من غير جيش قوى يستند عليه ويرهب المماليك به فاذا تألب المماليك ضده ربما عجز عن قهرهم وضاعت جهوده سدى ورأى أيضاً أن الحكمة السياسية تقضى بأن تسوى الحكومة مشاكلها الداخلية قبل أن تقوم لأى حرب أجنبية خوفا من أن ينال العدو منها فى الخارج . وان الفظائع الهائلة التى ارتكبت فى عهد حكم الأرهاب بفرنسا فى وقت الثورة لم يكن لها مبرر الا تهديد العدو لحدود فرنسا من الخارج لهذه الأسباب دبر محمد على مكيدته ضد قوم لو بقوا فى مراكزهم لقضوا على عدد من الأشخاص يقدر بما سفك محمد على من قطرات دمائهم(١).

خروج الحملة الى بلاد العرب

ولما خلص محمد على من شر المماليك أصدر أمره لتسيير الحملة ضد الوهابيين بقيادة إبنه طوسون وكان قد فاوض الشريف غالب فى « ينبع » واتفق معه بشأن محاربة الوهابيين فنزلت الحملة فى « ينبع » وقابلها السكان بالفرح ، وكان طوسون فى ذلك الوقت شابا يناهز الثامنة عشرة من عمره

(١) راجع تقرير دكتور بورنج : أوراق برلمانية مجلد نمرة ٢١ سنة ١٨٤٠

شجاعاً مقداماً فاعتمد على قوة جنوده وفوقانهم فى العدد والأسلحة وسار توا إلى المدينة فتقابل مع جموع الوهابيين عند بلدة « بدر » الشهيرة بانتصار النبي صلى الله عليه وسلم فانكسر الوهابيون أولا ، ولكنهم عادوا وحصنوا أماكنهم وأقاموا المتاريس واظهروا شجاعة وشدة بأس عظيمين ، فتقهقر طوسون إلى « ينبع » بعد أن فقد عدداً عظيما من جنوده. وقد ساعد على هذه الخسائر أن الجنود المصرية كانت تحارب فى ميدان وعر المسالك كثير المكامن، فكان من المتعذر معرفة طرق المسير فيه وأدى ذلك إلى هلاك الكثيرين . زد على ذلك عدم صداقة العرب للمصريين وترفع طوسون عن استمالتهم مما جعلهم يفتكون بالجنود المصرية أينما رأوهم.

انتصار طوسون أولا ثم انهزامه

ولما علم محمد على بهزيمة المصريين أسرع فأرسل المدد فخرج طوسون ثانياً قاصداً «المدينة» وكان قد استمال اليه القبائل القاطنة بينها وبين «ينبع» فلم يلق معارضة، وحاصر «المدينة» ولم يستعمل المدافع احتراما للحجرة النبوية، وأخيراً أحدث ثغرة فى السور وخلص «المدينة» من الوهابيين ثم قصد إلى «جده» فاستولى عليها وتابع السير الى «مكة» ففرت منها حامية الوهابيين ودخلها طوسون وطير خبر هذه الانتصارات الى القاهرة والقسطنطينية ففرح والده كثيراً، ثم احتلت الجنود المصرية «الطائف» من غير مقاومة أيضا فاغتاظ سعود من هذا التقدم وخاف عاقبة ذلك، وكان قد تحصن فى الداخل فخرج هو وجميع جيوشه بعد ان نظمها، وبدأ يناوش الجنود المصرية حتى قابلهم فى واقعة « تربة » شرق الطائف فكسرهم واستولى على عدة نقط حصينة ، وكان طوسون فى المدينة فكتب لوالده بإرسال المدد.

حضور محمد على الى ميدان القتال

فحضر محمد على بنفسه مع المدد عن طريق السويس ومعه عابدين بك

أحد ضباطه وأول ما عمله هو القبض على الشريف غالب لشكوك كانت تحوم حوله لأنه ترك المدينة ومكة تقع فى أيدى الوهابيين من أول الأمر وبقى هو فى جدة، وكان مذبذباً بين المصريين والوهابيين يترقب ليرى أيهما يفوز بالنصر ليتبعه فأرسلوه الى مصر عن طريق القصير ثم أرسل ابنه طوسون ليستولى على « تربه » وأرسل عابدين بك ليتتبع الوهابيين الذين يهاجمون القوافل، ولكن معرفة العرب بمفاوز الجبال جعلتهم يفلتون واصبح عابدين فى حالة حرجة إذ كان العرب يكمنون له ولجنوده فى الطريق فرجع إلى « الطائف »

انتصار محمد على وعودته

كذلك لم يقو طوسون على أخذ «تربة» فتقهقر إلى « الطائف» وأخيراً خرج محمد على من «المدينة» وقصد «الطائف» ومعه قليل من الجند، فلما علم الوهابيون بقدومه فروا من وجهه وأخذ محمد على يدبر خطة يقضى بها على الوهابيين ،وكان زعيمهم سعود قد مات سنة ١٨١٤ وخلفه عبد الله وكان قائداً ضعيفا فهزم محمد على الوهابيين عند « تربة » وكان لانتصاره هذا أثر عظيم إذ انضم اليه كثيرون فلم يبق أمامه إلا «الدرعية . ولكنه علم فى ذلك الوقت بهروب نابليون من جزيرة « البا » واضطراب العالم على أثر ذلك وجاءه خبر تمرد أحد ضباطه المدعو لطيف باشا فأسرع بالعودة إلى مصر فوصلها عن طريق القصير فى ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وهو اليوم الذى انهزم فيه نابليون فى موقعة « واترلو »

عودة طوسون الى مصر

أما طوسون فأنه احتل الدرعية وأرسل عبد الله يطلب الصلح فعقد معه طوسون صلحاً جعله وقفاً على مصادقة محمد على . ولكن عبد الله لم يذعن لكل الشروط التى جاءت فيه فهدده محمد على بأنه إن لم يقبل أرسل

اليه جيشاً جراراً يخرب بلاده. ثم وصلت إلى طوسون أخبار مبالغ فيها عن حرج مركز والده بمصر فغادر بلاد العرب لنجدة والده وترك مسألة الوهابيين معلقة.

مشاكل محمد علي

أما « لطيف باشا » فكان قد أرسله محمد علي ليبلغ الباب العالي خبر فتح مكة والمدينة، فلما عاد إلى مصر فكر في اغتصاب ولاية مصر من محمد علي بمساعدة بعض رجال الباب العالي، فلما علم نائب محمد علي أو « الكتخدا » بعزمه حاصره في بيته ودعا مجلساً مخصوصاً حكم عليه بالاعدام في ١٨١٣ أثناء غياب محمد علي. وعلى أثر عودة محمد علي قام الجند ضد محاولة ادخال النظام الجديد وهذا ما حدا بطوسون إلى الحضور إلى مصر حيث استقبل استقبالا فخما، ولكنه مات بالطاعون بقصره قرب رشيد وهو في مقتبل عمره (١٨١٦). وكان محبوباً عند الجند والأهالي على السواء، وكان يفضله أبوه على باقي إخوته حتى على ابراهيم اكبر أولاده لأنه كان يرى في طوسون صورة مصغرة من نفسه فحزن عليه حزناً شديداً

قيام ابراهيم لمقاتلة الوهابيين

أما الوهابيون ففرحوا بموت طوسون وظنوا أن مشروع الحملة قد فشل، ولكن محمد علي عين إبنه ابراهيم لقيادة حملة جديدة. فسافر ابراهيم في سبتمبر سنة ١٨١٦ ووصل ينبع قاصداً المدينة المنورة ولما علم عبد الله بن سعود بقدوم ابراهيم جمع اربعين الف مقاتل، ولكن كانت أسلحتهم من الطراز القديم وجل اعتمادهم على السيوف والرماح والبنادق ذوات الفتائل فلم يقووا على الوقوف أمام نيران المصريين المتواصلة، فانهزمت طلائع جيش عبد الله وتحصن في « عنيزه ». أما ابراهيم فحاصر « الرس » وتغلب عليها وعلى « عنيزه » وأخيراً حاصر « الدرعية » في ابريل سنة ١٨١٨

حتى سلمت فى سبتمبر التالى . ثم عمل على تدميرها . وأرسل عبد الله إلى القاهرة فى نوفمبر ١٨١٨ ونزل عند اسماعيل بن محمد على

ولما قابله الباشا فى قصره بشبرا وقف له وأجلسه بجواره وبادره قائلا « ما هذه المطاوله ؛ فقال ان الحرب سجال . قال وكيف وجدت ولدى ابراهيم . قال ما قصر وبذل الهمة . وقد فعلنا نحن فعلته حتى كان ما قدره الله . قال سأشفع فيك عند الخليفة إن شاء الله . قال ما قدر سوف يكون » ثم أرسل إلى القسطنطينية فاعدم فيها . وعاد ابراهيم بعد أن أخضع العرب عن طريق القصير فى سنة ١٨١٩ فازدانت له البلاد سبعة أيام بلياليها .

نتائج حرب الوهابيين وقيمتها

لا شك فى أن هذه الحروب التى قام بها محمد على بناء على أمر السلطان استنفدت كثيراً من ثروة مصر فى وقت لم تقو فيه على دفع مرتبات الجنود فما بالك بالانفاق على الحروب . فليس بعجيب إذن ان يلجأ محمد على الى استعمال الشدة المتناهية فى جمع الأموال ، وليس أدل على شدته من فعلته مع « المعلم غالى » رئيس حسابات الحكومة فقد امتحن وكيل الباشا حساباته فوجد عجزاً يبلغ ٦٠٠٠ كيس فامره بدفعها حالا . ووشى به جماعة من منافسيه الأقباط وقالوا بل ان العجز ٣٠٠٠٠ كيس فتشدد « كتخدا » فى عقابه وأخيراً أخلى سبيله بشفاعة طبيب محمد على بعد دفع ١٤٠٠٠ كيس

مثل هذه الأعمال لم يكن يلجأ اليها محمد على لولا شدة حاجته الى المعدات الحربية والبحرية التى كان يقتضيها حرب طال ست سنوات فى بلاد بعيدة وعرة غير مأمونة الجانب لا تنبت إلا القتاد والشوك ، فى حين لم يلق محمد على من السلطان ولا من وزرائه ولا من أى ناحية أخرى

سوى مصر معونة مالية فقط. هنا يتساءل الأنسان لماذا زج محمد على بنفسه فى مشروع مثل هذا غرمه اكثر من غنمه ؟ الجواب على ذلك سهل لمن يعرف حدة نظر محمد على السياسى فانه قد اتخذ من هذه المسألة مبررا له فى تكوين قوة برية وعسكرية ما كان ليوفق لأنشائها لولا قيامه بحملته على الوهابيين.

ومن حسن طالعه ان كانت حملة الوهابية برية بحرية فكما تطلبت جيشاً كذلك تطلبت أسطولا، ولا ننسى أن الحملة قد قضت على عدد عظيم من الجنود الألبانيين الذين وقفوا حجر عثرة أمام محمد على فى سبيل اصلاح الجيش على النسق الفرنسى، فقد تمكن بعد انتهاء الحملة من الشروع فى الأصلاح. أما نتيجة الحملة فلا شك فى أن انتصار محمد على قد جعل العالم الاسلامى يلهج بذكره وحمده لأنه هو الذى أمن حجاج بيت الله وخدم الأسلام والملة خدمة قصرت عن انجازها همم السلاطين والولاة.

لذلك بدأ الناس فى الشرق يعرفون لمحمد على قدره ويخصونه بالمهابة والاحترام والثقة وخاصة بعد أن أصبح ابنه حاكما على بلاد العرب والمتصرف فى مكة والمدينة. أما السلطان فلم يسعه بالطبع إلا الأعتراف لمحمد على وولده ابراهيم بجميل الصنع فارسل لهما الهدايا ومنح ابراهيم لقب الوزارة. ولكن السلطان كان على الرغم من ذلك يحسد محمد على على انتصاره فى ميدان أخفق هو فيه.

ثم ما لبث محمد على أن نجح فى عمل آخر أخفق فيه السلطان أيضا الا وهو انشاء جيش على النظام الفرنسى الحديث.

وما دام التاريخ يحفظ بين سطوره ابطال الحروب ويخصهم بالاجلال والأعظام وما دامت الجيوش دليل قوة الأمم وعنوان بأسها وأداة رفعتها، فسوف نرى الناس فى كل آن ومكان يمجدون ابطال الحروب « كرمسيس » « والاسكندر » « وقيصر » « ونابليون » « ومحمد على » . واذا كانت الجيوش النظامية فى الممالك قد ساعدت الملوك والأمم على الرقى فانها فى مصر قد كان لها الفضل فى إدخال كل معالم المدنية فى البلاد.

ولقد رأى محمد على منذ أن كان يقاتل الفرنسيين فى « الرحمانية » فضل النظم الحربية الحديثه وعرف قيمتها عند مساعدة « دروفتى » له أثناء حملة « فريزر » على مصر سنة ١٨٠٧ ، فصمم محمد على على أن يسعى فى إدخال النظام الجديد متى سنحت فرصة لذلك.

المحاولة الاولى

وأول ما فكر جدياً فى ذلك كان فى يونيه سنة ١٨٠٥ اذ قضى مدة فى اقناع قواد جنوده بأفضلية الطرق الأوربية ولكن لما لم يأت ذلك بثمرة نفذ مشروعه على غير رغبة الجند وبدأ بتمرين احدى الفرق وكان على رأسها ولده اسماعيل فتحزب الجند والقواد واتفقوا على الغدر بمحمد على ولكن نمى اليه خبر الدسيسة بواسطة عابدين بك فاحتاط لنفسه، ولما طاش سهم المتآمرين انقضوا على البلد وانتشروا للسلب والنهب كعادتهم ، ولكن محمد على فطن لاغراضهم الحقيقية فأوصل الاسلحة لتجار خان الخليلى « والفحامين » فقاوموا الجنود ولم تمس هذه الاحياء بسوء . أما الغورية والسكرية الخ فنهبت متاجرها ولما رأى محمد على هذه المقاومة استمال الجند اليه فوزع عليهم الرواتب والأقوات وترك مشروع تدريبهم على النظام الأوربى منتظراً

فرصة أخرى . وسلك محمد على مسلكاً جديداً ينطوى على العدل والحكمة. ذلك بأنه فى صبيحة اليوم التالى للنهب دعا السيد محمد المحروقى رئيس تجار العاصمة وأمره باعداد قوائم بأسماء التجار وتقدير خسائرهم فعوض محمد على عليهم عوض هذه الخسائر وبلغت بضعة الآف من الجنيهات صرفت بعد أداء اليمين الشرعية فاطمأن الناس واستبشروا بهذا العصر الجديد

وأما معارضة الجنود الألبانية للاصلاح فلم يجد محمد على صعوبة عظيمة فى التغلب عليها لأنه بعد أن استمالهم أرسلهم إلى ميادين الحرب فى بلاد العرب وفى سنار . وبذلك تخلص من جزء عظيم منهم . ولو كان محمد على اتكل على الألبانيين لحرمه السلطان تجنيد جنوده من بلادهم كما حرم على المماليك شراء الرقيق من « جورجيا » وأوربا فكان من حسن طالع محمد على أن الالبانيين قاوموا النظام الجديد ولم يقبلوه لأنهم لو قبلوه لكونوا نواة الجيش الجديد لمحمد على ولفللوا آماله فى النجاح .

المحاولة الثانية وجهود الكولونل «سيف»

ولما عاد ابراهيم من حرب الوهابيين منتصراً فكر محمد على فى إنشاء النظام العسكرى الجديد وصادف عزمه هذا حضور « الكولونل سيف » المعروف بسليمان باشا إلى القاهرة فعهد اليه محمد على فى مهمة تكوين الجيش الجديد . وكان « سيف » قد ترقى من جندى صغير فى خدمة الجيش الفرنسى مدة الأمبراطورية الأولى إلى أن أصبح فى سنة ١٨١٥ « ياوراً » أوأمينا للمشير « ناى » ، ولما انهزم نابليون فى « واترلو » إشتغل « سيف » بالتجارة ثم قدم الى محمد على بخطاب توصية جميل فاختبره محمد على فوجد فيه أخلص وأكفأ خادم له فى جيشه الجديد واليه يرجع الفضل الأكبر فى رفع ذكر مصر فى عهد محمد على :

ولما بدأ « سيف » فى القاهرة بتدريب بعض أولاد المماليك الذين كانوا فى خدمة محمد على ومعهم إبراهيم ليكون مثلا حسنا للطاعة والاستفادة بدأت تظهر علامات التذمر وأخذ العلماء يغرون الشبان بعدم الانصياع لتعاليم الفرنجة، فرأى محمد على أن خير طريقة لتلافى الفتنة وتنفيذ أغراضه هى أن يرسل « سيف » ومعه اربعمائة أو اكثر من أولاد المماليك إلى اسوان فيدربهم هنالك بعيدين عن الدسائس والقال والقيل . وكان معظم هؤلاء المماليك من الشبان النابهين أختارهم محمد على ليكونوا بعد أن يتخرجوا نواة الجيش الجديد، فاشتغل « سيف » بتعليمهم ثلاث سنوات بالتأنى نفوسهم روح الاخلاق العسكرية الشريفة ضاربا لهم الأمثال دائما بسيرة نابليون وسير قواده

وقد وجد « سيف » صعوبة فى أول الأمر فى تعويدهم الصمت أثناء الحركات والرزانة، فنقم منه بعضهم وصمموا على قتله فجمعهم فى الصباح وانتهرهم قائلا : ان الشرف العسكرى يأبى أن يعمد الجندى إلى طرق النذالة والجبن وإذا أراد احدكم الانتقام فأمامه المبارزة والقتال. وصوب عليه بعضهم بنادقهم فى حادثة أخرى فأخطأوه فاعمل فيهم السوط لأنهم لم يصيبوا المرمى وأمرهم بتعمير البنادق وتصويبها نحوه ووقف أمامهم ثابت الجأش فبهتوا عاراً وخجلا ورموا بنادقهم وتقدموا اليه صارخين باكين يطلبون العفو . فعفا عنهم باسماً، وبعدها لم يقع منهم ما يخل بالنظام العسكرى وامتثلوا أوامر رئيسهم وأحبوه حباً جما . ثم ما لبث « سيف » أن اعتنق الديانة الأسلامية ظاهريا إذ الحقيقة انه كان من الذين لا يهتمون بأمر الدين فزاد الاخلاص والولاء بينه وبين عساكره ولم تمض

سنوات ثلاث حتى ضارعوا أحسن الجنود الأوربية نظاما وشجاعة وإقداما
كذلك تمكن « سيف » من الرقى السريع حتى وصل إلى أرقى مراتب الجيش

استخدام السودانيين فى الجيش

ولما وُجد الضباط الأكفاء فكر محمد على فى جمع الجنود ، ولم يشأ أن يكون بينهم أتراك أو ألبانيون لئلا يحرضوهم على الفتنة ، فعمد إلى السودانيين — وكان قد أرسل حملته إلى السودان — وجمع منهم ثلاثين ألفا وأتى بهم إلى « بنى عدى » قرب منفلوط ووكل أمرهم إلى الضباط الذين تخرجوا فى أسوان فبدءوا بتدريبهم فى سنة ١٨٢٣ وما انتهت سنة ١٨٢٤ إلا وكانوا قد تدربوا على التمرينات العسكرية اللازمة فاستعان بهم محمد على وأرسل منهم فرقا إلى بلاد العرب وأخرى إلى السودان وأرسل الباقى إلى حرب « المورة »

استخدام المصريين

ولكن النتيجة لم تكن سارة أبدا . لأن أبناء السودان لم يألفوا المعيشة الشاقة بعيدين عن أوطانهم ولم تقو أجسامهم الضعيفة على احتمال البرودة فمرض منهم عدد عظيم وأخيرا بدت له فكرة تكوين [illegible] من جنود مصرية [illegible] فى أول الأمر [illegible] ولو [illegible] وأبان له بعض أتباعه والمقربين منه أن الزراعة فى البلاد [illegible] من عواقب التجنيد ، وأن التجنيد بين قوم لم يألفوا الجندية منذ زمن بعيد سيكون أمرا مكروها جدا والكراهية لا يمكن أن ينتج منها شىء

وأى نفع كان يرجى من قوم كانت سمة من يحكمهم منذ الأزمان الغابرة أن [illegible] يقيدهم بالأرض وفلاحتها ثم يرهقهم بالضرائب فيحرثون ويزرعون ليقوموا على دفع هذه الضرائب ، وهكذا كانت قواهم [illegible] منهمكة فى الزراعة التى هى منبع ثروة الأهالى وسبب مذلتهم [illegible]

واحد . غير ان محمدعلي لم يأبه لهذه الأعتراضات ونفذ مشروعه فقامت بعض حركات عدائية فى الأقاليم ضده وأخذ الفلاح النشيط يهاجر إلى بلاد العرب وبلاد الشام تهربا من نظام الجندية. غير ان المصريين ما لبثوا أن رحبوا بالنظام الجديد ايما ترحيب بعد ما وجدوه فيه من تأنق فى ملبس الجندى وسعة عيشة ومكافأة المجتهد منهم ومنزلة الجندى بين غيره من الناس . ثم لما زادت أعمال الجيش أدخل محمد على فى خدمته غير سليمان بك من ضباط الفرنسيين فعاونوه على فتح مدارس حربية على النظام الفرنسى ففتحت مدرسة «المشاة» بدمياط ومدرسة « الموسيقى» بالخانقاه ومدرسة « الفرسان » بالجيزة ومدرسة « المدفعية »فى طره، فتعلم الطلبة فيها اللغات والرياضة والرسم والهندسة والحركات العسكرية حتى ضارعوا احسن جيوش اوربا بشهادة اكابر الضباط الأجانب ، وكان اصلاح الجيش سبب الأهتمام بأمر التعليم والصناعة والصحة فى البلاد . وسنعود إلى ذلك فى محله

أثر تكوين الجيش فى المصريين

أما مصر فجنت من وراء الجيش فوائد أدبية ووطنية لا تقدر . فالجيش كان عنوان وحدتها إذ القبطى والمسلم فيه سواء ، وأوجد فى البلاد روحاً نظامية قوية كانت مفقودة منذ قرون ،وقد أمن البلاد من مصائب الفئات الظالمة الفوضوية التى كانت تعيث فى الأرض فساداً .

ولا ننسى الروح الوطنية التى تولدت على أثر تكوين الجيش إذ أخذ المصريون يتنافسون فى مضمار النبوغ ودبت فى قلوبهم روح الثقة والفخر: الثقة بقوة أبنائهم وجنودهم والفخر بكفاءتهم وانتصاراتهم،ومن ذا الذى يمكنه أن يخلص فى الذود عن بلاده وفى محاربة عدوها ويحرص الحرص

كله على حريتها واستقلالها اكثر من أبناء البلاد أنفسهم الذين أظهروا من خلائق الصبر واحتمال المشاق ما جعلهم من أحسن الجنود .

يالها من فكرة علوية أتت بوافر الخير على مصر ،فان انتظام الفلاح في سلك الجندية بعد ان عاش قروناً طويلة مستعبدا فى كسر بيته اخرجه من حالة الذل والجبن والمسكنة التى كان فيها وعلمه دروسا جديدة فى النظام واداء الواجب . علمه الشرف الحقيق والتنافس فى سبيله . علمه ان يضحى بنفسه فى ميادين القتال من اجل مصر ومايكها واستقلالها . وكان محمد على يقضى معظم وقته ملازماً للجيش الجديد ويشترك فى رحلاته وتدريبه وتمرينه . ولقد قصَّ محمد على مرة على معتمد انجلترا ما شاهده من بوادر الرقى الأدبى فى جيشه الجديد فقال «جرح ذراع احد الجنود جرحا بالغاً اثناء التمرين العسكرى بسبب اهمال الجندى الواقف خلفه فلما طلب اليه الضابط ان يخرج من الصف ليضمد جرحه ابى وقال الآن وقد اصبحت جنديا فانا اليوم غيرى بالأمس، ومادامت تجرى فى عروقى نقطة دم واحدة سأبقى فى مكانى حتى انتهى من واجب اليوم »

هذه الروح الجديدة تفسر الانتصارات الباهرة التى صادفها الجيش المصرى الجديد فى ميادين القتال سواء أكان فى أوربا أم فى أفريقية أم فى آسيا . واستمر محمد على يعنى بالجيش عناية خاصة ،إذ اصبح فى نظره مسأله حيوية فى الدرجة الأولى من الأهمية، لأنه علم أن اعتماده على حسن نيات الباب العالى نحوه امر محفوف بالخطر وانه مهما قدم للباب العالى من الخدمات فلن يرحمه السلطان إذا ضعفت قوته أو قلت شوكته يوماً ما

أسباب الحملة

ماذا يعمل محمد على وقد عاد اليه جنوده الألبانيون منتصرين من بلاد العرب ؟ أيسمح لهم بالاقامة بالقاهرة فيعيدوا عهد الثورات والنهب والسلب ويشغلوه عن اصلاحاته وربما وقفوا أمام مشروع النظام الجديد موقفهم فى سنة ١٨١٥ ؟ لا شك فى أن حسن السياسة كان يملى عليه أن يرسل هؤلاء الأرناؤد إلى ميدان جديد فيستريح من مشاغباتهم ويقلل من عددهم . ففكر فى تجهيز حملة السودان ليطارد بقايا المماليك الذين استوطنوا اقاليم دنقله ونصبوا انفسهم فيه حكاماً وكان الناس يتحدثون فى ذلك الوقت ومحمد على يعتقد أيضاً أن فى السودان مناجم غنية بالذهب والمعادن النفيسة، فظن الألبانيون ان هناك غنما عظيما يجب ألاّ يفلت من أيديهم فرحبوا بفكرة محمد على .

هذا ، وإن حاجة محمد على الى استيراد جنود جديدة لجيشه الجديد جعلته يطمع فى فتح الأصقاع المجاورة لمصر كى يتمكن من ادماج شبان تلك البلاد فى جيشه . وأراد محمد على من هذه الحملة أن يبسط سلطانه وأسواقه على سواحل البحر الأحمر الغربية بعد أن انتشر نفوذه وتجارته فى شبه جزيرة العرب إلى خليج العجم . ولا تنس اهتمام محمد على وعنايته بأمر النيل ،فقد كان من اغراض الحملة استكشاف منابع النيل والسير فيه إلى أقصى نقطة ممكنة، ولذلك أرسل محمد على مع الحملة تشبها بنابليون علماء فرنسيين ليمدوا ابنه اسماعيل قائد الحملة بالمعلومات الجغرافية والخاصة بالتعدين

وبدأ محمد على فى اعداد الحملة فى يونيه سنة ١٨٢٠ بجمع ٣٠٠٠ من المشاة و ٢٥٠٠ من الفرسان ومدفعية مركبة من ١٢ مدفعا وعين على رأس الحملة اسماعيل ثالث انجاله ومعه محمد بك الدفتردار صهره . وكانت هذه أول مهمة حربية ذات شأن عهد فيها إلى اسماعيل . إلا أن واجبه لم يكن من الصعوبة كواجب أخيه طوسون من قبل لأن قبائل السودان كانت همجية لا تعرف استعمال الأسلحة النارية على العكس من العرب الذين كانوا فى اتصال ببلاد الهند والعجم فكانت أسلحتهم على ذلك أرقى كثيراً من أسلحة السودانيين .

سير الحملة

ولما كانت قبائل السودان من المسلمين السنيين لا شيعة ولا وهابيين أصحب محمد على الحملة عدداً من العلماء ليبرروا أغراض الحملة فى نظر المسلمين وليراقبوا أعمال الجيش حتى لا يخرج الجنود عن الحدود المشروعة فى الدين، واضطر محمد على إلى اصدار فتوى تحلل له فتح هذه البلاد الاسلامية حتى لا يحصل غضاضة أو تذمر بين جنوده المسلمين . وسارت الحملة عن طريق النيل فى ٣٠٠٠ قارب ، وأما الفرسان فساروا على جانب النيل ووصلت الحملة الى « دنقله » فذعر المماليك وفروا إلى أقصى السودان ، ولم تجتمع لهم قوة بعد ذلك. ثم سارت الحملة جنوبا واقيت من قبيلة «الشقية» مقاومة عظيمة إذ اجتمع منهم ثلاثون ألفا على الخيول والهجن وغاث فى رؤوسهم روح الحرب فاستماتوا فى الدفاع عن أوطانهم ولكنهم انهزموا انهزاما حاسما فى « كورتى » ثم سقطت «شندى» «وبربر» . وبعد ذلك سارت الحملة إلى « سنار » فخضعت بدون كبير مقاومة .

وفى سبتمبر سنة ١٨٢١ حضر ابراهيم باشا على رأس حملة كبيرة [illegible]

اسماعيل باشا . وحضر أيضا محمد بك الدفتردار صهر الباشا على رأس حملة لفتح الكردفان ،فسار ابراهيم فى النيل الأبيض الى تلول « دنكا» عند مصب نهر سوباط . أما اسماعيل فسار شرقا فى النيل الأزرق الى حدود الحبشة ومعه العالم الطبيعى « كيار » الفرنسى ليفتش عن مناجم للذهب فلم ينجح الا قليلا ، وأخيراً عاد اسماعيل الى « سنار » . وكان ابراهيم قد مرض ورجع بعد أن وصلت جنوده الى « دنكا » . ثم كتب اسماعيل يطلب الرجوع إلى مصر بعد أن بقى سنتين فى السودان، ولكنه قبل ان يصل اليه امر الرجوع احرقه الملك «نمر» صاحب «شندى» عقب اهانة له، فحلف صهره الدفتردار الذى فتح الكردفان ان لا بد من قتل ٢٠٠٠٠ وبالفعل نفذ يمينه وا كثر فى القتل . وفى سنة ١٨٢٤ رجع الدفتردار وعين « رستم بك» حاكما على السودان ومعه جنود نظامية .

قيمة الحملة

ويمكننا ان نقول ان حملة السودان لم تحقق مطامع الباشا إلا قليلا ، لأن الذهب لم يوجد ولأن تجارة القوافل كانت قليلة وتستلزم عناية لا تثمر إلا بعد سنين ، ولأن الجنود السود لم تنفعه فى شىء بل اضطر إلى ان يستبدل بهم المصريين . ولكن يقابل ذلك ان أصبح البحر الأبيض بحيرة مصرية ،وضمن محمد على لمصر مراقبة موارد ماء النيل وفتح مجالا واسعا للمصريين للاتجار والاستثمار ،وأسس محمد على مدينة الخرطوم فى سنة ١٨٢٢ واتخذها « الدفتردار بك » قاعدة له فوسعها وبنى فيها دار الصناعة وبنى البيوت وانشأ السفن وأصبحت الخرطوم محطة لتجارة السودان

ومن اشهر الولاة الذين عينهم محمد على فى السودان « خورشيد»

باشا الذى قام فيه بإصلاحات جمة . وما فتىء محمد على يرسل البعثات العلمية للبحث عن المعادن من آن إلى آخر . وفى آخر الأمر سافر هو بنفسه وهو فى سن السبعين فى ١٨٣٨ متكبداً مشاق عظيمة ، فأصلح الادارة ووصل إلى حدود الحبشة وأعان الغاء تجارة الرقيق لا اعتقاداً منه بضرورة ذلك بل إرضاء للدول الأوربية ولكسب مودة انجلترا . واشتد اهتمامه بالاستكشافات الجغرافية ارسل احد ضباطه « اليوزباشى سليم افندى » على رأس حملة فسار فى النيل فى ثلاث رحلات مختلفة . وغاية ما وصل اليه حدود نهر سوباط عند خط عرض درجة ٤ ١/٢ شمالا



بوغوص بك يوسف
وزير الخارجية والتجارة
لمحمد على

الفصل الرابع

اصلاحات محمد على الداخلية

إن أول واجب يتحتم القيام به على أية حكومة متنورة نصبت نفسها لحكم مصر هو حفظ الأراضى المزروعة والتى يمكن زرعها من عبث الصحراء المحيطة بالبلاد ولا يتأتى ذلك الا باستتباب الأمن وتنشيط الفلاحة المستديمة وبتوافر طرق الرى وتوزيع الماء بالطرق التى تكفل سلامة المحصول.

وانا لنرى أن الماء والرمل عنصران أولهما مرادف للحياة وثانيهما للهلاك يتنازعان دائما السيادة فى وادى النيل فمتى قبضت على زمام الأمور حكومة ضعيفة ألفيت الرمل قد انتصر على الماء وفاقه ، وما هى الا سنوات قليلة حتى يجف الزرع ويقل الحرث والنسل وتكثر المجاعات وتعم الأوبئة والأمراض، وما عهد مصر أيام حكم المماليك ببعيد. قال نابليون «لو بقى المماليك فى مصر عشرين سنة أخرى لفقدت مصر ثلث أراضيها الزراعية».

أما محمد على ففطن الى أهمية الزراعة فى مصر وعلى ذلك منحها كل عنايته والتفاته

نظام الاراضى فى مصر

كانت الأراضى فى مصر منذ عصور الفراعنة ملكا للملك والملوك هم الذين كانوا يولونها للاتباع واستمر الحال كذلك مدة الفتح العربى ومدة سلاطين المماليك الى وقت الفتح العثمانى فقرر السلطان سليم الفاتح بعد أن

مسح أراضي القطر أن الارض ملك للسلطان وان ملاكها قد أصبحوا كانهم مستأجرون تعود أملاكهم الى بيت المال بعد موتهم الا اذا اشترى ورثتهم الارض من جديد بدفع مبلغ يقدر ولذلك عين السلطان موظفاً خاصاً باسم « الدفتردار » لتسجيل جميع أراضي القطر، وفرض على كل فدان من الارض مساحته ٤٠٠ قصبة مربعة ضريبة معلومة

نظام «الالتزام»

غير أنه مالبث المماليك أن أصبحوا هم المتصرفين فى كل شىء ولم يكن لموظفى السلطان أقل سيطرة عليهم فعجزت الحكومة عن تحصيل المال المطلوب ولجأت الى طريقة « الالتزام » وهذه الطريقة هي أن يتكفل من يشاء من أكابر البلاد بتحصيل الخراج من الحكومة فى بلدة واحدة أو فى عدة بلاد بالمزايدة أو بالاتفاق فيدفع للخزينة مال سنة واحدة معجلا، وبعد قرار كبير أمراء مصر أو « شيخ البلد » كان يعطى للملتزم وثيقة الالتزام التى تخول له حق التصرف فى القرى لانه كان يحل محل الحكومة فى السيادة على دائرة الالتزام. وكان الملتزم يتصرف فى جباية الاموال كيف شاء.

وكانت أراضي الملتزم قسمين قسما يستغله الفلاح ويتوارثه الابن عن أبيه ويدفع عنه ضريبة وايجارا وقسما يعرف بأرض « الوسية » وهو خاص بالملتزم يزرعها الفلاح لحساب الملتزم. وكان الالتزام فى بداية الامر يعطى لمدة محدودة، ولكن آل الامر الى إعطائه لآخر العمر. واذا مات الملتزم ورثه فى ملك أرضه أبناؤه أو من يوصى لهم فاذا لم يكن له وارث رجعت أراضيه الى بيت المال وعلى أى حال كان للوارث أو الموصى له أن يطالب

ترخيصاً بالالتزام بعد دفع مبلغ يعين .

وكان المماليك يملكون جزءاً عظيما من الارض والملتزمون وعددهم يقرب من ٦٠٠٠ يملكون جزءاً آخر وأما الباقى فكان موقوفا على المساجد والاعمال الخيرية ويعرف بالاوقاف

اراضى الوقف

وأراضى الوقف هى التى لا يجوز فيها التصرف بالبيع . وكانت معفاة من الضرائب فزادت زيادة عظيمة فى أيام المماليك . وسبب ذلك اضطراب الأمن وخوف اصحاب الأملاك من عبث العابثين بها بعد وفاتهم ووصل الحال إلى أن خيف أن تصبح أراضى مصر كلها موقوفة فاشترطت الحكومة أن لا يتم وقف إلا باقرار الحكومة وأصبحت هذه الاراضى الواسعة فى يد كبار العلماء يستغلونها كما لو كانت املاكهم الخاصة

خطة محمد على الزراعية والعقارية

أما محمد على فقد أحدث انقلابا هاما فى تلك الأراضى فنقل اليه أولا حقوق الملتزمين ثم الغى الالتزام نهائيا معتمداً على أن الأرض للحاكم ولكنه منحهم من بيت المال راتبا سنويا مساويا تقريبا لقيمة دخلهم السنوى . وكان قد أخذ منهم قبل ذلك بيانا عن ايراداتهم فقللوا قيمتها بقدر الامكان . أما أراضى « الوسية » التى ظهر أحقية تملك اصحابها لها فتركها . وعلى العموم ضم محمد على اراضى « الوسية » بالصعيد لقيام الملتزمين بثورة ضده وترك اراضى « الوسية » بالوجه البحرى لأصحابها . أما أراضى الأوقاف فأنه احترمها من حيث المبدأ فقط واما عمليا فأنه عزل العلماء والمشايخ الذين كانوا نظاراً عليها وعين نفسه ناظراً على كل تلك الأراضى وأخذ على نفسه تنفيذ الشعائر الدينية التى تتطلبها هذه الأوقاف وعين المشايخ رواتب سنوية . أما الدوائر الموقوفة والحدائق فلم يتعرض لها .

ولما حل محمد على مكان الملتزم وزع الأطيان على الفلاحين فاعطى كل فلاح من ثلاثة الى خمسة أفدنة وترك لمشايخ القرى قسما يبلغ [illegible] ٤ من مجموع أراضى القرية وذلك لقيامهم بضيافة عمال الحكومة . وكان الفلاح يزرع الأرض بصفته مستأجراً ويسقط حقه فى فلاحتها اذا عجز عن دفع الخراج، ورتب لهم محمد على أجوراً من جنس المحصول وأمدهم بالآلات والمواشى والماء للرى . وكان المأمور يحدد المساحات الخاصة بزرع المحصولات المختلفة وإذا نضج المحصول اشترته منه الحكومة بالثمن الذى تحدده ثم تأخذ منه قيمة الضريبة وتدفع له الباقى .

فوائد هذه الخطة

ويظهر ان هذا النظام كان الوحيد الذى يمكن أن يؤدى إلى ثروة اقتصادية فى البلد يعتمد عليها الباشا فى اصلاحاته العظيمة ؛ لانه بذلك تمكن من تحسين طرق الزراعة ومراقبة الفلاح وتزويده بالنصائح اللازمة وامداده بالآلات ، وأمكن ادخال المحصولات الجديدة كالنيلة والدخان والقطن والنيل [1] . ولو ترك الفلاح وحده مع ما هو معروف عنه من المحافظة على القديم والكسل والاعتماد على القضاء والقدر لخسرت الزراعة شيئاً كثيراً . كذلك لو كان تركه يبيع محصوله لأخفق فى السوق ولاشتراه الاجنبى بثمن بخس . أما محمد على فأمكنه أن يبيع هذه المحصولات فى الاسواق الاوربية فأحرز ربحاً وافرا لولاه ما وصل محمد على ولا وصلت

---

(١) أدخل محمد على مالا يقل عن ٣٨٠٠٠ آله لرفع المياه وانتقد من الصحراء ١٠٠٠٠٠ فدان فى الوجه القبلى أضافها الى الاراضى المزروعة . هذا عدا ما أقامه من القناطر وحفره من الترع والمصارف وأدخله من الاشجار وخاصة شجرة التوت لتربية دودة القز . واهتم ابراهيم باشا بانشاء الجناين ونشر زراعة الازهار و[illegible]

مصر الى ما وصلت اليه من الرقى فى عهده. غير انه يجب ألاّ ننسى ماجرّه هذا النظام من المصائب على الفلاح فقد كانت الحكومة تقدر المحصول تقديراً قهريا بثمن بخس ثم تبيعه له أحياناً بثمن مرتفع بل ربما تعذر عليه الحصول على قوته فى حين أن مخازن الحكومة غاصة بأنواع المحصولات.

وكثيراً ما منح محمد على كبار موظفيه فى الجيش والادارة اقطاعات من الارض أصبحت لهم ملكا خاصاً، وهى التى أطلق عليها «الابعديات» لبعدها عن الاراضى الزراعية المسكونة. ولاحتياجها للاعتناء والاصلاح قبل زراعتها تركت بدون أن تجبى منها ضريبة.

الاحتكارات

هذه السياسة التى اتبعها محمد على فى الزراعة جرّت معها نظام الاحتكار فكما انه صار المزارع الوحيد أصبح التاجر الوحيد ثم الصانع الوحيد أيضاً

وتشمل الاحتكارات جميع المحصولات التى كانت تشتريها الحكومة خاصة لنفسها من الفلاح. ولا يشمل هذا كل ما ينتجه الفلاح بل هناك محصولات تركت للفلاح حرية بيعها. وأهم المحصولات التى احتكرها محمد على القطن والارز والصمغ والنيله والافيون والسكر

الضرائب

وكان المورد الثالث لثروة محمد على غير الارض والاحتكار من الضرائب، وأولها ضريبة الارض أو الخراج أو «الميرى» وكان الملتزمون يجمعون هذه الضريبة ويقسمونها ثلاثة أقسام: قسم للسلطان ويسمى «بالميرى» وقسم للكاشف ويعرف «بالكشوفية» وقسم للملتزم ويعرف «بالفائض». وكان الملتزمون يتعسفون فى جمع هذه الضريبة وغيرها من الضرائب الاضافية. أما فى عهد محمد على فكانت جميع الاراضى ما عدا «الابعديات» تدفع المال للحكومة ويختلف قدره على حسب جودة الارض

العثمانية . وسهل الحركة بانشاء محطات البريد والرسائل البرقية بين القاهرة والاسكندرية

ثم لم يمض الا قليل حتى اخترعت البواخر فاحدثت انقلابا فى عالم التجارة وظهرت رغبة انجلترا فى أن تسهل مواصلاتها بأملاكها الشاسعة فى الهند وتتبع فى ذلك طريقاً سريعاً آمناً يقرب المسافة . فلفت أنظار الشركة الهندية الانجليزية طريق مصر البرى فعمدت اليه أولا انقل حقائب البريد والمسافرين بفضل مساعى « توماس واجهورن » الذى أرسلته الشركة لدرس المشروع فرأى من محمد على أعظم مشجع له . وسارت أول باخرة للبريد من « بمباى » الى « السويس » ومنها الى الاسكندرية برا ثم من الاسكندرية الى مرسيليا بحراً ومنها الى انجلترا ، ولم يكن قطع هذا الطريق يستغرق أكثر من شهر

وأخذت أهمية هذا الطريق تزداد على الرغم من التفكير فى إنشاء طريق آخر يمر بالبصرة والفرات وحلب غير أن طريق السويس هو الذى تغلب فى النهاية وأخذت أهميته تزداد تدريجيا اذ ما ابثت التجارة أن تحولت الى هذا الطريق فاضطر محمد على الى انشاء مصلحة مستقلة خاصة بالطريق البرى وعقد اتفاقا تجاريا مع انجلترا تعهد فيه بنقل البريد الانجليزى مقابل مبلغ خاص تدفعه الخزانة الانجليزية فزادت ثروة مصر كثيراً عما كان يصرف داخلها من مصروفات نقل ومعيشة ومكوس ورواتب موظفين . وظلت الفكرة ترقى حتى ختمت بفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩

وهذا المشروع باضافته الى فتوحات محمد على وإصلاحاته الى كان

يتجر فيها فقد فتح أمامه أبواب التجارة فربح أرباحا وافرة وأصبح له فى معظم الموانى الشهيرة وكلاء ينظرون فى مصالحه التجارية والسياسية . وكان ناظر التجارية والخارجية لحكومته رجل أرمنى يدعى بوغوص بك يوسف الذى اخلص فى خدمة محمد على اخلاصا عظيما فكان يثق فيه الباشا ويعهد اليه بدقائق مشروعاته السياسية .

لوازم التجارة

الا أن التجارة لا تقوم الا على شيئين اساسيين اسطول لحمايتها وحمايتها واسواق لتصريفها فيها . تلك سنة الامم التجارية من قديم الزمان لا مندوحة عن اتباعها لانها نتيجة طبيعية لمقدمات ثابتة . سار محمد على وفق هذا القياس المنطقى وعمل على الوصول الى هذين الغرضين فبدأ ببناء الاسطول أولا عند بولاق كما ذكرنا عند الكلام على حملة الوهابيين، ثم لما اتسعت دائرة العمل أصلح النقص الطبيعى فى ميناء الاسكندرية فأصبحت محطة تجارة مصر ومهد أسطولها العظيم . ولقد جاء تكوين الاسطول المصرى متأخراً وعلى أثر انتهاء حرب « المورة » التى قضت على أسطوله وجله مكون من خليط من السفن التى صنعت فى الخارج واشتراها الباشا من « مرسيليه » و « ليفورن » و « تريستة » و « جنوه ».

تكوين الاسطول الجديد

فلما عادت الحملة المصرية من « المورة » سنة ١٨٢٧ فكر محمد على فى تكوين سطول من جديد فتم له ذلك بفضل جهود مهندس فرنسى كان صاحب معامل السفن فى « تولون » اسمه « سريزى » فهو الذى عهد اليه الباشا فى انشاء دار صناعة بحرية بالاسكندرية تبلغ مساحتها ٦٠ فدانا بواجهة على البحر يبلغ طولها نصف ميل وبها حوض يسع أكبر السفن

وكان محمد على شديد الرغبة فى أن يكون له اسطول يغنيه عن شراء

ما يلزمه من السفن من الخارج وأن يتم له ذلك بسرعة فوضع «سيريزى» مشروعه وشيد دار الصناعة البحرية حتى ضارعت الاسكندرية «تولون» وأدهشت كل من رآها من السياح

ثم بدأ «سيريزى» بتمرين البحارة على الاعمال المختلفة الخاصة بالسفن وانشائها وتسييرها ، وفى يناير سنة ١٨٣ نزلت البحر أول سفينة من الأسطول الجديد . وكان كلما تعلم المصريون عملا من الاعمال استغنى عن العمال الأوربيين فلم يبق منهم الا عدد قليل . ثم جاء بعد «سيريزى» «موجال» المهندس الفرنسى الشهير فانجز أعمالا جديدة وأسس مدرسة الملاحة . وان ظهور الاسطول الجديد ودار الصناعة البحرية فى مدة أربع سنوات لدليل جديد على ما يمكن أن تنجزه النفس الطامحة إلى العلا اذا كان الشعور مصحوبا بالارادة والعمل . قال الدكتور «بورنج» فى تقريره انه رأى الاسطول المصرى ورجاله وهو لا يختلف عن أى اسطول آخر الا فى اللباس الرسمى [1]

ولما تم الاسطول انفرد محمد على لايجاد الاسواق اللازمة . ولا يتيسر ذلك الا بالهجوم والفتح، فاعد جيشه لهذا الغرض وبلغ عدده ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ جندى منهم ٤٠٠٠٠ من غير النظاميين وهذا عدد هائل بالنسبة الى مجموع سكان مصر وقتئذ الذى كان يبلغ من ٢٠٠٠,٠٠٠ الى ٣,٠٠٠,٠٠٠

(١) كان الاسطول يتركب من ٣٠ قطعة على كل منها ١٠٠ مدفع أو اكثر و٧ قطع على كل منها ٦٠ مدفع . و٣ بواخر . وعدد رجال الاسطول ١٨,٠٠٠ منهم ٨٠٠ ضابط

حاجات الجيوش

غير ان للجيوش مطالب وحاجات لا بد من القيام بها اذا كان الغرض من تأليف الجيش وطنياً اقتصادياً . رأى محمد على حاجة الجيش الى مدارس مختلفة لتخريج مختلف الضباط والى مستشفيات للمرضى والى معامل لتوريد ما يلزم من أسلحة ومؤن وذخيرة والى مصانع لامداد الجيش بما يحتاج اليه من أسلحة وملابس وأحذية وأغطية وأدوات مختلفة، ووجد فى كل ذلك فرصة قد تعود بالنفع المادى والادبى اذا تولى هو تقديم ذلك كله فعلت همته الشماء الى مستوى آماله العظيمة . ورأى الباشا بثاقب نظره ان الاعتماد على الاجانب لا يمكن أن يؤدى الى قوة حقيقية فاستعان بهم ريثما يتعلم الوطنيون العمل ثم استغنى عن الاجانب تدريجاً .

العناية بالتعليم

وقد أراد أن يكون للوطنيين كل مزايا الاجانب فأرسل البعوث العلمية والصناعية الى أوربا لتلقى فروع العلم والعمل المختلفة، وأرسلت البعثة الاولى فى ١٨٢٦ وبلغ عدد أعضائها ٤٤ وأصبح ١١٤ فى سنة ١٨٣٣. ولما رجعت البعوث أعانت محمد على كثيراً فى تأسيس مشروعاته العظيمة وانبرى أفرادها لخدمة محمد على فى مصالحه المختلفة ولو انه لم يتقيد كثيراً باختصاصاتهم وبترتيبات المسيو « جومار » رئيس البعثات فى فرنسا وأحد علماء حملة نابليون، بل عين منهم كما اقتضته حاجته مما يدل على بساطته وعدم تثقيفه . واهتم بكل درجات التعليم أولى وثانوى وخاص وعال وأسس مدارس على النظام الحديث لكل هذه الانواع لأول مرة فى البلاد ، وكان يساق اليها الطلبة كما يساقون الى الجيش قسرا على الرغم من ترغيب الباشا لهم بايوائه التلاميذ واطعامهم وما كان يقدمه لهم من الكسى والرواتب الشهرية . غير ان اساس اهتمامه بالتعليم لم يكن الرغبة الخالصة فى تعميمه بين الاهالى بل

كانت المدارس فى نظره جزءاً من نظام الجندية . وكان الطلبة يعاملون معاملة الجنود وادارة المدارس تبع الحربية،فاهتم محمد على بالمدارس مابقيت حاجته للجيش فلما قل عدد الجيش بمقتضى «فرمان» سنة ١٨٤١ قل اهتمامه بالمدارس كذلك . وعلى كل حال أوجد اهتمامه بالتعليم حركة علمية جديدة ونهضت اللغة العربية بعد أن كادت تقتلها العامية فعربت الكتب فى مختلف العلوم وألقى الاساتذة المصريون محاضراتهم بالعربية وأخرجت المطبعة الاميرية ببولاق عدداً عظيما من المؤلفات العربية وأصدر الباشا صحيفة « الوقائع الرسمية » باللغتين العربية والفرنسية وكانت أنجح مدارس الباشا المدارس الخاصة بأسلحة الجيش ومدرسة الطب ومستشفاها التى أنشئت أولا « بأبى زعبل » ثم نقلت الى محلها الحالى.وصرف«كلوت بك» جهداً عظيما فى الاهتمام بحالة البلاد الصحية وإدخال الاصلاحات وتعليم علم الطب مما خلد له أحسن الذكر فى تاريخ الصحة والطب بمصر . ومن أشهر المهتمين بأمر التعليم فى مصر «أدهم بك» الذى عين رئيسا لمجلس التعليم العالى ومعه نخبة من عظماء رجال العلم فى ذلك العصر

الاصلاحات الحكومية

أما اصلاحاته فى نظام الحكومة فانه بعد أن مسح الاراضى فى سنة ١٨١٣ قسم مديريات مصر الى سبعة أقسام على كل قسم منها مدير ،أربعة بالوجه البحرى وثلاثة بالوجه القبلى وقسم المديريات الى مراكز وكل مركز الى اقسام وكل قسم الى قرى وعلى رأس كل مركز مأمور. ولكل قسم ناظر وعلى رأس كل قرية شيخ . وكانت وظيفة المأمور مراقبة الزراعة وجمع الاموال والمحصولات و « أنفار القرعة » . أما المدير فعليه تنفيذ أوامر الباشا ومراقبة المأمورين وعماله . أما القاهرة والاسكندرية ودمياط

ورشيد والسويس فكان يحكم كلا منها حاكم وضابط .وكان يساعد محمد على في القيام بإدارة البلاد مجلس خاص يستشيره في الشؤون الهامة وكون مجالس خاصة لكل إدارة في الحكومة وكان هناك مجالس للحربية والزراعة والمعارف والصحة وفوق كل هذه المجالس مجلس شورى الأمة تجتمع فيه كل رؤساء الادارات المختلفة والمختصون .ولقد عرف من أول الأمر ان خير طريقة لتحسين الادارة هي توزيع الأعمال على وزارات مختلفة فاختار لكل وزارة رجلا كفئاً يعينه المجلس الخاص ، وعلى الرغم من أن هذا النظام لم يصل في عهده إلى حد الكمال لا يغيب عنا انه إلى محمد على يرجع الفضل في توزيع أعمال الحكومة والعمل بحسن نية وبعزيمة صادقة على التقدم والارتقاء في الادارة

مشروع الاستقلال الاقتصادى

على ان كل تلك الأعمال المدهشة والاصلاحات الهائلة التي قام بها محمد على اتضاءل أمام مشروع خطير اقترحه عليه ممثل السويد المسيو « بكتي » الذي ذكر لمحمد على إن أعظم مظهر للاستقلال الحقيقي هو الاستقلال الاقتصادي فكما ان مصر غنية بمحصولاتها الزراعية يجب أن تنتج معاملها كل ما يحتاج اليه محمد على لجيشه وأسطوله العظيمين وما تحتاج اليه أسواقه وأملاكه من المصنوعات بدل أن تظل مصر دائماً محتاجة إلى مصنوعات أوربا . ولا يخفى أن المذهب الاقتصادي المعمول به في تلك الأزمنة وهو المبدأ المعروف بحماية التجارة والصناعة يقضى بالتقليل من الواردات والاستغناء عن البضائع الأجنبية بقدر الامكان

وأول ما لفت نظره إلى المصنوعات وجود القطن الغفل (الخام) بكثرة وكان قد أدخل زراعته في الحقول بناء على إشارة المسيو « جيميل »

الفرنسى (١٨٢١) وكانت مصر كذلك تنتج النيل والحرير وصبغة النيلة وأصباغا أخرى تصلح لتجهيز النسيج، فصمم محمد على على انشاء المعامل المختلفة غير مكترث بندرة المعادن فى البلاد وبعدم ملاءمة الجو المحمل بالغبار الكثير الجفاف ولم يوقف محمد على عن مشروعه حتى صمم عليه عدم استعداد الأهالى للقيام بالأعمال الصناعية الحديثة ولا عظم المبالغ والنفقات التى يتطلبها. ولقد لجأ إلى استيراد ما يلزمه من الفحم الحجرى والحديد والصناع الراقين من أوربا. وكان اعتماده فى هذا المشروع على أن العمل فى مصر ميسور بأجور رخيصة وان المواد الغفل (الخام) متوافرة لديه. وعلى ذلك أنشأ المغازل والمعامل والمصانع المختلفة وأصبح جو «بولاق» يدوى بصوت المطارق وأزيز الأنوال[1] إلى درجة ما

نقد المشروع

ولقد أغنت هذه المصنوعات محمد على عن مصنوعات أوربا ولكن كان مقضياً عليها فى النتيجة وخاصة بعد أن زال سبب تكوينها وهو الجيش إذ نقص إلى ١٨٠٠٠ منذ سنة ١٨٤١.

واننا إذا قرنّا مقدار ما كانت تتكلفه مصانعه من النفقات بالفائدة التى كان يجنيها محمد على رأينا أن مغارمها كانت أكثر من مغانمها وان

---

(١) كان بمصر ١٤٥١ دولابا للغزل و ١٢١٥ نولا و ٢٠٠٠٠ عامل من غزالين ونساجين وخراطين وحدادين وسباكين ونجارين وأخرجت المعامل البفتة والشيت والشاش والأجواخ والطرابيش والبنادق والأسلحة المختلفة وبعض العدد الصغيرة. وكانت مغازل القطن تخرج ما يقرب من مليونى قطعة سنويا وأهم هذه المعامل فى بولاق والخرنفش وقليوب والمحلة الكبرى الخ. وكانت هذه معامل البنادق ومسابك المدافع ومعاصر الزيت وكانت هذه المصنوعات توزع فى أسواق مصر والخارج

ثمن السلعة فى النهاية كان يكون أرخص لو اشترى من الخارج مباشرة، وكان محمد على على تمام العلم بهـذا العجز فى ايرادات مصانعه ولـكنه استمر للنهاية يستخدمها ويعتنى بها رغبة منه فى تعويد القوم الصناعة وتسيير الآلات الحديثة والظهور بمظهر المستقل وتشبها بنظام فرنسا وانجلترا فى ذلك الوقت وهو نظام حماية التجارة والصناعة . ولما كان محمد على هو المالك الوحيد لهذه المشروعات كانت الخسارة واقعة على خزانة الحكومة . ولو انها كانت لشركات أهلية لسببت تأثيراً سيئاً عظيما . وقد فشل مشروعه الصناعى نهائياً لضخامته وغرابته فى مصر ولأن المشروع كان لا يمكن أن يغني عن بضائع أوربا فالوقود والآلات اللازمة للصناعة نفسها كانت كلها ترد من أوربا . ومن أسباب الفشل أيضاً احتياج الزراعة فى مصر لكل الايدى العاملة ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول ان قيام بعض الصناعات فى مصر كعمل السكر والصابون والزجاج وبعض المنسوجات لازم وممكن ومفيد تمام الفائدة.

مشروع القناطر الخيريه

بقى علينا عمل نهائى ختم به محمد على إصلاحاته وهو تشييده «القناطر الخيرية» وهى أعظم عمل نافع أنشئ فى مصر لضبط مياه النيل بأقامة سد عظيم ذى عيون قرب تفرع الدلتا . وأول من اقترح المشروع علماء الحملة الفرنسية أيام وجود نابليون بمصر . ولقد فطن محمد على لما يمكن ان يأتى به مثل هذا المشروع من جزيل الفائدة إذ ترتفع المياه فى الترع على أثر حجزها كما فى أحد الفرعين فتروى الأراضى بسهوله ، وكان اهتمام محمد على بالوجه البحرى عظيما جداً لأمكان زراعة القطن فى أراضيه . وبعد درس المشروع أصدر فى سنة ١٨٣٥ أمره الى المسيو « لينان » لتنفيذ هذه الفكرة التى إن نجحت روت آلافا من

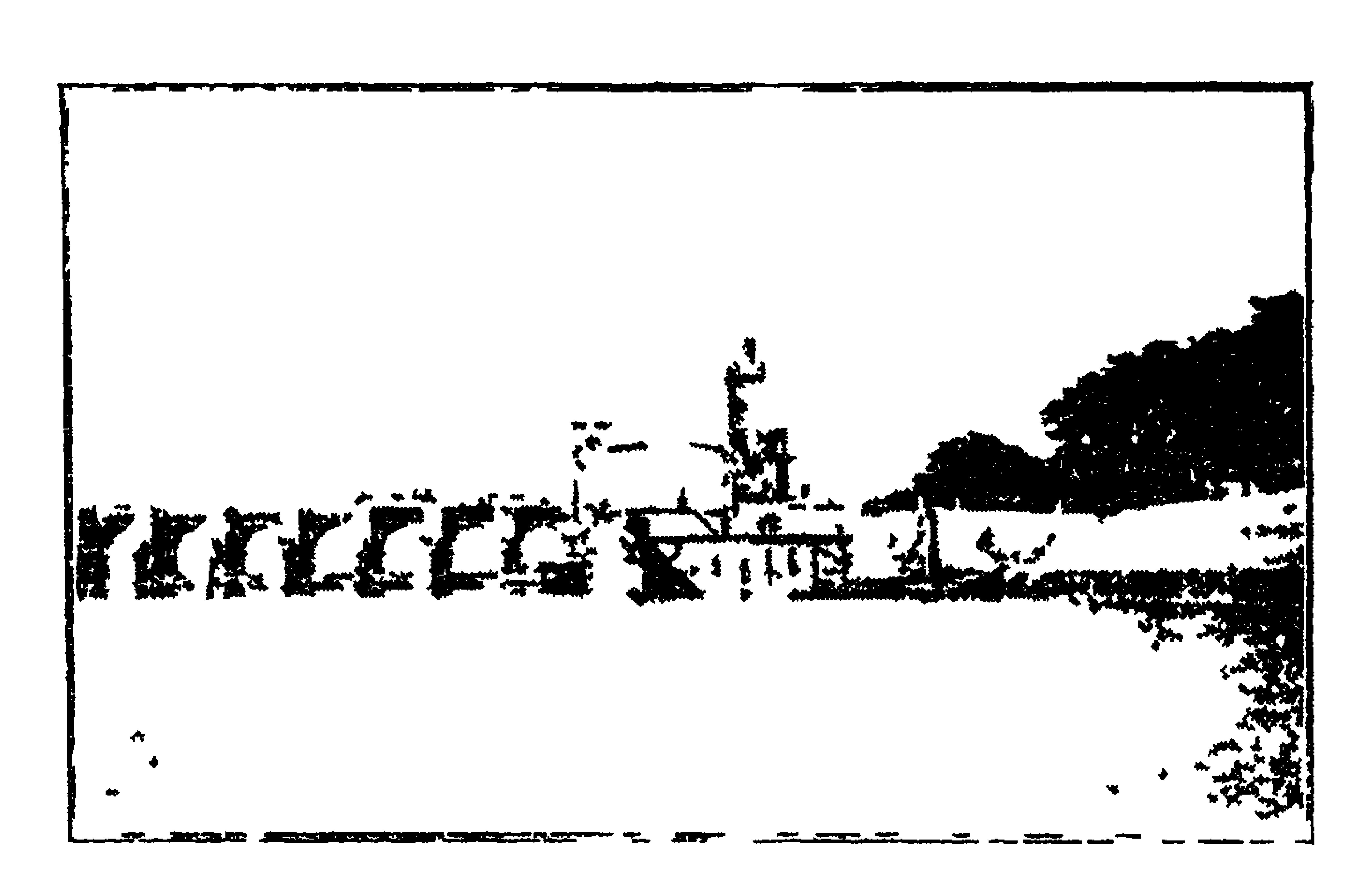
الأفدنة أوقات « التحاريق » ولقد كلف المشروع محمد علي مبلغا طائلا

ولكن مشروعا كهذا كان يتطلب وقتا طويلا لانجازه لأن مالية الحكومة كانت لا تسمح بالانفاق على هذا المشروع دفعة واحدة، ولكن تسرع محمد علي ورغبته في إنجاز العمل كي يتم في عهده لم تمكنا « لمنان » من تثبيت أساس البناء بالمتانة اللازمة فاضطر إلى إصلاحه ثانيا . ثم جاء المسيو « موجل » وواصل العمل في القناطر ولكنها لم تتم في عهد محمد علي وظلت إلى أواخر أيام سعيد . ومع ذلك فأن ضخامة المشروع وفائدته الكبرى لما لا يبقي مجالا للمبالغة وكفى أن مشروع القناطر هو الذي ولد فكرة خزان اسوان الحالي

نظرة عامة في أعمال محمد علي

بذلك أدخل محمد علي طرق التمدين الحديث في مصر بفضل إهتمامه بالجيش وملحقاته وحاجاته ولا غرابة في أن يدخل التمدين في بلد على يد الجيش ففي البلاد الشبيهة بالمتمدينة لا يمكن أن يدخل الرقي والاصلاح على أيدي المجموع ولا سبيل لغير الحاكم المتنور ذي الهمة العالية أن يرغم شعبه بالقوة على قبول الاصلاح ولما كانت القوة أول ما تتطلبه الحاكم المستبد لتأييد سلطانه يرى أن الجيوش والأساطيل كثيرا ما تمهد السبيل لإصلاحات عامة قد لا تتفق مع مصالح الجيش ذاته

وفي مصر كان تكوين جيش نظامي ذا أثر لإيجاد روح الطاعة والنظام في كل طبقات المجتمع فتمتع الاهلون مع الأمن على حياتهم وعلى الأملاك . وإن ما قام به محمد علي من تحسين الحكومة المركزية قد أوجد وحدة قومية حكومية بدل إقطاع المساواة التي كانت من قبل . وكانت نتيجة دخول النظام في أعمال الحكومة ومبانيها وهيئاتها



القناطر الخيرية

بالزراعة والتجارة والصناعة أن زادت ايرادات الحكومة زيادة ظاهرة أنفقها محمد على فى رفعة شأن مصر وشؤونه الخاصة . وقد كان لمحمد على هيبة واحترام فى قلوب شعبه. ومع أنه كان حاكما مستبداً كان كريماً رءوفاً يقبل النصائح والاقتراحات التى يبديها له غيره ، وقد لقى من الفرنسيين فى كل مشروعاته كل تعضيد ومساعدة واخلاص وان اسماء « سيف » و« سريزى » و« كلوت بك » و« لينان و« موجل » لتبقى على الدوام تذكارا لمشيئى مصر الحديثة . وانك لترى على العموم أن تسامح محمد على وترحيبه بالأجانب وشغفه الزائد بتعرف كل ما يجد أمامه كان له أثر عظيم فى تكوين شهرته التى طبقت الآفاق لأنه ما من رجل عرفه وعامله إلا واقتنع بعبقريته ونبوغه وعطف على أمانيه السياسية . ووصل الحال الى أن بعض معتمدى الدول وممثليهم كانوا مع حكومة محمد على مرتبطين بصلات ودية مادية جعلتهم يهملون مصالح حكوماتهم الخاصة ولا يجرءون على الدفاع عنها أمام مصلحة محمد على .

وكان محمد على على علم دقيق بأحوال السياسة فى أوربا عارفاً تاريخ كل سياسى شهير فيها ، وكان المترجمون يطالعون له كل ما يكتب عن السياسة ورجالها من أوثق المصادر على الرغم من أنه لم يتعلم القراءة والكتابة إلا متأخرا . ومن العوامل التى كان لها أحسن وأسعد اثر فى حياة محمد على إخلاص أبنائه وأسرته له واحترامهم له وتضحيتهم كل شىء فى سبيل طاعة رئيسهم الأكبر وهنائه . وهناك عامل آخر لولاه ما استطاع محمد على أن يجمع فى شخصه كل هذه القوة التى ذاع صيتها والتى مكنته من احتلال أكبر مقام لسلطان ثروة واعظمها اهمية له — ذلك ان الباب العالى كان على درجة

عظيمة من الضعف والتفكك الداخلى على الرغم من جهود السلطان محمود الثانى فى الإصلاح

المجال واسع للناقد

لقد أسهبنا فى الكلام على أعمال محمد على وما أوجده فى مصر من خير وإصلاح . غير ان هناك أيضا مجالا واسعا للناقد الذى يريد التنقيب عن الجزء المظلم من صفحة محمد على، فيجد فى استبداد المديرين البعيدين عن رقابة الباشا، وفى فقر وانهاك قوى الأهالى بسبب الاحتكارات والتجنيد، وفى مقتل المماليك وفى تبديد الأموال من غير فائدة على المصانع الجديدة، وفى قيام تجارة الرقيق فى السودان نجد فى كل ذلك مجالا للانتقاد لا نهاية له، ولكن من الظلم أن نحكم على محمد على بحسب مقاييس الغرب ونسبر أعماله بمخبارهم فنظام الاحتكار ونظام التجنيد كانا ـ وهذا مما يؤسف له ـ ضروريين على الرغم من ثقل وقعهما على الشعب . ولم يكن منهما بد لحماية مصر ومنعها من الوقوع تحت حكم الأتراك مرة أخرى . ومن أجل ذلك اضطر محمد على للمال والجيش وقضى أن تتحمل مصر هذين النظامين على أن تسود فيها الفوضى . ومع ذلك فإن نقد الاحتكار لم يظهر إلا حديثا وما من حكومة إلا وانتقدت سياستها بشأن أعمالها السياسية أو بشأن حجم جنودها أو توزيع أراضيها وثروتها.

أما تجارة الرقيق فهذا نظام ألفه الناس منذ قرون ولم يكن من السهل إلغاؤه إلا تدريجا . ولقد أرسل محمد على خطابا إلى حاكم السودان فى أول ديسمبر سنة ١٨٣٧ قال فيه «ليكن معلوما لك أن نظام الرقيق يحط من قدرى فى نظر العالم المتمدين وخاصة فى نظر الحكومة الإنجليزية التى بينى وبين حكومتها علاقات ودية وإنى لا أريد أن أكسب من تجارة لا تشرفنى وإذا

كان إلغاؤها يتطلب بعض تضحيات فأنا مستعد لتحملها

الحكم النهائي

وفى الختام نرى أننا إذا راعينا الظروف الخاصة التى ظهر فيها محمد على وعرفنا عظم الواجب الذى أخذ على عاتقه القيام به وسط تلك الفوضى والجهل والظلام والدسائس السائدة بمصر وبتركيا ،وجب علينا أن نعد نجاحه فى حكم مصر وما خلّده من آثار وإصلاحات وما لعبه فى العالم السياسى الأوربى دليلا على نبوغ محمد على. ولا أدل على عطفه على مصر تلك البلاد التى تبناها وأصبحت فى نظره كل شىء يستحق الوجود من أجله ، من تلك العبارة التى فاه بها للدكتور بورنج المندوب الانجليزى :

« إن بلادكم لم تصل الى ماوصلت اليه من الرقى الحالى إلا بجهود اجيال كثيرة مضت وان الطفرة محال فى رقى الامم وتقدمها . ولكن يمكننى ان اقول انى قد قمت ببعض الشىء لمصر واصبحت الآن تمتاز عن ممالك كثيرة لا فى الشرق فحسب بل فى الغرب ايضاً . نعم يعوزنى شىء كثير لا زلت اجهله كذلك يعوز شعبى شىء كثير. ولذلك ترانى الآن مرسلا إلى بلادكم « ادهم بك » ومعه خمسة عشر شابا ليتعلموا ماتعلمه بلادكم .فعليهم ان ينظروا الى الاشياء بأنفسهم وعليهم ان يمرنوا على العمل بأيديهم وان يخبروا مصنوعاتكم جيدا ليعلموا وليكشفوا أسباب سبقكم ورقيكم،واذا ما مضوا زمنا كافيا بين أهل بلادكم عادوا الى بلادهم وعلموا الشعب »[1]

(١) تقرير الدكتور بورنج — أوراق برلمانية الجزء ٢١ من سنة ١٨٤٠

الفصل الخامس

ظهور المسألة الشرقية واستقلال اليونان

حالة الدولة العثمانية

قامت الدولة العثمانية بالسيف ولا تزال الصفة الحربيـة عنوانها الى اليوم . فبالسيف فتحت فتوحاتها وبه كسبت مركز الخلافة الاسلامية وبفضل ما استولت عليه من الأملاك أصبحت الدولة فى صفوف دول أوربا العظمى . غير انه من سوء حظ الدولة أن فتوحاتها كانت غريبة عنها فى صفات كثيرة فلم يربطها بأملاكها الاروابطضئيلة فلا دين يجمع بينهما ولا لغة ولا جنسية ولا تقاليد . فأصبحت فتوحاتهـا على ذلك سريعـة الانثلام مهددة فى كل وقت بالثورات الداخلية ولقد تضاعف الخطر الذى كان يهدد الدولة فى أملاكها عندما ظهر للعالم أجمع اضمحلالها الحربى و نهزامها امام الروسيا فى أواخر القرن الثامن عشر .

فلما انحطت الدولة العثمانية من مركزها الحربى وهى لدولة الحربية قبل كل شيء ضاع نفوذها الأدبى ولم تقو على مطالبة رعاياها بالاخلاد الى السـكون والطاعة

ولما لم يكن فى مقدور السلطان تأييد سلطانه فى أملاكه أومزج هذه الأملاك فى جسم الدولة بأيةطريقة اكتفى البابالعالى من أملاكه بدخل سنوى يجمعه من تنتهى اليه المساومة من بين الباشاوات ، وببعض أفراد ينتظمون فى سلك الجيش أو فى البحرية ، ولم يفكر فى شيء من

الاصلاحات أو الأنظمة اللازمة لحفظ أملاكه وعلى هذا تركت الولايات العثمانية في حالة شبه استقلالية يحكمها في الغالب ولاة طغاة

على انه لغاية القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية لاتزال ظاهرة امام العالم الأجنبي بمظهر القوى الثابت وذلك بفضل انظمتها التي كانت تحجبها عن انظار اوربا حتى لم تعرف عن داخليتها الا قليلا . نعم كان البناء قائماً في نهاية القرن الثامن عشر ولكن البنيان كان من صخور نخرة واهية البناء توشك أن تنهار اذا ما هبت عليها العاصفة. وسرعان ماهبت العاصفة من الغرب فان زوابع الثورة الفرنسية وحروب نابليون التي لفحت أوربا فايقظت أهلها من سبات عميق قد صدمت كذلك سياج الدولة العثمانية المفككة العرى فتغلبت الافكار القومية والاستقلالية على شعور رعايا السلطان المسيحيين في أوربا

الثورات الداخلية

ومما زاد في خبال الدولة ما كانت عليه الحكومة المركزية من الضعف وما كان يتأجج في داخلها من نيران الثورات ومن المذابح والمظالم وخاصة بعد ثورة الانكشارية ضد السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٦ في القسطنطينية ولم تكن الثورات مقصورة على عاصمة الخلافة بل كانت عامة في جميع أنحاء الدولة . فقام الوهابيون في بلاد العرب وأخذوا يمدون سلطانهم حتى استولوا على مكة والمدينة. وقام عثمان باشا المعروف « بيسبان أوغلو » والى « ودين » فأخضع اقليم بلغاريا وانتصر على جنود السلطان واضطره الى تعيينه والياً على هذا الاقليم في سنة ١٨٠٧ . وقام سكان الجبل الاسود ضد الباب العالي وانتهى الامر بأن أعلن السلطان عدم تدخله في شؤون الجبل . وقام علي باشا حاكم «يانينا» الذي أخضع البلاد المجاورة له

حتى أصبح المسيطر على اقليم « ايبروس» . وقام «قره جورج » فى ١٨٠٤ فى بلاد الصرب وعقد جمعية وطنيــة أعلنت استقلال الصرب الداخـلى فحارب الصربيون جنود الانـكشارية وانتصروا عليهـم وأخرجوهم من بلغراد فى ١٨٠٦ وأصبح « قره جورج» الحاكم المطلق

خطة القيصر ونابليون فى الشرق

كل هذه الحوادث جعلت الخطب يتفاقم فى بلاد تركيا، وجعلت نابليون ييأس من مواصلة سياسته الأولى التى بدأها سفيره القائد « سبستيانى» والتى كانت تقضى بتقوية الدولة حتى تـكون حاينة قوية لفرنسا يعتمد عليها ويستخدمها ضد الروسيا وانجلترا. وكانت الروسيا لا نفتأ تذكر وصية« بطرس» وخطة« كترينة الثانية »وتتحين الفرص لتحقيق أمانيها فى احتلال القسطنطينية وسواحل البحر الاسود ؛ ولم تكن الفرصة اكثر ملاءمة منها فى سنة ١٨٠٧ . وكان نابليون فى ذلك الوقت منتصرا فى واقعة « فريدلند »على روسيا وبروسيا فتقابل القيصر والامبراطور نابليون فى « تاست» واتفقا بشأن المسالة الشرقية اتفاق سريا بمقتضاه تشترك فرنسا مع الروسيا فى تجزئة الدولة العثمانية كما ان الروسيا تشترك مع فرنسا فى اعلان الحصر البحرى على انجلترا . وبدأت فعلا مفاوضات التجزئة ولكن نابليون أصر على أن تبقى القسطنطينية وبلاد الروملى الشرقى تابعتين للدولة العثمانية، وأصر القيصر على أخذ القسطنطينية فلم تأت المفاوضات بنتيجة ، هذا الى أن انجلترا كانت بالمرصاد فى البحر

وبينما كان نابليون يعد العـدة ضـد انجلترا والدولة، جاءت الاخبار بانـكسار جيوشه فى اسبانيا وقيام الشعوب ضده فى شبه جزيرة الاندلس ثم فى النمسا والمانيا. وفى هذه الاثناء قامت الحرب بين روسيا وتركيا سنة

١٨٠٩ واستمرت ثلاث سنوات انتصرت فى اثنائها الروسيا كالمعتاد ، ولكن لما رأت الروسيا بوادر النزاع بينها و بين نابليون بدأت مفاوضات الصلح مع تركيا . وعلى الرغم من تدخل نابليون فى المسألة والحاحه فى ايقاف مفاوضات الصلح لم يصغ الباب العالى لنصحه متذكراً ماعمله نابليون فى «تلست» ومتجاهلا سير السياسة فى أوربا لانه لولم يعقد الصلح لاضطر القيصر الى ابقاء جزء عظيم من جيشه فى البلقان وما امكنه مقاومة حملة نابليون الشهيرة فى الروسيا . ولكن القيصر فطن لهذا فلم يتشدد وعجل بعقد معاهدة «بخارست» فى مايو سنة ١٨١٢ فنزل القيصر عن حماية البغدان والافلاق وأصبح نهر «البروت» هو الحد الفاصل بين الروسيا والدولة العثمانية

المسألة الشرقية بعد سقوط نابليون

ولم يستتب السلم طويلا بعد سقوط نابليون على الرغم من ادعاء « مترنخ » بانه وطد السلم فى أوربا ٣٣ سنة اذ الحقيقة ان السلم لم يدم فى أوربا اكثر من ثلاث سنوات، وبعد مؤتمر الدول فى « اكس لاشابل » سنة ١٨١٨ ظهرت دلائل الثورات فى المانيا ثم فى اسبانيا وايطاليا واليونان ، ولم يمنع من احتدام الخلاف بين الدول الا رغبتها الأكيدة فى المحافظة على وحدتهم ليظهروا بمظهر القوى امام فرنسا مهد الثورات

ومن الغريب أن يبدأ الهجوم ضد مبادئ المحالفة المقدسة من نفس الداعى لها وهو قيصر الروسيا اسكندر الأول ذلك الذى لم يستقر على قرار بشأن سياسته فبينما تراه يحبذ الأفكار الدستورية آونة تراه يعضد مشروعات « مترنخ » آونة أخرى . وكانت سياسة الاسكندر حيال الدولة كسياسة قياصرة الروس منذ بطرس الأكبر وهى التعجيل بأضعاف الدولة العثمانية

والعمل على اضمحلالها . واذا كان لم يتيسر للاسكندر تحقيق أغراضه في سنة ١٨١٢ بعد انتصاره الباهر فذلك لأن نابليون كان يعد حملته الشهيرة ضد الروسيا . فلما سقطت دوله نابليون واستتب السلام فى غرب أوربا عاد الاسكندر الى مواصلة مشروع القيصرة «كترينة الثانية» ، وكانت أسباب النزاع بين روسيا وتركيا متوافرة بفضل الحقوق الى كسبتها روسيا على رعايا السلطان المسيحيين فقد فسرت معاهدة كجوك كينارجة بأن لها حق حماية الرعايا المسيحيين دينياً وسياسيا أينما كانوا ، مع ان نص المعاهدة لا يقضي الا بأن يكون للروسيا حق حماية كنيستها بالقسطنطينية وغيرها التى من جنسها .

خطة الروسيا

ولم تكن الروسيا تعد نفسها حامية للمسيحيين فحسب بل كانت تعتبر أن الواجب يقضي عليها بتخليص هؤلاء الأقوام من حكم العثمانيين ، وانتهز الاسكندر فرصة تفوقه فى أوربا فى ١٨١٥ ونظر الى المسألة الشرقية نظرة من يريد حلها ولكن لم يدر بأى الطرق ، لأنه خشى أن تعرض المسألة أمام مؤتمر فينا فتفقد الروسيا إمتيازها الخاص بالدولة . ولقد هال الباب العالى ان يرى قيصر الروسيا يقدم وثيقة «المحالفة المقدسة» وفيها ظهرت الدول المسيحية كأنها أسرة واحدة يجب ان تعمل على حسب تعاليم الكتاب المقدس . فظهر لتركيا عزلتها عن باقى ممالك أوربا فخافت ان يكون المقصود من مثل تلك الوثيقة إثارة حرب صليبية من جديد فكتبت تستفهم من حكومتى لندره وفينا فاجابتها بأن تسفهم من القيصر فطمأنها . ولكن الحقيقة لم تخف عن انظار الباب العالى الذى رأى الخطر يهدده لاحتفاظ القيصر بجيش عظيم يبلغ ٠٠٠٠٠٠ جندى مع أن الدول

كانت قد نقصت جيوشها إلى النصف منذ سنة ١٨١٦ . ودل القيصر على نياته ضد الباب العالى بتعضيده للثورة فى الصرب وبأ يوائه «قره جورج» فى سنة ١٨١٣ بعد استعادة السلطان لنفوذه، وبمساعدته «لميلوش إبرونوفتش» الذى نال من الباب العالى حق الاستقلال الداخلى للصرب سنة ١٨١٧ بعد أن قتل « قره جورج » منافسه

كذلك أدخل القيصر فى خدمته كثيراً من اليونانيين أمثال « كابودسترياس » والأخوين «ابسلنتى» وساعد اليونانيين على تأليف جمعية سرية تدعى « بالهتيريا » اى « جمعية الاخوان » التى أخذت تعد العدة للثورة ضد العثمانيين على مثال جمعية «الكربونارى» فى ايطاليا بالنشر والتحريض — كل هذا كان يعمله القيصر علانية غير ان انجلترا والنمسا كانتا على حذر وحاربتا سياسة روسيا بقدر ما فى وسعهما . لأن النمسا كان لا يسعها أن ترى الروسيا تبسط حمايتها على الشعوب الساكنة على سواحل الدانوب قريبا من أملاكها فلم تساعد أهالى البلقان على الثورة ضد الاتراك وأما بريطانيا فكان من رأى ساستها أن حفظ كيان الدولة العثمانية أمر ضرورى لدوام السلم فى أوربا ولمعارضة الروسيا فى سبيل تقدمها نحو الشرق والبحر الأبيض المتوسط. وسيظهر هذا الخلاف جلياً عند نشوب ثورة اليونانيين

« ثورة اليونانيين »

حالة اليونانيين العامة

كان اليونانيون أكثر الأجناس الخاضعة للسلطان عدداً وأقربهم اليه منزلة : كان الباب العالى يخصهم بوظائف ومزايا سامية ، وكان فلاحو اليونانيين أسعد حظاً من زملائهم فى أوربا اذ لم يكن نظام رقيق الاراضى

معروفا فيها . وكان السلطان يعين ولاة من العثمانيين يدعون إلى مشاورتهم في شؤون الادارة أعيان اليونانيين والاتراك ، وكان يترك توزيع الضرائب وجبايتها في أيدي سكان كل قرية فكانوا ينتخبون عددا من بينهم لتقدير الضرائب وتوزيعها على السكان

وكل ما كان يهم الباب العالي هو وصول المال للخزانة والحصول على العدد اللازم من بحارة الجزر اليونانية لاحاقهم بالاسطول العثماني . أما من الوجهة الدينية فكانت سياسة السلطان دائما في كل فتوحاته ترك كل ملة وشأنها ، ولما كان المذهب المسيحي السائد في تركية أوربا هو الارثوذكسي وفق الكنيسة اليونانية ، خص الباب العالي اليونانيين بادارة الشؤون الدينية في جميع انحاء الدولة ، فكان يعين منهم « بطريقا » عاما مقره في القسطنطينية . وكانت هذه الوظيفة من اسمى الوظائف في الباب العالي اذ كان البطريق اليوناني نفوذ على كافة الكنائس المسيحية في الدولة العثمانية ما عدا بلاد الصرب وكان له حق تعيين الاساقفة ، هؤلاء حتى في الكنائس [illegible] ، وقد أوصلتهم [illegible] [illegible] [illegible] الوظائف [illegible] [illegible] لهم أربع وظائف وقفا عليهم وهي وظيفة « كاتب سر [illegible] الباب العالي أو ترجمانه و « كاتب سر » الاسطول وحكام الفلاخ وحكام البغدان

حالتهم التجارية

أما حالتهم التجارية فقد [illegible] منذ معاهدة « قينرجه » ١٧٧٤ التي بمقتضاها فتح البحر الاسود للتجارة [illegible] . وانتفع اليونانيون [illegible] هذه المعاهدة فاخذوا [illegible] [illegible] التجارة العظيمة واصبحوا [illegible] [illegible] منذ [illegible] [illegible] [illegible] تاجرون [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وقدزادت

تجارة اليونانيين وسفنهم أثناء حروب نابليون والحصر البحرى ، فأصبح اليونانيون ذوى تجارة واسعة فى شرق البحر الابيض المتوسط . ومن دلائل اتساع حركة التجارة اليونانيـة ظهور ميناء « أودسا » على البحر الأسود فى سنة ١٧٩٢ وهجرة اليونانيين اليها بكثرة حتى أصبحت ملجأ لجماعة من اثريائهم

حالتهم الادبية

كذلك رقت حاله اليونانيين الأدبيـة فبدءوا يتعلمون فى البـلاد الأجنبيـة ويتلقون دروساً جـديدة نبّهت عقولهم وجعلتهم يضمرون التخلص من شر الاتراك . وظهر من بينهم المصلح الشهير « كورايس » (١٧٨٤ — ١٨٣٣) الذى اليه يرجع الفضل فى وضع اللغة اليونانية الحديثة، لانه رأى أنه لا يكمل الشعور الجنسى بدون رابطة اللغة ورأى أن اللغة اليونانية فى ذلك الوقت خليط عقيم من اللغات الأجنبية المجاورة مع أن اللغة اليونانية القديمة كانت من أفضل اللغات فأخذ « كورايس » ينقى اللغة من الغريب السوقى واستبدل به اليونانى العريق، وهكذا أخذ يصلح اللغة ويزيد عليها ويدمج القـديم فى الجديد وأخرج مؤلفات جـديدة وأحيا الآداب القديمة فأعاد ذكرى مجد اليونانيين القدماء وجعل لهم لغة ذائعة معروفة

من ذلك يتبين أن اليونانيين قبل الثورة لم يكونوا مستعبدين بل كانوا فى الحقيقة شبه مستقلين، وانهم وصلوا الى درجة عظيمة من الثروة والرقى وخاصة فى مركز نهضتهم، وهو حى « الفنار » فى القسطنطينية حيث كانت دار البطريق التى نشأ حولها طائفة « الفناريين » المعروفين،
[illegible]

غير ان هذا الرقي كان باعثاً على تحريك الهمم ضد سيادة الاجنبي وخاصة بعد ما علموه من نجاح الثورة الفرنسية وظهور نابليون الذى أصبح مثالا يقتدى به فى الثورات التى قامت عقب سقوطه مطالبة بالاستقلال . كذلك شجع اليونانيين على القيام بالثورة ما علموه من قيام علي باشا حاكم « يانية » وغيره فى أنحاء الدولة . ولكن المسئول مباشرة عن تنظيم حركة الثورة ضد الاتراك هو جمعية « الهتيريا » أو جمعية الاخوان وهي جمعية سرية أسست في « أودساوفينا » فى سنة ١٨١٤ لما عيل اليونانيون بأن مؤتمر « فينا » سيهمل البحث فى المسألة الشرقية وأخذت دائرة الجمعية تتسع تدريجا حتى انضم الى صفوفها فى غضون ست سنوات كل يونانى ذى مكانة

تكوين جمعية الاخوان

وكانت هذه الجمعية تتاجر باسم قيصر روسيا ووزيره اليونانى « كابو دستريا » . ولما اجتمع أعضاء الجمعية لتبادل الآراء فى أمر اعلان الثورة فى ولايات البغدان والأفلاق لقربهما من الروسيا ، وأعلنوا انهم يريدون استبدال أمارات البلقان وطرد العثمانيين خارج أوربا وتجديد الدولة البيزنطية ، كانت الآمال معقودة على أن يكون القيصر عضداً للحركة . فلما أرادوا انتخاب رئيس لقيادة الحركة خابروا « كابو دستريا » وزير القيصر فى الأمور الخارجية فأبى علانية برغبة القيصر عن ذلك . فوقع انتخابهم على « ابسلنتى » وكان ضابطا فى الجيش الروسى فى خدمة القيصر أيضاً فأعلن الثورة فى « بسي » فى ٦ مارس سنة ١٨٢١ ونادى فى الأهالى مسيحيين بالقيام وأصدر التماسا للقيصر يطلب التعضيد ولكن آمال ابسلنتى [illegible] الأ[illegible] شعوب البلقان [illegible] اليونانيين

قيام الثورة واغراضها

وخاصة فى رومانيا حيث كانت الديانة « كاثوليكية » ، وعلى ذلك لم يكن من مصلحة الرومانيين والبلغاريين مثلا أن يساعدوا فى تكوين امبراطورية جديدة . لذلك لم تصادف دعوة « الهيتريين » قبولا من الفلاحين فى رومانيا كما كانوا ينتظرون .

فشل الثورة فى البلقان

أما القيصر اسكندر الأول فقد جاءه خبر قيام « ابسلنتى » وهو فى مؤتمر « ليباخ » يتناقش مع الدول بشأن اخضاع الثائرين فى « نابلى » واعادة صاحب الحق الشرعى فيها إلى ملكه . وكان اسكندر فى تلك الآونة قد غير افكاره السياسية الحرة وتلقى السياسة الرجعية عن أستاذها « مترنخ » وصار له أعظم معين فى سياسته ، فما كان ينتظر أن يكون اسكندر عدواً للثورات فى غرب أوربا وعضداً لها فى شرقها وقريبا من أملاكه . لذلك لما بلغه خبر قيام « ابسلنتى » بش للخبر أولا ولكن مازال به « مترنخ » حتى كتب يستهجن عمل « ابسلنتى » ويبرئ نفسه منه . كذلك أصدر البطريق اليونانى بالقسطنطينية قرار الحرمان ضد « ابسلنتى » ، وفى الوقت نفسه أرسل السلطان جيشاً لقمع الثورة فعبر نهر الدانوب وهزم الثوار ففر « ابسلنتى » إلى داخل حدود المجر حيث اعتقل ومات

« قيام المورة »

تبادل القطائع من الجانبين

هذا ما حصل من اليونانيين فى شمال البلقان ، ولكن الثورة لم تقتصر على ذلك بل امتدت الى الجنوب أيضاً أى فى شبه جزيرة « المورة » مهد اليونانيين الأصليين ، فقاموا فى ١٨٢١ ، وكان القصد من هذه الحركة الخروج من نير العثمانيين واعلان استقلال اليونان فقط . ولما شق اليونانيون

عصا الطاعة أتوا بفظائع مروّعة ضد العثمانيين وخاصة من كان منهم في داخلية البلاد فلما وصل خبر هذه المذابح إلى مسامع الاتراك ثارت نفوسهم وانتقموا لأنفسهم شر انتقام فأعدم السلطان محمود الثانى البطريق اليونانى في صبيحة عيد الفصح واعدم غيره من الأساقفة اليونانيين وظل الجانبان يتبادلان ويتنافسان في صب العذاب على رءوس الأبرياء . ثم استولى الثوار على « تريبولتزا » (١٨٢٢) مقر الحكم ومثلوا بالاتراك شر تمثيل فقابلهم الاتراك بالفتك بسكان جزيرة « شيوس »

عجز السلطان عن قمع الثورة

ثم أعد الباب العالى جيشا بقيادة خورشيد باشا الذى كان حاكما على مصر فى ١٨٠٤ ، وبعد أن أخضع على باشا والى «يانية» سار جنوبا ووقف جزء من الجيش امام ميناء « مسولنجى » وسار جيشه مخترقا مضيق « ترموبيل » ولكنه اهمل تحصين المرتفعات من ورائه ، فلما ذهب « كولكترونس » رئيس « الكلفت » أو عصابات اليونان الجبلية وأحد زعماء الثورة اضطر الجيش الزاحف إلى التقهقر فوجد اليونانيين متحصنين فى المرتفعات، فدحر الجيش بأكمله وانتحر خورشيد باشا بعد هذه الهزيمة . كذلك ظهر فى البحر ملاحو جزر الارخبيل بقيادة « كناريس » و« مبوليس » فهزموا الاتراك واغرقوهم وسفنهم اينما عثروا بهم ، ومرت ثلاث سنوات . بطلت الاتراك من الارخبيل، فلما جاء يناير سنة ١٨٢٢ اعلنت اليونان استقلالها برياسة « ماوروكرداتس » « وابسلانتي » ولكن كانت المنافسة بين الوطنيين شديدة فأدى ذلك إلى ضعف الحكومة اليونانية .

ولما لم يكن لدى السلطان جنود لقمع الثورة و وجد شططا محمد على باشا بأشرة ... التي كانت تريد ... الأفكار الثورية

وعدم إعطاء الروسيا فرصة للتدخل .وأرسل السلطان لمحمد على أمراً بذلك فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ ووعده بتعيينه حاكما على « المورة » « وكريد ». فصدع محمد على بالأمر ورحب بفرصة يظهر فيها للعالم قوته البرية والبحرية، ويبرهن مرة ثانية أنه اقدر من السلطان فى ميادين القتال . فأرسل قوة إلى كريد أولا ثم جهز حملة مكونة من ١٧٠٠٠ جندى سافرت على ١٠٠ نقالة ويصحبها ٦٣ قطعة حربية من السفن التي كانت فى حوزته، وقد جعل الرياسة لابنه ابراهيم باشا ورياسة الأسطول لصهره محرم بك .

طلب المساعدة من محمد على

وذهب الأسطول أولا إلى جزيرة « رودس » فانضم إلى الأسطول العثمانى وشجعه على الخروج والمخاطرة ، واقتحم الأرخبيل على الرغم من تعقب سفن اليونانيين لهم، وكان الأسطول أقوى اسلحتهم ولكن ابراهيم اضطر الى الالتجاء الى جزيرة « كريد » وبقى بها مدة أصلح فيها احواله وانتهز فرصة منازعات اليونانيين بسبب يأسهم من تعضيد أوربا لهم بعد أن منوا أنفسهم بذلك زمنا طويلا . فخرج ابراهيم فى اوائل سنة ١٨٢٥ وتمكن من الافلات من سفن اليونانيين ونزل بميناء « مودُن »

حركات الحملة المصرية

وكان نزول الجنود المصرية على أرض « المورة » فاتحة عهد جديد إذ كان مستحيلا على اليونانيين مقاومة جيوش ابراهيم المدربة على النظام الحديث فأخذت انتصارات الأتراك والمصريين تتوالى فى ١٨٢٥ و ١٨٢٦ واخضع ابراهيم « كوروز » ثم « نوارين » « وتريبولتزا » وحاصر « نوبلى » مركز قيادة الثورة، ولكنه ارتد عنها ولم يبق من « المورة » غيرها . كذلك كان رشيد باشا محاصر « ... ولنجى » (١٨٠٥) فلما اعياه فتحها طلب إلى ابرهيم باشا المساعدة، فتقدم ابراهيم بعد استئذان ابيه وكان اليونانيون

مستميتين فى الدفاع عن هذه الميناء ولم يتمكن ابراهيم من فتحها إلا بعد حصار دام من أول الأمر خمسة عشر شهرا وسقطت فى ابريل ١٨٢٦ بعد أن هلك ثلاثة ارباع سكان المدينة. وبعد «مسولنجى» سقطت أثينا» (يونيه ١٨٣٧) وبذلك خضعت اليونان ولم يبق لهم إلا بعض جزر الأرخبيل «ونوبلى» عاصمتهم، فانحطت حالتهم الأدبية وتنازعوا أمرهم بينهم ولم ينقذهم من الفناء إلا شيئان: تدخل أوربا وضعف تركيا الداخلى، وكان السلطان قد قضى على جنود الانكشارية عن آخرهم فى سنة ١٨٢٦ لما شاهده من فوقان الجنود المصرية، وبدأ بتنظيم جنود جديدة لا يرجى صلاحها للحرب إلا بعد سنين

تدخل الدول

لما ظهرت حركة الاستقلال اليونانى كانت المبادىء السياسية السائدة فى أوربا لا تتفق البتة مع أمانى الثوار اليونانيين فمبادىء المحالفة المقدسة صريحة بشأن الشعوب التى تثور ضد ملوكها وحكامها ولم يكن ينتظر من المؤتمر الدولى فى أوربا أو من ممثله «مترنخ» أن يحبذ الثورة ضد السلطان. فالثورة ضده لم تخرج عن كونها ثورة ضد صاحب الحق الشرعى على أى حال، على الرغم من أن السلطان لم يكن من الموقعين على المحالفة المقدسة ولا من المشتركين فى مؤتمرات الدولية.

وكانت الدول فى أول نشوب ثورة اليونان منشغلة بمسألتى ايطاليا واسبانيا وبما حصل فيهما من انقلابات الحكومة فتركز اهتمام الدول ومن بينها الروسيا بشأن الحالة فى الغرب عظيما. فلما قام اليونانيون رأت

الدول انه وان كان الأمر يقتضى التدخل فى جانب صاحب الحق الشرعى وهو السلطان وفاقا للمبادىء الموضوعة منذ سنة ١٨١٥، فعلى الأقل يجب عليها أن تلزم الحيدة حتى تأتى الحرب بنتيجة فعلية. نعم كان الروس والاسكندر متحفزين للوثوب على عدوهم القديم تعضيدا لأخوانهم فى الملة، وبالفعل أرسل الاسكندر انذاراً نهائيا للباب العالى وسحب سفيره من القسطنطينية ولكن « مترنخ » و « كسلرى » وزير خارجية انجلترا سكنا من روع الاسكندر واظهرا له الخطر الذى قد يحدث على أثر دخول الاسكندر فى جانب الثوار ضد السلطان، فاذعن لسياستهما ولم يشأ الدخول فى جانب الثوار وخاصة لما رأى أن افكار الثوار متجهة نحو الاستقلال، وظل كذلك إلى ان مات فى ديسمبر سنة ١٨٢٥.

خطة كاننج

كذلك مات « كسلرى » منتحراً فى سنة ١٨٢٢ وخلفه فى وزارة الخارجية « جورج كاننج » وكان سياسيا جريئا صريحا، من خطته مناوأة مؤتمر الدول ومنعه من التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الصغيرة، فأدت حدة سياسته تدريجا إلى عدم اشتراك انجلترا مع دول وسط أوربا فى قراراتها وجعلته يعلن اعتراف انجلترا باستقلال مستعمرات اسبانيا فى امريكا سنة ١٨٢٤

أما سياسته إزاء المسألة اليونانية فانه مع عطفه على الثوار لم يتدخل فعليا فى جانبهم. وكان يعلل نفسه بأن اليونانيين لا بد أن ينتصروا على الاتراك نهائيا فتستقل اليونان من غير تدخل الدول.

أما مترنخ الوزير الأكبر للنمسا فلم تكن له إلا سياسة واحدة فى الشرق وفى الغرب وهى سياسة المحافظة على القديم وإخماد الحركات القومية

خطة النمسا وفرنسا

والدستورية واحترام الحقوق الشرعية وأصحابها سواء كان صاحبها « فرديناند السابع » ملك اسبانيا أو « محمود الثانى » سلطان تركيا، لذلك كانت مساعدة النمسا للاتراك ضد الثوار اليونانيين أقرب من نقيض ذلك وخاصة لاتصال البلقان بأملاك النمسا . أما سياسة فرنسا فكانت حكومة ملكها « شارل العاشر » تريد اكتساب ثقة الشعب الملكيين وجمهوريين بالدخول فى جانب اليونانيين انتصارا للشعوب الضعيفة من جهة وتأييدا للمسيحيين ضد الاتراك من جهة أخرى . أما بروسيا فكانت سياستها هى عين سياسة مترنخ ، لأنها لم تكن لها مصالح ذات شأن فى البلقان . هذه هى سياسة الحكومات

عطف الشعوب الاوربية على اليونانيين

أما شعوب أوربا فكانت منذ الساعة الأولى تعطف على اليونانيين فتألفت جمعيات « أصدقاء اليونان » فى كل مملكة وأيدت اليونانيين بالمال وبالذخائر وبالرجال المتطوعين، ومن أشهرهم اللورد « بيرون » الشاعر الانجليزى الذى مات أثناء حصار « مسولنجى » والكولونيل « فابيير » الفرنسى .

ولا غرابة فى ذلك فاليونان فى نظر اوربا أم الحكمة ومنبع العرفان وهى البقية الباقية من المدنية القديمة ذات الفضل الحسن والأثر المحمود فى مدنية اوربا الحديثة ، وهى البلاد التى انبثق منها نور الحرية والديموقراطية الأولى فكان حقا على اوربا أن تسدد جزءا ولو صغيرا من دينها السابق

غير أن الرأى العام فى اوربا كان وقتئذ وفى هذه المسألة يعمل مدفوعاً بعواطفه ولا يعلم الحقيقة التى لا مراء فيها وهى أن اليونانيين الحديثين قوم قد امتزجوا بالأمم السلافية واتبعوا عاداتها فكانوا من هذه الجهة أقرب منهم إلى المدنية ولم يتميزوا من باقى الأمم البلقانية فى شىء . فان البيئة

الجغرافية واحدة وقد أثرت في الجميع، اللهم إلا اليونانيين الذين رحلوا عن بلادهم وتعلموا وامتزجوا بالأمم الأخرى فانهم حقيقة كانوا ذوى ثروة ونشاط ومقدرة .

على أن عطف شعوب اوربا على اليونانيين لم ينقذهم من الأذعان لسلطان ابراهيم باشا والعثمانيين، وكان محمد على قد أرسل المدد لأبنه ابراهيم فخافت حكومات اوربا أن تكون عاقبة تغلب المصريين فى بلاد اليونان أن ينقرض اليونانيون وتثبت أقدام المصريين فى تلك البلاد، فأصبح التدخل لا بد منه وخاصة من ناحية روسيا

خطة القيصر نقولا الاول

وكان القيصر نيقولا الأول الذى خلف القيصر اسكندر أقوى مراساً من سلفه مقداما ولم يكن من رأيه التمسك بمبادىء المحالفة المقدسة لأنه لم يتقيد كخلفه بقرارات سنة ١٨١٥ وما بعدها . وكان من رأيه الصريح التدخل ضد الأتراك فأرسل انذاراً نهائياً بشأن شروط لمعاهدة « بوخارست » لم ينفذها الباب العالى، ولم يقو على التصريح بذكر المسألة اليونانية فلما علم « كاننج » بذلك خاف أن يؤدى الأمر إلى تدخل الروسيا بمفردها فى حل المسألة فيكون لروسيا النفوذ الأكبر فى البلقان، فأرسل الدوق «ولنجتون» سفيراً لدى الروسيا ليعمل على توحيد الأغراض فاتفقا مبدئياً فى ٤ ابريل سنة ١٨٢٦ على أن تمنح اليونان الاستقلال الداخلى وتبقى السيادة لتركيا.

ومقابل هذا الاتفاق سعت انجلترا لدى الباب العالى بأن يسرع فى الاتفاق مع القيصر على تنفيذ شروط معاهدة «بوخارست» وفعلا ووفق على ذلك باتفاق «أكرمان» سنة ١٨٢ وبمقتضاه أصبح للروسيا حق فى

ولايتي الدانوب لا يقل عن حق تركيا ، وأخذت الروسيا بعض بلاد في جنوب القوقاز ، وأصبحت الملاحة حرة في البحر الأسود ، ووافق السلطان على ما نالته الصرب من الاستقلال .

ولكن المسألة اليونانية كانت تتطلب النظر فيها بسرعة فعمدت انجلترا والنمسا إلى نصح الباب العالي بقبول الاتفاق المبدئي (ابريل سنة ١٨٢٦) بين انجلترا وروسيا ولكن الحكومة العثمانية بدت بدل الموافقة لومها للدول لأنها لم تراع مبادىء المحالفة المقدسة ولأنها شجعت الثوار على الخروج على صاحب الحق الشرعي وانكرت عليهم حقهم في التدخل في مسائل الدولة الداخلية. وكانت الروسيا تتحين الفرص لاعلان الحرب والتدخل في المسألة فوجدت اصرار السلطان على عدم الاتفاق مع الدول مبررا للحرب . كذلك اتخذت الوزارة الانجليزية منذ تولي «كاننج» رياستها موقفا هجوميا فلم تشأ ان تستسلم لمماطلة الباب العالي وعلى ذلك سرعان ما تم الاتفاق بين روسيا وانجلترا وفرنسا

معاهدة لندرة سنة ١٨٢٧

أما النمسا فقد أعلنت مبدأها الذي لا تحيد عنه وهو أنها لا تتدخل بدأ بناء على طلب الثوار وأن خير طريق لحل المشكلة هو أن تنصح للسلطان وديا بأن يمنح اليونانيين مطالبهم . فلذلك لم تتحرك [illegible] وتركت الدول الثلاث توقع على المعاهدة، وفي مقدمتها يقولون إنهم عقدوا هذه المعاهدة لمنع الاضرار التي لحقت بتجارتهم في الشرق وجريا لدعوة الثوار وتلبية لنداء الانسانية . وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر أن تنفصل اليونان عن تركيا نهائيا وأن تبقى السيادة لتركيا من غير أن تدفع اليونان الجزية وأن [illegible] الهدنة بين المتحاربين تنفيذا لشروط المعاهدة والا تدخلت الدول

بالقوة ولم يمهل الباب العالى الا شهرين للأجابة

موقف الحلفاء وواقعة «نوارين»

ولما رأى الحلفاء ما ينتظر من عناد الباب العالى واصراره على عدم الأذعان قرروا سراً ان يرسلوا بعض أساطيلهم الى شواطىء اليونان استعداداً للتدخل بالقوة فجاء أمير البحر «كدرنجتون» أولا على رأس الاسطول الانجليزى وألقى مراسيه عند «نوارين». ثم جاء الفرنسيون بقيادة أمير البحر «رينى» والروسيون بقيادة «هيدن» وبدأت المفاوضات فى الحال مع ابراهيم باشا وكان واقفاً باسطوله العثمانى المصرى داخل خليج «نوارين»، أما الثوار فحين جاءهم خبر ابرام المعاهدة عدوه انتصارا باهرا لهم بعد أن كانوا قد وصلوا الى حالة سيئة للغاية وخاصة بعد أن سقط حصن «اثينا» عقب «مسوانجبى»، فدبت فى نفوس الثوار روح جديدة ورحبوا بالمعاهدة حال عرضها عليهم. أما الباب العالى فانه بأيعاز من النمسا توقف وامتنع عن الاعتراف بالمعاهدة فهدد باستعمال القوة ولكن لم يجد ذلك نفعا وفات الوقت من غير رد أو تساهل من قبل الباب العالى. فوقف الاسطول المتحد أمام ميناء «نوارين» واتفق مبدئيا على ان تبقى الحالة كما هى حتى تصدر أوامر جديدة. ولكن حصل سوء تفاهم بين الاسطولين وكانت تعليمات أمير البحر «كودرنجتن» تقضى باستعمال القوة اذا دعت الحالة فدارت واقعة نوارين (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧) وقضى على الجزء الاعظم من الاسطول العثمانى المصرى. فتشجع الثوار وأخذوا يستردون مكانتهم.

أما خبر «نوارين» فى تركيا فقد أتى بعكس المطلوب منه، فان الباب العالى استشاط غضباً عند سماعه بالكارثة وطلب تعويضا كبيرا من الدول الثلاث. ودعا السلطان اجتماعا عاما من كبار الامة وقرأ عليهم منشوراً

نسب اليه للروسيا خاصة التحريض والمؤامرة ضد الباب العالى ودعا
المسلمين الى قتال الروسيا عدوة تركيا ومسببة محنها ، فلم يسع القيصر الا
اعلان الحرب فى سنة ١٨٢٨ . أما فى انجلترا فقد حدث تغيير فى سياستها
بسبب موت « كاننج » فى أغسطس سنة ١٨٢٧ وهو صاحب سياسة الهجوم
وجاء بعده « ولنجتون » وهو من المحافظين الذين من سياستهم الحرص على
بقاء كيان تركيا . لذلك لم تواصل الحكومة الانجليزية سياسة « كاننج » فتسعى
فى تنفيذ معاهدة لندره سنة ١٨٢٧ ، بل أبدى الملك « وليم الرابع » رسميا فى
خطبة العرش (يناير سنة ١٨٢٨) أسفه على ما حصل فى واقعة « نوارين »
مشيراً الى هذه الحادثة بقوله « الحادث النحس » لذلك قصرت انجلترا
مساعدتها فى المسألة اليونانية على أن تكون ادبية فقط . أما فرنسا فأرسلت
جيشاً بقيادة المارشال « ميزون » لمراقبة اخلاء « المورة » من الجيوش المصرية

أثر الواقعة

أما محمد على فقد كسب لنفسه مركزا بين الدول لم يكن ليحلم به اذ
اضطرت الدول الى مفاوضته مباشرة ولا بد أن تكون الدول قد دهشت
لما رأته من استعداد وموارد الباشا ، ولما رأى محمد على من الدول رغبة فى
مصادقته رأى أن أصراره على المقاومة وانما كان يؤدى الى تعرض مركز مصر
واستهدافه للخطر من اجل السلطان ليس من السياسة فى شىء . لذلك لما
دخلت الجنود الفرنسية المورة بقيادة « ميزون » فى أغسطس سنة ١٨٢٨
لم يقع بين الجانبين نضال أو كفاح وتم الاخلاء بسلام !

خطة محمد على بعد الواقعة

وكانت المفاوضات فى غضون ذلك جارية بين محمد على وقائد البحر
الانجليزى ويتضح منها جليا مقدار تحسن مركز محمد على الدولى . فقد
كتبت اليه الحكومة الانجليزية تبدى غضبها [illegible] مطول

تحسين مركز مصر الدولى

المصرى من الخسارة بسبب واقعة « نوارين » وتبدى رغبتها فى أن تكون علاقاتها دائما ودية مع الباشا . ثم أفضت اليه الحكومة بان الاخبار الواردة حديثا تدل على ان الباب العالى قد يستمر فى مقاومة الحلفاء الى درجة الدخول فى حرب علنية ، فاذا دخلت انجلترا فى حرب ضد تركيا فان حكومة انجلترا تعتبر مركز محمد على كما يأتى :

« ان جلالة الملك ، من غير تدخل منه فى العلاقات بين الباشا والسلطان الذى يعترف له الباشا بحق السيادة ، مستعد للاعتراف لسموه بالحيدة التامة متى تعهد هو أيضا بمراعاتها مراعاة تامة اذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة »[1]

لذلك لم يتردد محمد على ساعة واحدة ووقع على اتفاق الاسكندرية ٦ أغسطس سنة ١٨٢٨[2] وأرسل يأمر ابراهيم بالجلاء عن « الموره » من غير انتظار لأمر السلطان فتم ذلك وفى ٢٩ ديسمبر وصل محرم بك الى الاسكندرية ومعه باقى الاسطول وهو ٣٨ قطعة و٢٤٠٠٠ جندى ، وأصبح

---

(١) سجلات وزارة الخارجية بلندن (مصر) من وزارة الخارجية الى « سولت » فى ٧ ديسمبر سنة ١٨٢٧

(٢) وهاك ملخص نص الاتفاق الذى تم بين أمير البحر كدرنجتن ومحمد على

(١) يتعهد محمد على برد جميع الرقيق اليونانى الذى أرسله جنوده الى ممتلكاته بعد واقعة « نوارين » وقبلها

(٢) يتعهد امير البحر كدرنجتون بارجاع الاسرى المصريين وبرد سفينتين مصريتين فى مياه « مودن »

(٣) تخلى الجنود المصرية بلاد المورة على سفن مصرية يرسلها محمد [illegible] ويحرسها الحلفاء

وهذا الاتفاق غريب [illegible] تابع للسلطان باعتباره دولة مستقلة وشروط الاتفاق تخالف كل المخالفة رغبة صاحب السيادة

محمد على فى حالة سلم مع دول أوربا وترك الباب العالى وحده أمام روسيا

وكان القيصر قد أعلن الحرب على تركيا فى ابريل سنة ١٨٢٨ ولم تكن تركيا على استعداد تام بسبب تغيير نظام الجندية ، ومع ذلك قد انتصر الاتراك سنة ١٨٢٨ على قيصر الروسيا امام حصون « شملا » و « سلستريا » على نهر الدانوب ولكن عاد القيصر فعين الجنرال « ديبتش » الذى تمكن من اختراق البلقان بقوة صغيرة فدخل « أدرنه » ولم يكن معه الا ١٥٠٠٠ جندى . فلو ان السلطان واجهه بجيش ايا كان عدده لدارت الدائرة على الروس بلا مراء . ولكن اضطربت أعصاب وزراء الباب العالى لما علموا باقتراب الجنود الروسية فلم يشاءوا الا الصلح . وعجلت روسيا بعقد « معاهدة أدرنه » سنة ١٨٢٩ وبها وافق السلطان على قرار معاهدة لندره بشأن اليونان . وأصبح النفوذ الروسى عظيما فى مجالس الباب العالى . قال الوزير الروسى « نسلرود » قد كان يمكن الروسيا [illegible] على الدولة العثمانية ولكن بقاء هذه الدولة تحت حماية الروسيا أنفع [illegible] سياسيا وتجاريا من ضم هذه الاملاك أو تجزئتها واستبدالها بحكومات متفرقة [illegible] تمضى عليها زمن طويل حتى تنافس [illegible] فى الثروة و[illegible] [1]

الحرب الروسية التركية سنة ١٨٢٨

هذا يفسر عدم انتصار الروسيا لمطالب [illegible] الكاملة فى الاستقلال لبلاد البلقان تحت نفوذها وخشيت دول [illegible] نفوذ روسيا فى اليونان بعد معاهدة أدرنه وكان [illegible] وزير [illegible] اليونانى أسبق رئيس للحكومة اليونانية المؤقتة فسعت انجلترا وفرنسا [illegible] الباب العالى فى أن تستقل اليونان استقلالا تاما وتم ذلك فى سنة ١٨٣٠ [illegible] لثلاث

(١) راجع [illegible] المسألة الشرقية لدريول ص ٨ ١

ويلاحظ أن محمد على لم يتقدم لمساعدة السلطان فى هذه الحرب على الرغم من إلحاح الباب العالى عليه بأرسال جزء من جيشه . غير أن محمد على لم يسعه إزاء هذا الطلب إلا أن ماطل واعتذر ببعد المسافة بطريق البر بين مصر وميدان الحرب لعدم وجود اسطول لنقل جنوده أولا ولوقوف أساطيل الحلفاء بالمرصاد . ثم اعتذر بتفشى الوباء فى مصر وفى الشام ، وأخيراً اكتفى بأرسال مليون ريال للباب العالى . ولم توقع الدول على محمد على قوانين الحصر فظلت موانيه مفتوحة وتجارته سائرة كالمعتاد . ولم تضطهد الأروام فى مصر كما حصل فى جميع إنحاء الدولة فى ذلك الوقت.

امتناع محمد على عن مساعدة السلطان

أما شدة ابراهيم فى «المورة» فيظهر أن كتاب الأفرنج قد غالوا فيها مغالاة تتفق مع عواطفهم نحو اليونانيين ، والحقيقة أن ابراهيم عامل اليونانيين على حسب الأجراءات الحربية التى كانت تتخذها أية دولة متمدينة فى ذات الوقت . واتهمته أوربا كذلك بارسال أهل اليونان كرقيق إلى مصر ولكن ذلك غير صحيح فقد كتب ممثل انجلترا العام إلى وزارة الخارجية فى هذا الموضوع يقول « ان الرقيق اليونانى الذى أرسل إلى مصر لم يكن أرسله ابراهيم باشا ولا دخل له مطلقاً فى وجود هذا الرقيق بمصر . إذ القانون العسكري العثمانى يجعل الأسير عبداً لآسره لا للقائد العام، فيظهر أن عدداً عظيما قد باعته الجنود المصرية إلى أناس أرسلوه إلى مصر ليباع فيها ويبلغ عدد الرقيق اليونانى بمصر ٣٠٠٠ وقد اشترت الجمعية الأغريقية المسيحية نصفهم والباشا يجتهد فى تحرير عدد عظيم من الباقين »[1]

الرقيق اليونانى وشدة ابراهيم

---

(١) مراسلات وزارة الخارجية الانجليزية (مصر) من «سولت» الى وزارة الخارجية فى ١ اغسطس سنة ١٨٢٦

الفصل السادس

بين الباشا والسلطان

أثر انفصال أملاك الدولة

إن تجزؤ الدولة العثمانية بهذه الطريقة وانفصال أملاكها عنها لم يكن بالشيء الغريب إذ ليس من المدهش أن تتساقط الحجارة من البناء المتداعى المنهار، لذلك يمكننا أن نقول ان انفصال العرب وأمارات الدانوب، واليونان عاجلا أو آجلا كان عملا طبيعيا لم يكن منه مناص لأنه لم يكن إلا نتيجة لحركات داخلية قام بها أهل هذه الأقسام أنفسهم يحركهم الشعور القومى أولا والتحريض الأجنبي ثانيا، وليس هناك معنى فى أن تبقى الأقوام تحت سيطرة من لا قدرة له على المحافظة عليها.

غير أن الدول بمساعدتها هذه الأقسام على الانفصال من جسم الدولة سواء كان ذلك بالتحريض أو بالمساعدة الفعلية فقد خرجت مركزها أيما خروج ويظهر أن حب الدول « لكلفت » الثورة والبادئين على العصيان قد أنساها أهل الشرق وولاته ونسوا أنهم بإذلالهم السلطان وبشدة أزر الثائرين عليه قد وضعوا مثلا جديدا يحتذيه غيرهم من رعايا السلطان ولعلهم تخيلوا أن أهل الشرق دون أهل الغرب تفكيرا وشعورا وتعاموا فى ذلك عن الحقيقة الظاهرة وهى أن رعايا السلطان مسلمين كانوا أو مسيحيين شرقيين أو غربيين كان نصيبهم من ظلم الولاة وعسفهم واحداً متماثلا.

نسيت الدول أنه اذا جرت على قاعدة وطبقتها على مسألة أو أكثر

كان حقاً عليها وعدلا أن تطبق القاعدة فى الأحوال المماثلة التى قد تنشب في الدولة فى المستقبل ، وانه إذا لم تتبع القاعدة الأولى يكون جزاؤها الازدراء وعدم الاكتراث .

لم يرغم الدول على العدول عن خطتها العدائية ضد السلطان إلا محمد على ، فهو الذى أجبر الدول على أن تردد النظرية القديمة القائلة بحفظ كيان الدولة العثمانية . ولم يكن محمد على أول من قام يعارض الباب العالى عقب الثورة اليونانية فقد سبقه على باشا حاكم « يانية » فى أول عهد الثورة وتمرد ولاة « بغداد » و « عكا » و « شقدرة » ولكن لم يكن فى قدرة واحد من هؤلاء أن يجرد السيف طويلا ضد السلطان . محمد على هو وحده الذى قدر له أن يضرب قلب الدولة ويرغم السلطان على الاتفاق معه على حسب شروطه الخاصة . كل ذلك على مرأى من الدول وضد رغباتها الأكيدة .

حذر محمد على

ولما انتهى محمد على من حروبه فى بلاد العرب والسودان والمورة ظافراً كان اسمه قد طبق الآفاق وصار ذكر منجد مكة والمدينة على لسان كل المسلمين وأصبح محمد على فى مركز يمكنه من معارضة السلطان إذا شاء ذلك . ولكن محمد على كان له من النظر السياسى الصائب ما جعله يحافظ على علاقته بالدولة العثمانية . ألم يكن له من ذلك ضمان صيانة أملاكه التى لم تكن إلا جزءاً من الدولة العثمانية المقول بضرورة حفظ كيانها واستقلالها ؟ ولقد وجد محمد على من مركزه فى الدولة حصنا منيعا مكنه من مواصلة سياسته التى كانت أبداً ترمى إلى علو منزلته وامتداد نفوذه فى الدولة تحت ثوب إخلاصه الشفاف

ولما انتهت الحرب اليونانية وانسحبت الجنود المصرية من « المورة »

وتمكنت أوربا من تنفيذ كلمتها فى مصالحة اليونان ساء السلطان من محمد على عدم مساعدته للدولة فى حربها ضد الدول واكتفاؤه عند نشوب الحرب الروسية التركية بأرسال إعانة مالية بدل حملة عسكرية . لذلك اشتد حنق السلطان على محمد على واضطرمت فى صدره نيران الحسد لما ظهر به محمد على من القوة . وأخذ يوقع بين محمد على وإبنه ابراهيم ولم يكافىء محمد على على خدماته بشىء مما وعد به إلا حكم جزيرة «كريد». كل ذلك أوغر صدر محمد على ضد الباب العالى وجعله يفكر فى مشروعات كلها طمع وأنانية .

مراجعة محمد على لخطته

وأخذ محمد على يراجع خطته السياسية نحو الباب العالى، وبينما كان الباب العالى يواصل الحرب ضد الروسيا كان محمد على يعد العدة لأجل ما عسى أن يحصل فى المستقبل ،فلما عادت الحملة من المورة واستقرت الجنود بمصر شرع ابراهيم باشا يهيىء عقول الضباط لاستقبال السياسة الجديدة ضد الباب العالى . فقد قال فى خطبة له أثناء وليمة للضباط :

«ماذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان ؟ ألسنا فى الحقيقة كلنا أولاد محمد على الذى ربانا وعلمنا ، ألم نأكل جميعاً من خبزه ؟ إن مصر حق لمحمد على حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكاً غيره»[1] . وفى تلك الأيام زار الأمير بشير حاكم لبنان ونزل ضيفاً مكرماً عند الباشا ولا بد أن يكون قد دار بين الاثنين اتفاقات ودية،ويظهر أن محمد على كان يتأهب للتحفز إذا حدث ما يبرر هذا العمل .

خلق السلطان محمود الثانى

أما لدى الباب العالى فلم تكن دلائل الشقاق والاستبداد أقل منها

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر ، رسائل قنصل انجلترا) عدد ٨ يناير سنة ١٨٣٢.

عند الباشا . وقد ساعد على اذكاء نار الخلاف ما كان فى خلق السلطان محمود الثانى من الشذوذ . فقد كان محمود الثانى سلطاناً مستبداً سريع الانفعال تارة شديد البطش وأخرى شديد الكآبة والحزن . يقابل تذبذبه بين القسوة واللين عناد شديد يتولاه فى ظروف معينة . وكان يعهد بحكومته إلى اتباعه الذين يشملهم بأحسانه فكان يولى ويعزل ويسجن كما شاءت تقلبات أهوائه . ومع ذلك كان محمود الثانى حقيقة سلطاناً قوياً يريد لأمته كل خير وصلاح، ولكن لسوء حظه لم يسلك الطرق المناسبة التى توصله إلى أغراضه إذ اتبع طرقاً قهرية همجية خالية مما يحبذها ويقربها لدى الشعب . لذلك لم يصادف محمود الثانى فى اكثر اصلاحاته إلا المعارضة الشديدة والاخفاق، فكان محمود الثانى يتأكل قلبه حسداً من محمد على لأن هذا نجح حيث أخفق هو . ومن شدة حسده لمحمد على أن دعاه لحرب الوهابيين ثم لحرب المورة لعله بذلك يفنى جزءاً كبيراً من قوته وثروته، ولكن للدهر سخرية غريبة فبدل الضعف الذى كان يرجوه السلطان لمحمد على من جراء الحروب الطاحنة التى اشتبكت فيها ناله منها الفخار والصيت الذائع ولم يجن السلطان منها إلا الخسارة والذلة .

محمد على ووالى عكا

لذلك اصبح محمود الثانى وقلبه مفعم بالضغينة يحب الانتقام من محمد على . فلما شكا عبد الله باشا والى عكا إلى السلطان من تهديد محمد على له بسبب عدم إذعانه لأوامر الباشا إذ رفض أن يصدر اليه الأخشاب اللازمة لأسطوله وأن يعيد اليه بعض الفارين من القرعة العسكرية والضرائب، عضد السلطان الوالى وشجعه على معارضة رغبات الباشا فعزم محمد على على أن يتخذ من هذا التحرش سبباً لتنفيذ مشروعه . اراد

محمد على كغيره من كبار الفاتحين أن يوسع رقعة ملكه على حساب جيرانه الضعفاء، وكان يرى فى بلاد سوريا جزءا متمماً لمصر وبدونه لا أمن لمصر من غائلة العدو المهاجم من الشرق، ورأى الباشا ان مصر بلد عديمة الغابات تلزمها الاخشاب من أحراش سوريا لبناء اسطولها التجارى الحربى

فكرة ضم الشام لمصر

وكان قد افهمه مستشاروه من الفرنسيين . وهم الاخصائيون فى مسائل الحدود ، ان حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق هى جبال « طوروس » على أبواب آسيا الصغرى لا صحراء العرب . وفى الحقيقة لم تعدم الحكومات القوية التى استولت على مصر طريقة لضم الشام إلى أملاكها . وليس هناك أدنى شك فى أن محمد على كان مقتنعاً بصحة دعاوى القائلين بضم جميع بلاد سوريا ، غير أنه كان فى بادىء الأمر متواضعا فى طلبه فلم يصمم إلا على ولاية عكاء [1]

وانتهز الباشا فرصة اشتباك السلطان فى ثورة قامت فى « البوسنة » فقدم إنذاراً نهائيا للباب العالى يهدد فيه عبدالله والى « عكاء » بالعقاب وباستعمال القوة ضده إذا لم يذعن لطلباته، وخاف السلطان مغبة هذا الانذار بسبب قيام الثورات الداخلية فى بلاده ففتح بابا للاتفاق مع محمد على ،ولكن ما كاد يرسل الباب العالى رسله اليه حتى بلغته أخبار نزول حملة ابراهيم باشا إلى الشام وكانت قد أخمدت الثورة فى « البوسنة » فلم يجد الباب العالى بأسا من تحدى محمد على ومنازلته .

قيام الحملة الشامية

وفى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٣١ قامت طلائع الحملة من مصر بطريق العريش ، وفى ٨ نوفمبر احتل الأسطول وعلى رأسه القائد العام ابراهيم

---

(١) راجع مقدمة كتاب « نظرة عامة فى مصر » لكلوت بك .

باشاميناء «يافا» ، وفى ٩ ديسمبر بدىء حصر « عكاء » وفى هذه الأثناء كان قد وصل مندوب من قبل السلطان إلى الاسكندرية وهناك أوضح له محمد على خطته بكل صراحة . قال محمد على : « بعد أيام قلائل ستقع « عكا » فى يدى فأذا رضى السلطان وقفت عند هذا وإذا لم يوافق زحفت جنودى على « دمشق » فأذا وافق السلطان على أن أضم دمشق وقفت عند ذلك وإن لم يرض أخذت « حلب » فاذا لم يوافق السلطان فن يدرى ماذا يكون ؟ فعرف المندوب اصرار محمد على وفهم استعداده لتنفيذ أغراضه للنهاية فنصح للباب العالى بالاذعان لطلب محمد على وكان جزاء صراحته أن سحب من اسكندرية وسجن . وأخذ السلطان يعد جيوشه بكل همة لمزاولة حرب لم يكن لها على إستعداد

سقوط عكا وسير الحملة

ولكن قبل أن يتأهب الجيش التركى للعمل بقيادة حسين باشا الذى عينه السلطان قائداً للجيش وواليا على مصر بدل محمد على ، كان قد سقط حصن عكاء فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ فى أيدى المصريين بعد حصار طال ستة شهور تقريبا . وإذا ذكرنا أن نابليون تقهقر أمام حصن عكا فهمنا أهمية هذا الانتصار لابراهيم باشا . ولكن يجب أن نذكر أيضاً أنه لم يكن هناك أسطول معاد يعمل ضد ابراهيم فى ميناء « عكاء » كما كان يعمل « سدنى سمث » ضد نابليون

وكان لسقوط عكا وانتصار محمد على دوى نبه العقول من غفوتها فقام الناس ضد العثمانيين مرحبين بالجيوش المصرية اينما حلت ، وتشجع الامير بشير فأعلن صراحة انضمام أهل الجبل لمحمد على وأتى الناس من كل فج يعلنون قبولهم للحكم المصرى . فبينما كان ابراهيم يحاصر « عكاء » كانت

قد استولت الجنود المصرية على «بيت المقدس» «وطرابلس» «وبيروت» ولما سقطت «عكاء» أرسل محمد على مندوبا للمفاوضة مع الباب العالى بشأن شروط الصلح طالباً فرمانا بتوليته « سوريا »

خطة السلطان وانهزام جيوشه

وكان السلطان فى ذلك الوقت قد أرسل قراراً بعزل محمد على وابنه من ولايتهما وقراراً آخر بطردهما خارج القانون ، فلما علم محمد على بذلك أرسل من قبله والياً على «دمشق» ودخلها ابراهيم باشا بلا مقاومة ثم اقترب من «حمص» وهزم الأتراك شر هزيمة ودخل «حماة» وتقهقرت جيوش جيوش السلطان إلى «انطاكيه». ولما اقترب حسين باشا القائد العام من حلب أوصدت فى وجهه الأبواب ورحل عنها إلى «اسكندرونه» فدخل ابراهيم باشا «حلب» فى ١٥ يوليه بدون مقاومة وتقابل هو وجيوش حسين باشا فى مضيق «بيلان» بين انطاكيه واسكندرونه فانهزم حسين باشا وترك جيوشه ومؤنته وكل شئ وفر إلى « أطنه » أما ابراهيم فدخل انطاكيه فى أول اغسطس ثم فتح محمد على باب المفاوضة للصلح ولما لم يصله الرد عزم على أن يسير نحو القسطنطينية بعد أن يتمكن ابراهيم من الاستيلاء على مفاتيح جبال الضوروس التى تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى .(١)

انحياز الرأى العام لابراهيم

ويظهر انه كان فى نية محمد على الأولى أن يقف عند هذا الحد، ولكن لما تكرر رفض السلطان لشروط محمد على التى كان يقدمها عقب كل انتصار اضطر ابراهيم إلى أن يعبر الجبال وينزل فى سهول آسيا الصغرى واحتلت الجنود المصرية أقاليم أطنه على الساحل بناء على أوامر محمد على .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) المعتمد باركر الى بالمرستون ٨ يونيه سنة ١٨٣٢



ابراهيم باشا

ولما شعر القوم بوجود قوات محمد على بينهم انبعثت فى قلوبهم الحماسة العظيمة وانهالت على ابراهيم رسائل الترحيب وطلبات التخليص من نير الأتراك . فكتب سكان أقليم « قسطمونى » الكائن فى الركن الشمالى لآسيا الصغرى يقولون : « نحن سكان هذا القسم قد قررنا أن نهجر حزب الحكومة التركية التى عجزت عن صيانتنا والدفاع عنا، ولما كنا نرغب فى أن نتمتع بالسعادة والسكون الشاملين الأقسام التى خلعت نير الحكومة ودخلت تحت حكمكم فنلتمس أن تقبلوا خضوعنا وأن تشملونا بحمايتكم ورعايتكم » .

الاستعداد لمواقعة « قونية »

فتشجع ابراهيم باشا بهذا الشعور الذى ظهر من جانب الأهالى وتقدم إلى الداخل واحتل موقعا حربيا فى غاية من المنعة عند « قونيه » وكان قد هجرها الأتراك عند سماعهم بقدوم ابراهيم باشا فقضى ابراهيم فصل الشتاء ومرّن جنوده فى الجهات المجاورة استعداداً لمقابلة الجيش العثمانى الجديد بقيادة رشيد باشا زميل ابراهيم فى حصار « مسولنجى » فى حرب المورة .

وكان رشيد باشا قد أخضع العصاة فى ألبانيا والبوسنه فكسب بذلك رضا السلطان الذى علق على تعيينه للقيادة أهمية عظمى . وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ دارت رحى القتال عند « قونيه » وهزم الجيش العثمانى شر هزيمة وأسر القائد العام . وقد كانت خطته فى أول الأمر أن يتحصن فى نقطة منيعة ليحول دون وصول ابراهيم باشا قرب القسطنطينية وعند هذه النقطة ينتظر المهاجم . ولكن السلطان أرسل اليه أوامره بالتحرك لمقابلة المصريين ، وكان عدد الجيش العثمانى ضعف عدد الجيش المصرى

فكانت النتيجة وبالا على الجيش والسلطان إذ أصبح الباب العالى لا حول له ولا قوة أمام محمد على

المسألة لشرقية والدول

كان أثر انتصارات ابراهيم باشا السريعة المتوالية أن أثارت مخاوف السلطان محمود، ولما لم يكن هناك ولاة يرجى منهم المساعدة ضد محمد على اجتهد السلطان بمساعى وزيره خسرو باشا أن يكسب دول أوربا إلى جانبه، وذلك بأن يشوه سمعة محمد على لدى الدول . ولم تكن دول أوربا تعلم عن محمد على إلا قليلا ، ولو ان ساسة أوربا لم تنس حماسة المصريين وهم يحاربون فى المورة . أما «بالمرستون» وزير خارجية انجلترا لم ينس قط ان المصريين أخذوا معهم إلى مصر ٣٠٠٠ يونانية بصفة أسرى .

غير أن الدول مع شدة رغبتها فى حفظ كيان الدوله العلية ومساعدة السلطان لم تكن وقتئذ متفرغة للنظر فى مشاكل الدوله ، فكانت مسالة ثورة الأراضى المنخفضة وثورة بولندة وحروب أسبانيا الداخلية والاصلاحات النيابية فى انجلترا تشغل بال ساسة أوربا

السعى فى عقد معاهدة بين تركيا وانجلترا

وكان الباب العالى قد طلب إلى سفير انجلترا السير «ستراتفورد كاننج» عقد محالفة بين تركيا وبريطانيا العظمى الغرض المباشر منها اخضاع محمد على ووعد الباب العالى أن يمنح انجلترا أى امتيازات معقولة مقابل ذلك»[1] وأردف الباب العالى ذلك بأن أرسل سفيره فى لندن ليفاوض انجلترا

(١) سجلات وزارة الخارجية . تركيا (سرى وخاص) من السير استراتفورد كاننج فى ٩ أغسطس سنة ١٨٣٢

خاصة فى ارسال مدد بحرى تقوم تركيا بنفقاته . ولو كانت انجلترا أجابت الطلب لحال المدد البحرى دون استيلاء ابراهيم باشا على « عكا » بسهولة ولعرقل مساعى محمد على بالشام، غير أن الوزارة البريطانية قررت رفض إرسال المدد مخالفة فى ذلك رغبة الوزير « بالمرستون »، واضطرت الوزارة أن تعلن فيما بعد فى مجلس العموم أنه لم يكن من المستطاع فى حين اشتغال القوات الانجليزية فى هولنده والبرتغال إرسال قوة بحرية تناسب مركز بريطانيا البحرى [1]

ورد الوكيل السياسى لدولة بريطانيا أمام الأستانة قائلا « ان المسألة أصعب مما يتصوره الباب العالى وان الحكومة البريطانية ستحتاج إلى وقت تجيب فيه ولكنها فى الوقت نفسه سترسل إلى محمد على فى أقرب فرصة معبرة عن الأسف الذى سببته خطته وعن أملها فى أن يعقد الصلح مع السلطان مباشرة . وان الحكومة أرسلت معتمداً سياسياً « كولونيل كامبل » لأجل التشديد على محمد على بعقد الصلح وتفهيمه بأن العبث بوحدة الدولة العثمانية لا يمكن أن يحدث بدون أن تتحرك انجلترا [2]

طلب المساعدة من روسيا

فقت فى ساعد السلطان وزاد يأسه لما علم بتهديد ابراهيم للقسطنطينية فاضطر أخيراً إلى أن يتنزل فيرسل فى طلب الصلح من محمد على، ولم يلبث الأمر أن وقف عند ذلك بل طلب المعونة من الروس بعد أن أخفقت مساعى السفير العثمانى لدى انجلترا التى زودته بالقول دون العمل .

أما الروسيا فوجدت فى المحنة التى وقع فيها السلطان فرصة لتأييد

---

(١) « حياة بالمرستون » الجزء الثانى ص ٣٥٨

(٢) سجلات وزارة الخارجية [illegible]

نفوذها ووضع حمايتها الأدبية على البوغازات ، كذلك لم يكن من مصلحة الروسيا أن ينتصر محمد على ويتفوق على السلطان فتنشأ حينئذ حكومة قوية في القسطنطينية تحول دون بلوغ الروسيا الأمانيها ، فقد كتب « نسلرود » وزير الروسيا الى سفيره فى الأستانة يقول : « انه اذا انتصر محمد على فان النفوذ الفرنسى يزداد فى القسطنطينية فتصبح هذه المدينة مأوى للذين يتآمرون ضد حكومة الروسيا . لذلك ترى الروسيا فى محمد على جاراً قويا منتصراً بدلا من جار ضعيف مقهور »[1]

حضور المندوب الروسى

وعلى ذلك أوفدت إلى القسطنطينية فى ٢٢ ديسمبر مندوبا خاصا وهو القائد « موراڤيف » فعرض على الباب العالى المساعدة الفعلية ضد محمد على وفى ١١ يناير وصل المندوب إلى الاسكندرية يهدد محمد على باسم القيصر نيقولا بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا لم يقبل شروط الصلح المقدمة له من لدن السلطان بوساطة المندوب خليل باشا الذى أوفده السلطان فى ٧ يناير لمفاوضة الباشا . فوجل محمد على من تدخل الروسيا ، ويقول « سنت جون » وهو شاهد عيان أن الباشا تأثر وجمع ٥٠٠٠ من المصريين لحضور صلاة جامعة امام قصره داعين الله بنصر الباشا ورجوع جنوده ظافرين سالمين[2]

وقوف ابراهيم عند « كوتاهية »

غير أن محمد على كان على علم تام بمجرى السياسة فى أوربا فلم يتزعزع أمام تهديد الروسيا . ولما عرض خليل باشا شروط الصلح رفضها باحترام وأدب ، ولكن لكى يرضى الروسيا أرسل إلى ابراهيم يأمره بالوقوف

---

(١) « البسفور والدردنيل » لغريانوف ص ٣٠

(٢) « مصر ومحمد على » لسنت جون الجزء الثانى ص ٥٢٤

وهو فى طريقه إلى « بروسة » فوقف عند « كوتاهية » بعد أن رفض أن يقف بناء على رغبة « دى فارن » المعتمد السياسى لفرنسا بالقسطنطينية قائلا انه لا يقف ولا يتحرك إلا على حسب أوامر ورغبات أبيه . وعندئذ كان السلطان قد طلب إلى الروسيا إرسال المدد خوفا على عرشه أن يسقط من جراء الفتن الداخلية التى كان يؤجج نارها محمد على باشا فلبت الروسيا طلبه . وفى ٢٠ فبراير رست القوة البحرية الروسيــة فى البسفور أمام « ترابيا » حيث دار السفارة الانجليزية ، فاشتد قلق انجلترا وفرنسا من تدخل الروسيا الفعلى وانفرادها بالعمل ، وسارع سفير فرنسا الجديد أمير البحر البارون « روسين » الى الاحتجاج امام الباب العالى ونصح لوزير الخارجية بأن يجيب طلبات محمد على فى الحال حتى لا يعرض المملكة للخطر الذى لا بد أن ينجم من وجود الجنود الروسية بين الاهالى .

نزول المدد الروسى بالبسفور

خطة الدول

كانت الدول فى هذه الآونة ترقب الاحوال وهى صامتة أثناء عراك محمد على والسلطان فلم تتحرك قيد أنملة لايقاف الحرب ، ولكن لما كسب محمد على الواقعة بدأت الدول تتململ حتى اذا ما ظهرت الروسيا بمفردها فى الميدان أوجس باقى الدول خيفة وبدأ الساسة يتكلمون . وانه من السهل تلخيص سياسة الدول إزاء المسألة الشرقية .

كانت الدول تعتبر المحافظة على كيان الدولة ضرورة سياسية لازمة لتأييد السلم العام فى أوربا ولما كان تهديد ابراهيم للقسطنطينية يعد عبثا بكيان الدولة وجب على الدول التدخل . ولكن حال دون ذلك موانع : أولها اشتغالها باحوالها الداخلية كما ذكرنا أولا وثانيها انتصارات محمد على السريعة التى لم تكن فى الحسبان وثالثها أن الدول كانت تميل الى جعل النزاع بين

محمد على والسلطان مسألة داخلية لا ينبغى أن تعقدها الدول بتدخلها

غير أن رسالة القائد « موارفيف » وقبول السلطان لمساعدة الروسيا أثارا الشكوك فى قلوب الدول الأخرى، حتى « مترنخ » نفسه على الرغم من تفاهم القيصر معه لم يوافق على وجود الأسطول الروسى بالبسفور. أما انجلترا وفرنسا اللتان كانتا فى حالة اتفاق وود فانهما نظرا إلى الحالة السياسية بعين الاهتمام العظيم وكانت سياسة انجلترا ترمى إلى التمسك بالمحافظة على الدولة العثمانية، أما فرنسا فكانت لها سياسة مزدوجة ترمى إلى نصرة الدولة العثمانية من جهة وإلى تقوية حكومة مصر الناهضة من جهة أخرى. غير أنه بسبب تدخل الروسيا بمفردها فى المسألة انضمت انجلترا إلى جانب فرنسا نصيرة محمد على وأصبح لفرنسا الشأن الاول أمام « الرئيس افندى » وزير الخارجية العثمانية ولعب « دى فارن » وأمير البحر « البارون روسين » دوراً هاما فى المخابرات التى جرت بين الباب العالى من جهة ومحمد على وابراهيم من جهة أخرى.

ارسال معتمدين سياسيين لمحمد على

أما انجلترا فانها سارت وفق فرنسا فى جميع ادوار هذه المسألة وزادت بأن أرسلت سفيراً ممتازاً أمام الباب العالى وهو اللورد « بنسنبى » ولما رأت ما وصل اليه اسم محمد على وحكومته من الصيت بادرت فارسلت الى مصر معتمداً سياسيا فى شخص الكولونيل « كامبل » ليؤكد لمحمد على ما يشعر به جلالة الملك نحو سموه من الاحترام والاعتبار الشخصى ويساعد فى توثيق الروابط الودية التى تربط البلدين كذلك أرسل « مترنخ » الكولونيل « بروكش فن استن » ليعبر عن اعجاب الامبراطور بتفوق عبقرية

محمد على ويقوى العلاقات التجارية والودية بين البلدين »[1]

ويظهر أن الباب العالى بتسويده صحيفة اخلاق الباشا أمام الدول ومداومة الشكوى من نمو قوته قد قدم لمحمد على أجل خدمة اذ بذلك جذب عقول الدول نحو محمد على رمز القوة الناهضة الزاحفة، والقوة فى عرف الدول مستودع جميع الفضائل

وبينما كان محمد على يستقبل الوفود ومعتمدى الدول ومندوبيها الذين ساقهم حب الاستطلاع إلى مصر حيث الرجل العصامى العبقرى الذى كاد يقيم فى الشرق ما رسمه نابليون فى مخيلته سنة ١٧٩٨، كانت المفاوضات تدور بنوع من القلق والشدة بين الباب العالى وسفراء الدول بشأن الشروط التى يجب التسليم بها حتى تزول أشد أزمة وقع فيها السلطان، وكان «البارون روسين» المعين حديثاً سفيرا لفرنسا لدى الباب العالى قطب هذه المفاوضات من يوم نزوله بالسفارة

البارون روسين سفير فرنسا

وكان البارون روسين رجلا مستقل الرأى صريحاً معجباً بنفسه ومقدرته ولكن لقلة تدريبه فى اعمال السياسة كانت تعوزه الحنكة السياسية والنظر الصحيح، وكانت فكرته الاساسية فى المسألة الشرقية محاربة مطامع الروسيا فى القسطنطينية فى كل وقت. ولذلك كان ظهور القوة الروسية أمام البسفور فى نظر «روسين» بمثابة اعلان للحرب على فرنسا، فكان من المحتم عليه مع مؤازرة انجلترا له ازالة كل ما يمكن حدوثه من النتائج السيئة من جراء وجود الأسطول الروسى . غير أنه فى بدء عمله تسرع ولم يسدد خطاه فبدأ بأن تسهد لدى الحكومة العثمانية بأن يتقبل محمد على شروط الصلح

(١) « مصر ومحمد على » لمات جرن ص ٥٣٢

التى قدمها الباب العالى بوساطة خليل باشا التى بمقتضاها نزل السلطان لمحمد على عن أربعة أقسام فى سوريا وهى صيدا وطرابلس ونابلس وبيت المقدس . وفى مقابل هذا يتعهد الباب العالى برفض المساعدات الأجنبية(١) وأتبع ذلك بأن كتب إلى محمد على تحريرا لتعهده كتابا جافا هو بمثابة تهديد بالحرب قال فيه :

«إن إصرارك على طلباتك وادعاءاتك التى أعلنتها ستجر على رأسك عواقب وخيمة أرجو أن يردعك الخوف منها . إن فرنسا ستتمسك بالتعهدات التى ابرمتها وان لها القوة وأنا ضمين صدق إرادتها . وانى لأرجو أنك لا تضطرنا إلى الالتجاء إلى الضرورة القاسية باستعمال القوة ضد مملكة نحن من مشيديها وضد عظمة وانتصار نحن من أخلص المعجبين بهما». وزيادة على ذلك فقد كلف بوره الحامل لكتابه بأن يهدد محمد على شفاهيا بأنه إذا رفض الشروط فان انجلترا وفرنسا تشتركان فى ضرب الاسكندرية، وهدأرسل كتابا بهذا المعنى إلى ابراهيم باشا. غير ان الحكومة المصرية قابلت الرسالتين بما يستحقانه من السخرية. فان محمد على قد صمم على أن يمد نفوذه إلى سوريا جميعها وإلى مينا «ادنه» فى اسيا الصغرى وكان عالما بأن له من القوة ما يمكنه من تنفيذ أغراضه فى أقاليم تحتلها جنوده . زد على ذلك أنه كان يعلم علم اليقين بأن اقترابه من القسطنطينية لابد ان يحدث حربا أوربية عامة . من أجل ذلك تذرع محمد على بالثبات وتمسك بمطالبه إلى النهاية أما عن رسالة البارون روسين فأن ممثل فرنسا باسكندرية ومسيو «ابواكمت» المندوب الخاص من قبل فرنسا قد خففا

تمسك محمد على بمطالبه

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) من مندفيل ٢١ فبراير سنة ١٨٣٣

من وطأتها [١] وكتب محمد على الى البارون يرفض شروط السلطان رفضا جميلا بقوله « اسمح لى ياسيدى السفير أن أسألك بأى حق تدعونى لأن أضحى نفسى . ان الشعب معى وما على الا أن ارفع اصبعى فأثير الثورات فى « الروملى و الاناضول » وما دام الشعب معى ففى مقدورى أن أعمل كل شىء . وان دعوتك لى بان أتخلى عن الاقاليم التى احتلها هى بمثابة الحكم على بالاعدام السياسى ، غير انى واثق أن فرنسا وانجلترا لا يبخلان على بالانصاف » وختم محمد على خطابه بعزمه على التمسك بمطالبه [٢]

مساعى الصلح

ولاجل أن يتبع القول بالعمل أرسل محمد على فصائل من الجند الى سوريا وأمر ابراهيم بالزحف على القسطنطينية اذا لم يقبل الباب العالى شروطه بعد مرور خمسة أيام من وصول خليل باشا الحامل لشروط محمد على وأمره بمواصلة الزحف حتى تجاب طلباته [٣]

فلما وصلت الاخبار الى القسطنطينية زاد رعب السلطان وكتب الباب العالى بطلب الى سفير روسيا الاسراع باحضار القسم الثانى من المدد الروسى ، فوقع الخبر على « روسين » وقعاً أليما أعاد اليه رشده السياسى فعرف حقيقة الحالة وأنه لا يمكن أن يغادر الروس البسفور بمجرد انسحابه من القسطنطينية أو بضرب سواحل الاسكندرية ، وعرف أنه اذا ما تم الصلح بين السلطان والباشا فان الروسيا لا يمكنها أن تبرر وجودها على سواحل البسفور وتضطر حينئذ الى الجلاء . لذلك عمد « روسين » ومعتمدو

---

(١) راجع مذكرات المسيو حيزوت الجزء الرابع ص ٤٦

(٢) « مذكرات جيرو » : الجزء الرابع ص ٤٦

(٣) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) رسالة نمرة ٦٠ فى ٧ مارس سنة ١٨٣٣

الدول السياسيون الى نصح الباب العالى باجابة طلبات محمد على . وبعد مفاوضات دارت بشان استئناف القتال،وجد الباب العالى أن لا فائدة البتة من حرب قد تجر معها الانهزام وخسارة كل شىء ، فقرروا أن يذهب المسيو « دى فارن » وكيل فرنسا السياسى الى« كوتاهيه »قاعدة ابراهيم الحربية ويعرض عليه شروط السلطان القاضية بمنحه جميع سوريا،ويفهمه بان رفضه لهذه الشروط مما يغضب فرنسا كثيراً (١)

فسافر «دى فارن» فى ٢٠ مارس ولما عرضت الشروط على ابراهيم باشا طلب اضافة « ديار بكر » ، وارفا» وميناء واحدة على الاقل فى اقليم «أطنه» فرجع «دى فارن »فى ١٥ ابريل سنة ١٨٣٣ وقال ان ابراهيم لم يسعه الا الاذعان لنصيحة انجلترا وفرنسا وانه متأكد من أن الباب العالى لا يضن عليه باقليم « اطنه » وانه قد أصدر أوامره بالجلاء من وراء جبال الطوروس على الرغم من أوامر والده الصريحة بعدم الجلاء ما لم تجب مطالبه(٢)

ولكن لما علم بأن الباب العالى لم ينزل عن«اطنه»بعد ان وافق على ذلك مبدئياً أوقف حركة الجلاء وانتظر سير الحوادث

حرج مركز السلطان

وأخيرا عجل السلطان بتسوية المسألة على الرغم من حضور قسم ثالث من المدد الروسى وذلك لأن الأحوال الداخلية فى الدولة كانت فى حالة مزعجة،فأن ابراهيم باشا كان يحتل جزءاً كبيرا من «أناضوليا» فأصبحت القسطنطينية مهددة بالمجاعة فى أى وقت، وقد زاد فى ارتباك الحالة الاقتصادية وجود المدد الروسى الذى اصبح عدده أكثر من ٣٠،٠٠٠، زد على ذلك

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا):من «مندفيل» ٣١ مارس سنة ١٨٣٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) رسالة نمرة ٧٠

الاضطراب السياسى الكامن الذى سببه استعانة السلطان بعدو الاتراك القديم . هذا إلى ضغط سفراء فرنسا وانجلترا قد جعل السلطان يجيب ابراهيم باشا إلى مطالبه وذلك بأن عينه محصلا لأقليم «أطنه»، وكانت قد نشرت الجريدة الرسمية الأقسام الأخرى التى عين عليها محمد على واليا فتم الصلح بذلك بين محمد على والسلطان . ويعرف هذا الصلح باتفاق « كوتاهيه » وفى ١٦ مايو دوت مدافع حصون الاسكندرية مائة طلقة إعلاناً بعقد الصلح بين الباشا والسلطان

نتيجة الصلح وتفوق نفوذ روسيا

غير أنه ما كاد يتم هذا الصلح حتى أوقد شرارة كادت تضرم نار الحرب الدولية . وذلك أن السلطان محمود تعلم من تجاريبه الحديثة درساً جديدا وهو أنه لما اشتدت الأزمة وانهزمت جيوشه ولى وجهه نحو أصدقائه يطلب المساعدة الفعلية فلم يسعفه أولئك الذين طالما أعلنوا إخلاصهم له إلا بالكلام والقول الجميل ، أما الروسيا فلما وجه اليها الطلب أجابته على الفور بالجيوش والأساطيل . من ذلك عرف السلطان الناحية التى يجب أن يولى وجهه شطرها إذا ما اضطر لطلب المساعدة

وفى يوم ٦ مايوعقب تسوية الصلح ارسل القيصر سفيرا فوق العادة وقائدا عاما للقوات الروسية فى الدولة العلية هو الكونت «ارلوف» ليحفظ التوازن فى نفوذ أمير البحر «روسين» الذى جلب على نفسه سخط القيصر نيقولا بسبب سلوكه فى الأزمة الاخيرة . وكان الكونت «ارلوف» من أكثر المقربين للقيصر إخلاصاً، ومهمته الظاهرية مراقبة اخلاء الجنود المصرية لآسيا الصغرى والاطمئنان على سلامة العاصمة . ولما كان ابراهيم قد بدأ فى الجلاء فعلا عمد الكونت الى الاشتغال بالجزء الهام من مهمته

فأخذ يقنع وزراء السلطان بأن لا سلامة للباب العالى الا بقدر المعونة التى يمكن الروسيا أن تمد بها تركيا، وأخذ يواصل الاجتماع بالوزراء كل يوم حتى كاد يغطى على نفوذ «روسين» «وبنسبني». وأخيرا فى ١٠ يوليه انسحبت القوات الروسية بعد ان اجلت الجنود المصرية عن الاراضى العثمانية

عقد معاهدة هنكار سكلسى

غير انه قبل انسحاب القوات بيومين كان قد تم التوقيع على معاهدة «هنكار سكلسى» وهى محالفة هجومية دفاعية خاصة بين السلطان والقيصر. وقد حفظ الباب العالى أمر هذه المعاهدة سرا فلم يبح «الرئيس افندى» بشيء عنها لسفيرى انجلترا وفرنسا، فاقلق هذا الامر بال هاتين الدولتين وجعلهما ينظران الى هذه المعاهدة نظر المستريب بعد أن علما بعقد المعاهدة بطريق غير رسمى. وأهم ما فى هذه المعاهدة شرط سرى فحواه انه فى مقابل المساعدة الحربية التى يتعهد القيصر بتقديمها للسلطان لا يريد القيصر ان يطالب السلطان بمساعدة فعلية ويكتفى منه باغلاق «البوغازات» عند الحاجة فى وجه السفن الحربية لأية دولة. وليس فى هذا الشرط شيء يغاير السياسة القديمة التى يتبعها الباب العالى منذ زمن بعيد وهى اغلاق البوغازات وقت الحرب، غير ان اللغز هو فى جملة «عند الحاجة» وبدون هذه الجملة لا أهمية للمعاهدة ابدا. فبفضل هذه الجملة تتمكن الروسيا من الدخول الى البحر الاسود والخروج منه متى شاءت ويمكنها اذا ما اعانت الحرب على أى دولة ان تقفل أمامها البوغازات وتصبح بمأمن من أى هجوم بحرى، وينتج من ذلك ان تصبح تركيا تحت أمر الروسيا وحارسة للبوغازات حفظا لمصالح الروسيا. وقبول الباب العالى لمعاهدة مثل هذه برهان على حالة الضعف والاستكانة والخوف الشديد التى وصلت اليها الدولة العثمانية

فلا يستغرب اذن قول محمود الثانى فى حالة ثورانه الفكرى « ماذا يهمنى من أمر الدولة جميعها . ما أهمية القسطنطينية لى ؟ انى اضحى الاثنتين معا للرجل الذى يحمل الى رأس محمد على »[١]

أما انجلترا وفرنسا فلم يدهشا لعقد مثل هـذه المحالفة بين الروسيا وتركيا لأن دلائل الأحوال فى الأزمة الأخيرة كانت تشير إلى احتمال وقوع شيء مثل هذا! . وكانت نتيجة ظهور هذه المعاهدة أن زادت عرى الوفاق بين الحكومتين توثقا فقدما احتجاجاتهما فى القسطنطينية وسنت بطرسبورج وذكرا فى الاحتجاج المقدم للكونت « نسلرود » كبير وزراء الروسيا « ان المعاهدة غيرت علاقات تركيا والروسيا وصبغتها صبغة جديدة لا يسع الحكومتين ازاءها ألا أن تضرب عنها صفحاً وتعمل كما لو كانت هذه المعاهدة غير موجودة »

احتجاج انجلترا وفرنسا

فقال الكونت « نسلرود » فى جوابه أن المعاهدة دفاعية محضة ولا يقصد منها إلا المحافظة على كيان تركيا . أما من جهة تغيير العلاقات بين تركيا وروسيا فان المعاهدة قد استبدلت بعلاقات مبنية على العداء والريبة علاقات غيرها سداها ولحمتها الاخلاص والمودة وان القيصر موطد العزم على التمسك بتعهداته للدولة على حسب المعاهدة فيعمل كما لو لم تعلن تصريحات الحكومتين[٢]

اتفاق النمسا والروسيا

أما موقف النمسا فكان فى جانب الاعتدال أثناء هذه الأزمة ، الا

---

(١) « مذكرات جيزو » الجزء الرابع ص ٥٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) : ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٣

أن « مترنخ » كان لا يميل الى اتفاق المبادىء الحرة بين انجلترا وفرنسا ولذا اتجه نحو « نيقولا » قيصر الروسيا الذى باح له بما فى قلبه نحو الدولة العثمانية وحفظ الحالة السياسية الحاضرة فتشجع « مترنخ » بتفاهمه مع القيصر وانحى باللائمة على انجلترا وفرنسا وأعلن أنه لو كان موقع النمسا موافقا لما تردد فى تقديم المساعدة للسلطان بنفسه . غير ان هذا لم يمنع « مترنخ » من أن يلوم القيصر على عقده معاهدة ظاهرها يزيد على نفعها الحقيقى ، وانتظر « مترنخ » فرصة ينسخ فيها المعاهدة بغيرها فجاءت هذه الفرصة عند اجتماعه بالقيصر فى « منشنجراتز » حيث عقدا اتفاقا سريا لحفظ كيان الدولة وفحوى الاتفاق أن الروسيا والنمسا يتعهدان بمنع محمد على من مد نفوذه الى الولايات الاوربية وإذا ما حصل انقلاب فى النظام الحكومى فى القسطنطينية فأن الروسيا والنمسا يتفقان سوياً على كل نقطة من حيث النظام الجديد [1] وليس فى هذا الأتفاق شيء يخالف أفكار انجلترا وفرنسا ، ولكن كره القيصر نيقولا المبادىء الحرة السائدة فى حكومتى الغرب الدستوريتين جعله يعضد هذا الاتفاق مع النمسا سرا من غير أن يعلم به انجلترا وفرنسا ، فاصبحتا بعد ذلك يسيئان الظن بسياسة القيصر نيقولا وأغراضه ويعدانه أعدى اعدائهما إلى أن انثلم الأتفاق الودى بينهما فانضم نيقولا إلى جانب « بالمرستون » .

نيات القيصر نيقولا

ومع ذلك فلم يدر فى خلد نيقولا أن يعمل على إسقاط الدولة وقتئذ أو أن يغير فى مركزها السياسى ، بل ان غاية ما يريده هو أن تبقى

(١) سجلات وزارة الخارجية (النمسا ، سرى ، فى ١٤ يوليه سنة ١٨٣٤)

الدولة حافظة لمركزها واقفة ساكنة لا تتقدم وعلى القيصر أن يحميها من الحركات الخارجية أو الداخليـة التى ربما تثير الدولة من رقادها. وبهذه السياسة الحكيمة الخفية كانت حكومة القيصر تؤمل أن تصبح الدولة العلية تحت سيطرة الروسيا من غير أن تضطر إلى فتح او اعلان حرب. وعلى الرغم من ان اتفاق «منشنجراتز» قدنسخ معاهدة «هنكاراسكلسى» كانت الدول قد بدأت تتخوف ان تجد الروسـيا مسوغاً للدخول إذا فتحت المسألة الشرقية مرة ثانية

ما هى هذه المسألة الشرقية وكيف اطلقوا هذا التعريف على حالة خاصة محلية بين حكومة مستقلة واتباعها؟ يريدون بالمسألة الشرقية الحالة السياسية التي قد تنتج على أثر ثورة أو حرب فى املاك السلطان ، ولكن لم تكن مصر مثلا كل الدولة ولا الدولة كل الشرق وما سمعنا أن هناك «مسألة غربية » على الرغم من وجود ازمات فى تاريخ دول الغرب تشابه ازمات الدولة العلية

الفصل السابع

اتفاق الدول ضد محمد على

خطب وليم الرابع ملك انجلترا خطبة العرش فى فبراير سنة ١٨٣٤ فقال : انه منذ أن عقد الصلح بين السلطان ومحمد على لم يطرأ شىء يعكر صفو السلام وأنه يعتقد أن لا يحصل شىء من ذلك ، ثم قال « وستكون مهمة حكومتى منع حدوث أى تغيير فى علاقات الدولة العثمانية بدول أخرى يكون من شأنه التأثير فى سلامتها واستقلالها ». أعلنت الحكومة ذلك ليطمئن الذين يخشون على سلامة الدولة العثمانية من تدخل روسيا ، غير أن الأحوال فى الشرق كانت تنذر بغير ذلك إذ كان السلم مهدداً فى كل ساعة وذلك لأن محمود الثانى أجبر على الاذعان لمطالب محمد على فكان يضمر فى نفسه الانتقام منه وعلى ذلك لم يكن صلح « كوتاهيه » فى الحقيقة إلا هدنة مسلحة .

صلح كوتاهيه هدنة مسلحة

وليس بعجيب أن تكون الحالة كذلك لأن شروط الصلح لم تكن حاسمة للنزاع القائم بين محمد على والسلطان ، فالشروط مبهمة لا تمكن أن يطمئن لها بال أحد ، ولو كانت الدول أعلنت سيادة السلطان على جميع ولاياته وقصرت محمد على على أن يكون حاكما وراثيا على مصر وحاكما مؤقتاً على ولايات آسيا مثلا لما تزعزع السلام مرة أخرى ولما اضطرت الدول إلى الوقوع فى أزمة سياسية خطيرة فى سنة ١٨٤٠ . ولكن الدول راعت فى ذلك الوقت تفادى الخطر الداهم من جراء تدخل الروسيا فضمنت بذلك

السلام فى أوربا وتركت الشرق مبدءاً .

معاكسة انجلترا لروسيا

نعم كانت فرنسا تود أن تكون العلاقات بين محمد على والسلطان قائمة على أساس متين دائم ولكن انجلترا لم تنظر الى أبعد من البسفور فقصرت كل جهودها على فصل تركيا من الروسيا ولم يعدم «بالمرستون» وسيلة لاستفزاز روسيا ، فمن ذلك أنه أرسل السير «استراتفورد كاننج» سفيراً أمام حكومة «سنت بطرسبورج» على الرغم من عدم ميل الامبراطور الى هذا التعيين ، ومن ذلك أيضاً أنه أمر سفيره بالقسطنطينية بأن يدعو الاسطول الانجليزى فى البحر الابيض داخل الدردنيل اذا طلب السلطان المساعدة [1] وعلى العموم أصبحت العلاقات متوترة بين انجلترا والروسيا الى درجة توقع الناس معها الحرب

قيام سوريا وتحرك الباب العالى

وفى ذلك الوقت قامت ثورة فى سوريا على أثر ادخال ابراهيم باشا نظام القرعة العسكرية فشغل محمد على وكان السلطان يترقب الفرصة للانتقام منه فلما قامت الثورة فى مايو سنة ١٨٣٤ فكر السلطان فى ارسال أسطوله لمعاقبة محمد على ، واستطلع رأى انجلترا وفرنسا فى ذلك فكان جوابهما ان عرش الخلافة يصبح فى خطر اذا جازف السلطان بحرب ضد محمد على . ولما أبى محمد على دفع الجزية فى سنة ١٨٣٤ فاتح الباب العالى سفير الروسيا بقصد تطبيق معاهدة « هنكارسكلسى » فتقدم الروسيا المساعدة اللازمة للسلطان ضد الوالى الثائر فكان الجواب

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) «المرستون» الى البحرية ٣٠ يناير سنة ١٨٣٤

الروسيا وانجلترا لا يعضدان تركيا

على ذلك» أن الروسيا لا تستطيع ذلك لان المعاهدة دفاعية محضة ولا يمكن الروسيا تقديم المساعدة مادام الباب العالى هو البادىء بالعدوان وعلى ذلك نصحت له الروسيا بالعدول»(١)

ثم جاء تصريح «بالمرستون» بانه اذا بدأ السلطان العداء وهزم فى الحرب فان انجلترا وفرنسا لا يمكنها حمايته من محمد على كما فعلنا سابقاً (٢) وكتب « بالمرستون » الى البحرية الانجليزية ينبهها الى أن يستعمل القائد العام لاسطول البحر الابيض حكمته ونفوذه فى ايقاف الحرب بين الاسطولين العثمانى والمصرى، واذا لم ينجح فى ذلك فليذكر أن انجلترا فى حالة صلح مع الجانبين وليلزم الحيدة التامة فلا يشترك بأى حال من الاحوال فى الحرب

اخماد الثورة ومشروع محمد على

ولكن ما كادت تصل هذه الرسائل الى الدواوين حتى وصلت الاخبار بأن الثورة هدأت فى الشام وان محمد على أصبح قابضا على ناصية الحاله فهدأت مخاوف أوربا وزال كل أمل للسلطان فى الانتفاع بمشاغل محمد على . فلما استتب الحال فى سوريا رجع محمد على وأراد أن يخلص نفسه من سيادة السلطان عليه لما رآه من سوء النية ودس الدسائس فى سوريا فأراد ان يسبر سياسة اوربا بشأن اعلانه الاستقلال، فكتب سفراء انجلترا وفرنسا والنمسا الى حكوماتهم بذلك فجاء الرد بالرفض ونصحته انجلترا بالعدول عن تنفيذ مشروعه لان حالة أوربا السياسية لا يمكن أن

(١) سجلات وزارة الخارجية (تركيا) ٣ أغسطس سنة ١٨٣٤

(٢) سجلات وزارة الخارجية (تركيا من بالمرستون) فى ٢٠ اغسطس سنة ١٨٣٤

تسمح له بتحقيق أمنيته (١) فارجأ محمد على موضوع الاستقلال لفرصة أخرى . وسعت فرنسا فى سنة ١٨٣٦ فى توطيد دعائم الصلح بين الباشا والسلطان بحل مرضى ولكن حبط مسعاها وذلك لان الباب العالى كان قد فقد كل ثقة فى فرنسا على أثر احتلالها للجزائر وحمايتها لسواحل افريقا الشمالية وخاصة فى مدة وجود « تيير » على رأس الوزارة . فكانت هذه السياسة من جانب فرنسا مدعاة للنفور بين انجلترا وفرنسا ، ولدخول تركيا فى أحضان انجلترا

اعتماد تركيا على انجلترا

وكانت انجلترا تظهر شدة التمسك بمصالح الدولة العلية وبذلك جعلت لسفيرها فى القسطنطينية اللورد « بنسبنى » الكلمة النافذة لدى الديوان العالى ، وكان اللورد « بنسبنى » شديد الكره لروسيا ولكن كان كرهه لمحمد على أشد ، فكان فى نظره بثرة فى جسم الدولة تمتص ماء حياتها وعونا لروسيا فى تنفيذ أغراضها من الدولة . وكان كلما أعلن « بنسبنى » عدم ارتياح حكومته من تسوية « كوتاهية » وهذا بعكس الروسيا التى كانت تشدد دائما فى بقاء الحالة كما هى — زاد اعتماد تركيا على الحكومة الانجليزية التى ما فتئت تنصح لها بتنظيم جيشها وأسطولها . فعين الباب العالى الضابط البروسى « فون ملتكه » لاصلاح الجيش وعين ضباطا من الانجليز لاصلاح الاسطول وأخذ « بنسبنى » يبث أعوانه فى سوريا للتجسس على قوة محمد على ولتحريك الرأى العام ضده .

كذلك عين السلطان حافظ باشا وهو من المقربين الحربيين حاكما على ما بين النهرين والغرض من ذلك تكوين جيش وتدريبه بالأراضى المجاورة

---

(١) سجلات وزارة الخارجية تركيا عن « بالمرستون » فى ١ نوفمبر سنة [illegible]

ودس الدسائس ضد الحكومة المصرية . وعلى العموم لم يترك «بنسبنى» ولا الوزير «بالمرستون» فرصة تمر من غير إيذاء محمد على . مثال ذلك انه فى سنة ١٨٣٨ أرادت انجلترا أن تضرب محمد على فى نقطة حيوية من موارد ثروته وذلك بعقد معاهدة تجارية بينها وبين الباب العالى بمقتضاها زادت ضريبة الواردات إلى ٨ ٪ وحرمت بمقتضاها احتكار التجارة بجميع أصنافها، وكان يظن أن هذا الشرط يشل حركة محمد على المالية . ولكن الباشا لم يتوان قط فى قبول المعاهدة من غير اهتمام، وصرح « لكامبل » معتمد انجلترا السياسى بمصر بأن المعاهدة ستكون سببا فى زيادة ثروته زيادة تفوق ما كانت تجابيه له محتكراته .[1]

مساعى محمد على لكسب رضا انجلترا

قبل محمد على المعاهدة التجارية كسباً لرضا انجلترا لأنه كان شاعراً بعدم صداقتها له ولقد اجتهد بكل الطرق الممكنة فى ارضاء حكومة انجلترا لتمالى من حدتها ضده فأرسل البعثات إلى معاملها ودور صناعاتها البحرية وساعد مساعدة لا تقدر فى نجاح طريق التجارة بين البحر الاحمر والابيض، كذلك اضطر أن يطأطىء رأسه أمام رغبة انجلترا فى احتلال «عدن» وما كان محمد على ليسمح لأى دولة باحتلال هذه الميناء التجارية الحصينة.

كل هذا أثر فى سياسة «بالمرستون» بعض التأثير فقلل من غلوائه وأرسل مندوبا برلمانيا وهو الدكتور « بورنج » ليكتب تقريراً ضافيا على حالة مصر وإصلاحات محمد على، ورفض الدخول فى معاهدة هجومية مع الترك ضد محمد على ، وفوق ذلك أعان استعداده لبقاء شروط « كوتاهيه » بأن كلف سفيره « بنسبنى » أن يشدد على السلطان فى تفهيمه أنه وإن كانت

---

(١) تاريخ حياة «بالمرستون» جزء ثان ص ٢٩٧

انجلترا ترى من المحتم عليها مساعدة الباب العالى ضد أى هجوم من محمد على فأن المسألة تتغير إذا بدأ السلطان بالمهاجمة [١].

ولكن بينما كانت علاقات محمد على بالدول آخذة فى التحسين كانت علاقاته بالسلطان لا تبعث على الرضا وحسن التفاهم . فقد وضع السلطان الانتقام نصب عينيه بمداهانة «كوتاهيه» ولما لم ينجح فى سنة ١٨٣٤ أجل اليوم لتاريخ آخر وقصر همه على ابتزاز الأموال من محمد على بقدر ما يمكن فبلغت الأموال التى سحبها السلطان فى سنة ١٨٣٧ أكثر من مليون ونصف مليون ريال [٢]

ارتباك محمد على المالى بسبب مركزه السياسى

كل هذا زاد فى ارتباك محمد على المالى وكلف الخزينة المصرية فوق طاقتها ولو كان هناك فائدة من دوام الصرف لأجاب محمد على طلبات السلطان من غير تململ ولكن الدلائل كانت تنبىء بوقوع الحرب لا محالة ، وكانت عيون محمد على تعلمه بكل مايدور فى الحكومة العثمانية فى حينه . من ذلك أصبح مركز محمد على مهدداً من كل جهة فالجيش العثمانى فيما وراء النهرين يهدد سوريا وحدود مصر نفسها وأصبح من المحتم إعداد جيش وأسطول ليكونا على استعداد لمقابلة الطوارىء فزادت بذلك نفقات محمد على زيادة عظمى امتصت ثروة مصر وأثارت سخط الناس وغيرت حالة مصر من رغد وهناء إلى خوف وانهماك فى انتاج ثروة ضائعة فى سبيل إيقاف تعدى العثمانيين على مصر .

لذلك عزم محمد على فى سنة ١٨٣٨ على أن يضع حدا لمركزه وكان

---

(١) أوراق برلمانية من «بالمرسنون» فى سنة ١٨٣١

(٢) راجع رسالة د تومامس واجهورن فى سنة ١٨٣٧

محمد على يطلب استقلال مصر وسوريا

قد انتهى فى ذلك الوقت من اخضاع نجد ودانت له شبه جزيرة العرب سياسيا وتجاريا فأعان معتمدى الدول رسميا فى اجتماع خاص عزمه الثابت على اعلان استقلاله قائلا « لا يمكننى أن أرضى بترك ماشيدته من المنافع والمرافق الحيوية بمصر طول هـذا الوقت مما كلفنى أموالا طائلة كدور الصناعة البحرية والأسطول والبواخر والمصانع وعددها وعمالها والمدارس المتعددة والبعثات والمعاهد العلمية التي أنشأتها على النمط الأوربى والمناجم التى فتحتها فى سوريا لاستخراج الفحم والحديد والقنوات والطرق التى رسمتها بمصر وسوريا ـ لا يمكننى ترك كل هذا للفناء فى يد الباب العالى بعد موتى . وإن قلبى لينفطر كلما ذكرت أن ثمرة اتعابى ضائعة ومصيرها للفناء وأن أولادى وأسرتى ستترك بعد موتى تحت رحمة الباب العالى »[١]

جواب الدول على ذلك

فجاءه جواب الحكومة الانجليزية « بأن الحكومة ترى من المستحيلات تنفيذ مشروع محمد على وترى من نتائجه ذ... الدمار للباشا» وأجابت فرنسا « بأنها علمت بمزيد الدهشة والأسف عزم محمد على على اعلان استقلاله . وان الحكومة الفرنسية ستضع كل العقبات ضد تنفيذ هذا المشروع »[١]

أما « مترنخ » فقال « ان صفو السلام فى أوربا لا ينبغى أن يعكر» وعبثا حاول الباشا بعـد ذلك أن يطالب من الحكومة الانجليزية اتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على السلم فى الشرق . وقال بالاجدوى ان مالية مصر لا يمكن أن تتحمل نفقات التسليح باستمرار واحتمال الضرائب

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) كامبل الى بالمرستون ف ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) بالمرستون الى كامبل [illegible] ١٨٣٨

الزائدة التى اضطر إلى وضعها . ولما لم تجبه الحكومات إلى طلبه ترك مسئولية ما يقع من الحوادث على عاتق الدول وسافر إلى السودان مع أنه قد كان بلغ السبعين من عمره ليفتش على مناجم الذهب التى كان ينفق عليها وأخبر « كامبل » انه إذا رجع ومعه كثير من الذهب فانه يستغنى عن الجيوش وعن الأصحاب فى معاملة الباب العالى (١)

رغبة السلطان فى الحرب

غير أن السلطان لم ينتظر وصول ذهب محمد على وانتهز فرصة تغيبه بالسودان وأخذ يحشد قواته على حدود سوريا ، وذلك لأن موقفه ازاء الوالى كان موقفا مهينا للغاية ، فأى ملك أو سلطان يرضى بأن يبرم صلحا مع تابع له بشروط خاصة تحط من قدره . وإذا كانت الظروف قد اضطرت السلطان إلى أن ينزل عن هذه الأقاليم ألا يكون من أول واجباته التخلص من هذه الربقة غير الشرعية متى سنحت له فرصة ؟ على أن السلطان كان آخذا فى الشيخوخة وكلما كبر نما حبه للانتقام من ذلك الذى علا اسمه على اسم السلطان وامتدت ممتلكاته من جبال طوروس شمالا الى النيل الأبيض جنوبا ومن خليج العجم شرقا الى جزيرة كريد غربا ، وذلك يشمل مصر والسودان ، والشام واطنه وكريد وبلاد العرب بما فيها المدن المقدسة. كل هذه البلاد كانت تحت حكمه ، وكان العالم الاسلامى فى جميع الانحاء ينظر إليه بطل الاسلام وفاتح المدن المقدسة بعين الاحترام والولاء ، بل كان هناك رجال فى قلب الدولة يعملون على انزال السلطان الموالى للروس عن عرش الخلافة واعلان محمد على نائبا .

ولقد كان السلطان شاعرا بكل هذا ولذلك اجتهد فى تخليص نفسه من

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) كامبل الى بالمرستون ١٢ يوليه سنة ١٨٣٨

هذا المركز الذليل، فاستعد للحرب على الرغم من نصيحة كل أصدقائه، ودهشت حكومات اوربا لما علمت بأن السلطان سيكون البادىء بالعدوان بعد أن كانت الفكرة سائدة بأن محمد على هو الذى سيضرب الضربة الأولى لأنه الجانب الأقوى، ولقد عرف محمد على ذلك فأكد لمعتمدى الدول عزمه على أن لا يبدأ بالعدوان. وأخيراً بدأت الحرب وذلك بعد أن عبر الجنود الاتراك نهر الفرات وهو الحد الفاصل بين الجانبين أما فى القسطنطينية فاز سفراء الدول حذروا الباب العالى من الحرب، وأعلن سفير الروسيا أن حكومته لن تساعد السلطان فى حربه ضد محمد على، وصرح باقى السفراء بمثل هذا الا سفير انجلترا فانه سلك سبيلا آخر

مقدرة بنسبنى السفير الانجليزى

كان اللورد « بنسبنى » سفير انجلترا سياسيا بارعا وله خبرة وقدرة غريبة فى تكييف التعليمات التى ترد اليه من حكومته بحيث يجعلها توافق أغراضه وآرائه[1] ومن سوء الحظ ان كانت افكار بالمرستون وبنسبنى متفقة فى النهاية غير أن بنسبنى كان يزيد على بالمرستون بميله الى استخدام الطرق السرية للنجاح فى مشروعاته . فعلى الرغم من الاوامر الصريحة التى وصلت اليه أخيراً تؤكد عليه بأن يبدى نصحه للسلطان لتجنب الحرب . كتب بنسبنى الى حكومته يقول « انه نصح للسلطان بأن يؤخر كل شيء ان لم يكن فى الامكان ترك كل شيء نهائياً »[2] وصرح للحكومة العثمانية بأن الاسطول الانجليزى لن يعترض سير القوات العثمانية . وقال انه يرجو ان يكون الباب العالى قد أخذ الضمانات الكافية للنجاح فتشجع الباب العالى بهذه الارشادات

---

(١) الحرب فى الشام « لما بيير . الجزء الثانى ص ٣٠

(٢) اوراق برلمانية من بنسبنى الى بالمرستون ٥ ابريل سنة ١٨٣٩

الخفية وصدق ماكان يكتبه حافظ باشا من التقارير المكذوبة عن حالة الجيش، ورأى السلطان انه في كلتا الحالتين لا يخسر شيئا لانه اذا انتصر في الحرب فبها واذا هزم فان انجلترا وروسيا لا يمكنهما أن يسمحا لمحمد على بالقضاء على الدولة

الحرب الشامية الثانية

وقف الجيشان وجها لوجه وكان الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا على أرض مصرية عند «عينتاب» والجيش التركى عند قرية «نصيبين» وكانت القوات تكاد تتكافأ، ٦٠٠٠٠ مصرى و ٨٠٠٠٠ تركى ؛ الا ان المدفعية التركية كانت تفوق المصرية فوقانا ظاهراً . وكانت اوامر ابراهيم صريحة فى عدم البدء بالعدوان وعلى الرغم من تحرش القوات التركية فانه تحمل كثيرا حرصا على أوامره (١)

حقا لقد كان محمد على يتوق الى محاربة السلطان ولكنه كان مصمما على أن يبدأ السلطان الحرب أولا وذلك كسبا لرضا الدول ولكى يبرهن على شعوره السلمى أخبر معتمدى الدول بأنه مستعد لسحب جنوده الى جنوب دمشق اذا عبر الاتراك نهر الفرات ثانية، واذا ضمنت الدول المحافظة على السلام فانه يسحب جنوده من سوريا جميعها ويقبل شروط الصلح (٢)

ولكن السلطان كان مصمما على الحرب فبدأ حافظ باشا بالعدوان وذلك باثارة الفتن بين قبائل سوريا وتوزيع الاسلحة عليهم واخيرا بمهاجمة بعض فرق الجيش المصرى فى أرض داخل حدود سوريا (٣) فلما كتب

(١) أوراق برلمانية : ابراهيم باشا الى حافظ باشا ٨ يونيه سنة ١٨٣٩

(٢) اوراق برلمانية : «كنسليه اسولت» ٧ يونيه سنة ١٨٣٨

(٣) « « : «كامبل» الى «بنسبى» ٢٦ يونيه سنة ١٨٣٨

ابراهيم لوالده بما حصل كتب اليه محمد على بأن يرد هجوم الاتراك وان يعبر الحدود اذا اقتضى الحال ذلك وقال فى رسالته «كلما صبرنا وكظمنا شعورنا مراعاة لرغائب الدول تقدم العدو واذا صبرنا اكثر من ذلك عجزنا عن صده» فبدأت الحرب وأصبح مستقبل الخلافة العثمانية معلقا.

* * *

اتفاق انجلترا وفرنسا ضد الروسيا

أخفق ممثلو الدول فى التشديد على السلطان بضرورة مراعاة اتفاق « كوتاهية » وكذلك أهملوا الاجابة عن مطالب محمد على المعقولة فنتج من ذلك أن أصبحت الدول أمام خطر طالما عملوا على تجنبه منذ معاهدة « هنكارسكلاسى » . ذلك الخطر هو اثارة المسأله الشرقية وفتحها من جديد واحتمال وجود الأسطول الروسى فى البسفور . ولم يكن بين الدول من يحسن الظن بنيات الروسيا غير النمسا ، أما باقى الدول فقد كان جل همهم عدم ايجاد ظروف تتخذ منها الروسيا عذراً لتقديم المساعدة على حسب شروط المعاهدة وكانت حكومتا انجلترا وفرنسا متفقتين على منع الروسيا من التدخل بمفردها ، فمن أجل ذلك أصدرتا التعليمات اللازمة لأسطوليهما بأن يبحرا إلى الشرق الأدنى ويسعيا جهدهما فى إيقاف الحرب بين السلطان ومحمد على ، ثم كتبتا إلى سفيريهما بالقسطنطينية تعلنانهما بأنه إذا دخل الأسطول الروسى البسفور لأى سبب كان وجب أن يسمح للأسطولين الفرنسى والبريطانى بالدخول أيضا (١)

وبلغ الاتفاق بين انجلترا وفرنسا درجة عظيمة حتى صرح « بالمرستون » لسفير فرنسا بانجلترا بأن أعمال الحكومتين أصبحت أشبه بمعاملة عضوين

---

(١) أوراق برلمانية بالمرستون الى بنسبى ١٨ يوليه سنة ١٨٣٩

فى وزارة واحدة .

كان هذا الاتفاق نتيجة خوف انجلترا الشديد من انفراد روسيا بالعمل . وكانت أعمال الروسيا فى وسط آسيا وتحريضها للأفغان والعجم ضد انجلترا مما ملاء قلوب البريطانيين خوفا على ممتلكاتهم فى الشرق وحنقا على روسيا التى أصبحت منذ عقد معاهدة « هنكارسكالسى » الحامية الوحيدة للسلطان ، فاعتقد «بالمرستون» ان الفرصة قد سنحت اخيرا للقضاء على هذه المعاهدة ليحل محلها مؤتمر دولى ينظر فى المسألة الشرقية بجزئياتها(١)

افتراحات الدول

أما فرنسا فانها كانت تريد عزلة الروسيا التى كانت تعارض فى عرض المسألة الشرقية على مسامع مؤتمر مكون من اعدائها . وعارضت النمسا فى تنفيذ مشروع يضر بمصلحة حليفتها الروسيا واقترحت أن يصرف النظر عن مؤتمر لابد ان ينضم اليه مندوب عثمانى واقترح « مترنخ » ان يعقد سفراء الدول فى «فينا» اجتماعات يتذاكرون فيها الحالة ، فوافقت الدول على هذا الاقتراح وكتبت الى سفرائها بالقسطنطينية بقبول التعليمات التى يرسلها سفراء حكوماتهم فى فينا (٢) .

شأن الحالة

ولكن رأت فرنسا أن عقد اجتماعات السفراء فى فينا لا يفيد السلم العام شيئا وان الدماء ستراق فى الشرق اذا لم تتخذ تدابير فعالة فأرسل المارشال « سولت » رئيس الحكومة الفرنسية ضابطين عسكريين احدهما الى القسطنطينية والثانى الى اسكندرية لاخذ الاوامر اللازمة الى

مساعى فرنسا لايقاف الحرب

---

(١) « مذكرات جيزو » الجزء الرابع . من بوركنى الى سولت ٢٥ مايو سنة ١٨٣٩

(٢) اوراق بريطانيا : رسالة نمرة ١١٠ فى ١٩ يونيه سنة ١٨٣٩

قواد الجيوش المتحاربة بايقاف الحروب أينما وصلتهم الرسالة وفعلا نجح الضابط «كاليير» المرسل الى محمد على فأخذ الاوامر الى ابراهيم بالوقوف، ولكن قبل أن يصل الى معسكر ابراهيم كانت الجيوش قد اشتبكت في واقعة «نصيبين» في ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ حيث دحر الجيش العثمانى عن آخره في ساعات قليلة بالمدفعية والركبان فقط ولم تشترك المشاة في الموقعة قط (٢) وقال سفير المانيا في القسطنطينية ان سبب الهزيمة هو أن حافظ باشا خالف نصائح الضباط البروسيين وفضل حرب العراء على حرب الخنادق، ولم تصل اخبار الهزيمة الى آذان صاحبها السلطان محمود الثانى الذى قضى نحبه في الثلاثين من شهر يونيه وبفضل مساعى الوزير خسرو كتم الاخبار حتى نصب السلطان عبد المجيد بن محمود ولم يبلغ سنه اذ ذاك السادسة عشرة من عمره فتم ذلك بلا سفك دماء او قيام ثورات كالمعتاد

نكبات الباب العالى

غير ان الكوارث ما فتئت تتوالى على الدولة الواحدة تلو الاخرى ففى اليوم الذى وصلت فيه اخبار هزيمة «نصيبين» الى القسطنطينية قام أمير الاسطول العثمانى احمد فوزى وخاف مغبة حكم خسرو باشا وخليل باشا فادار دفة الاسطول نحو الاسكندرية ولم يطلع فوزى أحدا على عزمه الا بعض الضباط المقربين وترك باقى البحارة ومن بينهم الضابط الانجليزى «واكر» على جهل تام بما ينوى عمله

وقد اتضح فيما بعد ان الاسطول الفرنسى بقيادة أمير البحر «لالاند» قاطع الاسطول العثمانى فى الطريق وعرف قصد امير البحر

(١) أوراق برلمانية : من هملتن الى بالمرستون ٢٤ يوليه سنة ١٨٣٩

احمد فوزى فاستحسن الفكرة وطلب اليهم أن يحترسوا من مقابلة السفينة الانجليزية « فانجارد »، ولما اقترب الاسطول من الاسكندرية استعد البحارة للحرب ولكن بدل دوى المدافع سمعوا طلقات السلام والترحيب من طوابى الاسكندرية والاسطول المصرى ووضع احمد فوزى الاسطول العثمانى طوعا بين يدى محمد على وهو فى نظره القوة الوحيدة التى يمكنها المحافظة عليه فأصبحت الدولة فى مدة اسبوعين فاقدة جيشها وسلطانها وأسطولها ولم يبق لها من أساليب الحماية الا رعاية الدول وحكمة محمد على

وقد أبدى خسرو باشا حكمة سياسية فى اول الامر بأن أرسل رسولا الى محمد على مهمته الظاهرة اعلان تولية السلطان الجديد ولكنه فى الحقيقة كان يحمل شروط الصلح مع محمد على وفحواها ان تجعل حكومة مصر وراثية فى أسرة محمد على، غير ان محمد على اعتمد على انتصاراته وطلب حكومة سوريا زيادة على مصر ورجع عاكف باشا المندوب العثمانى محملا بالهدايا

قلق الدول وعداء بالمرستون لمحمد على

ولما وصلت أخبار الكوارث التى أصابت الدولة العثمانية الى مسامع الحكومات الاوربية استولى عليها القلق وابدت الاهتمام بالامر وحنق «بالمرستون» حنقا شديدا على محمد على لظفره فى الحرب وساءه أن تقع تركيا بين براثن محمد على وفى قبضة الروسيا فاضمر لمحمد على منذ ذلك الوقت العداء والمعارضة الشديدة لمصالحه. من ذلك انه صرح فى البرلمان بلا تردد بانه لما كانت بلدة « نصيبين » واقعة خارجا عن اقاليم محمد على فانه لا يمكنه أن

يفهم كيف يكون السلطان هو المهاجم (١)

وكتب «بالمرستون» الى سفيره فى فينا يقول « ان انتصار محمد على فى واقعة ٢٤ يونيه لا يمكن ان يخول له أى اعتبار خاص من جانب الدول الخمس بل قد يؤدى انتصاره الى عكس ما يتصور لان الواقعة قامت على الرغم من نصائح وتصريحات الدول» (٢)

وقد كان اكثر ما ساء «بالمرستون» خضوع الاسطول العثمانى لمحمد على، ففاتح فى الحال الحكومة الفرنسية بشأن الاشتراك لنزع الاسطول التركى من أيدى محمد على. وفعلا كتب «بالمرستون» للبحرية الانجليزية عن الخطة اللازمة لاجل ذلك حتى جاءه جواب الحكومة الفرنسية يذكره بأن أى عمل عدائى ضد محمد على من شأنه ان لا يمس المشروع الذى تسير فيه انجلترا وفرنسا معا فامسك عن العمل (٣). أما فرنسا فان سياستها كانت فى مصلحة محمد على منذ انتصاره. واصبح من واجبها الادبى تسوية الحالة بأحسن الشروط له. غير ان علاقة تركيا بأوربا كانت تتطلب من فرنسا اهتماما خاصا، وكان جل أمانى السياسة الفرنسية أن تجمع دول اوربا وتجعلها ضد سياسه القيصر فى المسألة الشرقية

خطة الروسيا

أما موقف الروسيا فكان موقفا محاطا بالاحتراس والحكمة فلم تتحرك لمساعدة السلطان فى حربه مع محمد على لانه كان المهاجم وما كان يتيسر

---

(١) « مجموعة هنسارد » ٣٠ اغسطس سنة ١٨٣٦ و ٢٠ مارس سنة ١٨٤٠

(٢) « حياة بالمرستون » جزء اول من بالمرستون الى بونسونبى ٢٦ يوليه سنة ١٨٣٩

(٣) « مذكرات جيزو » الجزء الرابع : من سولت الى بورتكينى ٦ اغسطس سنة ١٨٣٩

لهـا الانتفاع بمحن السلطان وذلك لان القيصر نيقولا كان قد صرف نفسه عن الامل فى حل المسأله الشرقية على المنهج الذى يريد، هذا الى أن الروسيا كانت تعلم أن محمد على قوة لا يستهان بها ، وانه يمكنه الوقوف امام الروسيا اذا اشتبكت بمفردها فى حرب ضده ، ولا يبعد ان تنحاز حينئذ انجلترا وفرنسا الى جانبه .

والحقيقة أن محمد على أخطأ فى ارساله الأوامر لأبراهيم بالوقوف عقب موقعة «نصيبين» رغبة فى ارضاء «المرشال سولت» رئيس حكومة فرنسا، ولو أن ابراهيم زحف على القسطنطينية وترك الأسطول الروسى فى البسفور ما كان هناك شك فى النتيجة . ولـكن من حسن حظ أوربا أنه لم تقع هذه الأزمة وأسرعت الروسيا بأعلان رغبتها فى عدم تطبيق شروط معاهدة «هنكارسكلسى». وكان من رأى الروسيا حينئذ انه مادام محمد على لم يهدد وجود تركيا بأوربا ومادامت المفاوضات بشأن الصلح جارية بين الجانبين ، يحسن بالدول أن تراقب الحالة من غير تدخل مالم يرفض محمد على شروط الصلح مع السلطان رفضاً نهائياً(١)

اقتراح فرنسا

وكانت فرنسا ترقب من بعد مجرى الحوادث فرأى « سولت » أن فى نصح الروسيا سبباً يتذرع به لعزلها سياسيا فأرسلت الحكومة الفرنسية البلاغ الآتى للحكومات لتبليغه لتركيا وهو: « ان الدول توافق تمام الموافقة على افكار الباب العالى السلمية ولكنها تتشدد فى ان لا يتم شىء وان لا يوافق على اى صلح مع محمد على مالم يوافق عليه الحلفاء

(١) أوراق برلمانية : من أسلرود فى ٣ يونيه سنة ١٨٣٩

الذين بتدخلهم يمكنهم أن يحصلوا للسلطان على شروط مضمونة واكثر موافقة (١)

فقابلت انجلترا والنمسا هذه الدعوة من فرنسا بالترحاب ورأت هذه الدول أن الوقت قد حان للشروع فى عمل ليس لمنع الروسيا من التدخل بمفردها فحسب بل لايقاف مطامع محمد على الذى كان يستخدم نفوذه فى القصر السلطانى لاجل الحصول على شروط حسنه ، فقد اجتمع كبار رؤساء الحكومة وقرّ المجلس على ارسال مندوب آخر لمحمد على يؤكد له ان مهمة المندوب الاول كانت لاعلان تولية السلطان الجديد فقط وان الشروط التى قدمها لم تكن نهائية . وكان يظن أن الشروط التى يحملها المندوب الثانى احسن كثيراً من الشروط الاولى اذ كانت تتضمن زيادة على جعل حكومة مصر وراثيـة جزءاً من الشام ان لم تكن سوريا باكلها (٢)

نقديم المذكرة المشتركه

فلما علم « مترنخ » بذلك رأى ان التصريح الذى أرسلته الحكومة الفرنسية اذا أعلنته الدول متحدة للباب العالى فان المفاوضات بين السلطان ومحمد على لا بد أن توقف مراعاة لرغبة الدول . وفعلا أسرع فأرسل مذكرة ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ الشهيرة لسفيره بالقسطنطينية لتسليمها للباب العالى وكتب ممثلو الدول الى سفرائهم بالقسطنطينية ليشتركوا مع سفير النمسا فى تقديم المذكرة للحكومة العثمانية

وفى يوم ٢٨ يوليه سنة ١٨٣٩ قبل سفر المندوب العثمانى الى الاسكندرية

(١) أوراق برلمانية من الدوق دلماسيا الى بوركنى فى ٢٦ يوليه سنة ١٨٣٦

(٢) أوراق برلمانيه : خسرو الى محمد على يوليه سنة ١٨٣٦



اللورد بالمرستون

وزير خارجية انجلترا

قدم سفراء الدول «المذكرة المشتركة» وفيها يذكرون الباب العالى بأن الدول الخمسة متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية ويطلبون من حكومة السلطان أن لا يبرم أى اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول (١)

فتقبل الباب العالى هذه المذكرة بالشكر ولكن يظهر من الخطاب الذى أرسله خسرو الى محمد على أن كبار الدولة كانوا يفضلون تسوية المسألة مباشرة مع محمد على وانهم ينظرون إلى تدخل الدول فى مسألة بين السلطان والوالى من غير ارتياح . إلا أنه لم يسع الحكومة العثمانية أمام مطالب الدول إلا موافقتها

أثر تقديم المذكرة المشتركة

وأعلن معتمدو الدول المذكرة إلى محمد على فى ٦ اغسطس سنة ١٨٣٩ فاشتد غيظه من خسرو وهو المسئول فى نظره عن قبول مثل هذه المذكرة التى سلبت السلطان استقلاله ووضعته تحت حماية الدول فى أوربا وعلى ذلك أرسل لوكيله بالقسطنطينية ان يستمر فى مفاوضة الباب العالى كأن لم تقدم هذه المذكرة. إلا أن تقديم المذكرة للباب العالى من الدول الخمسة لم تكن لتتوقعه فرنسا التى كانت تحسب أن حكومة الروسيا لا يمكن أن تشترك مع باقى الدول فى اتخاذ هذه الخطوة . وكانت نتيجة اشتراك الروسيا احداث تغير عظيم فى مجرى الحوادث السياسية الآتية فقد كتب سفير فرنسا بلندن إلى حكومته يقول « ان اتفاق الروسيا الفجائى مع باقى الدول لم يكن منتظراً قط وان الوقت قد حان لتغيير سياسة الريب والتهديد ازاء الروسيا » (١)

---

(١) اوراق برلمانية : رسالة نمرة ٢٢٦

(٢) اوراق برلمانية : « بوركنى » الى « سولت » ١٨ اغسطس سنة ١٨٣٩

الفصل الثامن

عند مفترق الطرق

بتقديم المذكرة المشتركة انتهى الفصل الأول من المسألة الشرقية

ظهور بالمرستون

ولكن انضمام الروسيا الفجائى إلى جانب الدول كان بمثابة ضربة لفرنسا جعلتها تضطرب وتحار فى سياستها ، وأصبح « بالمرستون » بعدها ذا اليد الطولى فى إدارة الأمور بمهارة ومقدرة فائقة . تقلد « بالمرستون » وزارة الخارجية الانجليزية فى ١٨٣٢ وسار على منهج استاذه « كاننج » فى اتباع خطة هجومية لا يتقيد بتقاليد حزبية أو بمعاهدات ، بل كان رائده فى سياسته المصلحة وبعد الصيت وكان فى ذلك الوقت فى السابعة والاربعين من عمره نحيفا وجريئا لا تزعزعه الحوادث ولا يأبه بمن يخالفه فى رأيه وكان مستقلا فى ادارة شؤون وزارة الخارجية . لا يتدخل فى أعماله لا ملك ولا وزارة . وكان اذا نوقش فى « البرلمان » فى خطته السياسية تجنب الموضوع الأساسى للمسألة وأفاض فى الكلام على نقط الموضوع الفرعية وختم الكلام ختاماً مقبولا من الجميع . وبالفعل كان « بالمرستون » ككل سياسى لا يبالى بما يقوله أو بما يسلكه من السبل مادام ذلك كله فى سبيل تنفيذ أغراضه ، فلا غرابة إذن أن يصبح « بالمرستون » قطب السياسة الأوربية فى زمن كان يعيش فيه « مترنخ » و « لوى فيليب » « ونقولا » .

خطة بالمرستون

وقد قر رأى « بالمرستون » فى سياسته ازاء مسألة الشرق من أول ما بدأ النزاع بين الباشا والسلطان فقد كتب الى سفيره بباريس « اللورد

جرانفيل » يقول: « انه قد استقر رأيه فى الموضوع منذ زمن طويل وهو وجوب مساعدة السلطان بكل قوة وإخلاص سواء اشتركت فرنسا أولم تشترك .[1]

ولما نشبت الحرب بين السلطان ومحمد على صمم «بالمرستون» على شيئين : الأول عدم مساعدة محمد على بأى حال من الأحوال والثانى عدم السماح للروسيا بالانفراد فى العمل . واذ أن ثقته فى الروسيا والنمسا كانت قليلة وصل أواصر الاتحاد بينه وبين فرنسا خوفا من اتحاد فرنسا مع الروسيا ولكن زالت مخاوف «بالمرستون» منذ أن وقع « بوتنف » سفير الروسيا بالقسطنطينية مذكرة الدول ، وعد «بالمرستون» هذا العمل من قبل الروسيا نزولا عن المركز الاستثنائى التى حصلت عليه بمقتضى معاهدة «هنكار سكلسى ». عند ذلك وجه «بالمرستون» كل مساعيه ليضعف من النفوذ الفرنسى فى الشرق وذلك بقهر محمد على وتحديد مطالبه. حقاً أن «بالمرستون» قد أرضى محمد على لما رفض الدخول فى معاهدة هجومية مع السلطان وحين شدد على الباب العالى أن يتجنب محاربة محمد على . ولكنه فعل كل هذا رغبة فى خدمة السلطان لا حباً فى محمد على . والآن وقد نشبت الحرب وعرفت نتيجتها وتدخلت الدول وقدمت المذكرة المشتركة عزم « بالمرستون » على تسوية المسألة الشرقية تسوية نهائية.

بالمرستون ومحمد على

لم يكن محمد على فى نظر «بالمرستون» إلا عنصراً ناخرا فى جسم الدولة لا بد من بتره حتى تتمكن الدولة من الحياة والوقوف امام الروسيا فلم يكن شأنه شأن الدول وخاصة فرنسا التى كانت تعتقد أن الرجل المريض

---

(١) «حياة بالمرستون» جزء اول : من بالمرستون الى جرانفيل ٥ يونيه سنة ١٨٣٨

صائر إلى الموت وأنه يحسن بالدول توزيع التركة على وارثيه . بل كان من فكره أن الدول التى عاشت طويلا يكون سقوطها بطيئا وان الدولة على أى حال ستبقى إذا ما قوينا بنيانها بدلا من هدمه .(١)

وعلى ذلك كان يعتقد « بالمرستون » أن الواجب يقضى بطرد حكومة محمد على من سوريا ومن مصر إذا امكن . وعزز كلامه فى البرلمان رداً على انتقادات المستر « هيوم » نائب « كلكنى » بقوله « إن مركز محمد على بمصر يشبه مركز نائب الملك فى ايرلنده إذا أراد تكوين حكومة وراثية لأسرته فى إيرلنده واسكتلنده ولست أرى كيف أن حسن إدارة الحكومة فى مصر يمكنها أن تؤثر فى مسألة سياسية عظمى تمس مصالح بريطانيا . وهى مسألة بقاء الدولة العثمانية أو تجزئتها »(٢) ولما طالبه المستر « هيوم » بتعريف وحدة الدولة العثمانية وتفسير إحتلال بريطانيا لعدن واغتصاب الروسيا وفرنسا لكثير من املاكها لم يحر « بالمرستون » جواباً وغفل عن الرد . وعلى ذلك لم ير بالمرستون فى ١٨٤٠ مبرراً لتعضيد حكومة محمد على وهو الذى قال عنه فى سنة ١٨٣٨ فى رسالة « لكمبل » « انه ما رفع اسم محمد على فى نظر حكومات أوربا إلا جهوده العظيمة التى قام بها فى سبيل تأييد السلام فى بلاده ومساعيه الناجحة فى إقامة دعائم العدل بين رعاياه »(٣). ورغب أن تعترف حكومة انجلترا فى مقابل ذلك من تلقاء نفسها باستقلال المستعمرات الاسبانية فى أمريكا وتؤيد

---

(١) حياة بالمرستون » الجزء الثانى بالمرستون الى بلور ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٩

(٢) مجموعة « هنسرد » ٢٧ مارس سنة ١٨٤٠

(٣) اوراق برلمانيه بالمرستون الى كمبل يوليه سنة ١٨٣٨

الحركات النيابية فى اسبانيا والبرتغال وتسعى جهدها فى سبيل استقلال اليونان والبلجيك وتضن مع ذلك على محمد على منشىء السلام والعدل فى مصر بكلمة واحدة فى سبيل تأييده .

ارتباط فرنسا بمحمد على

ويظهر أن سبب العداء الذى كان يظهره بالمرستون لمحمد على هو اتحاد مصر الوثيق بفرنسا ونابليون فقد أصبح محمد على فى نظر الفرنسيين نابليونا آخر يبذر بذور المدنية الفرنسية أينما قامت حكومته . زد على ذلك شكر الفرنسيين لمحمد على لاستخدامه كثيراً من أنصار الامبراطورية الفرنسية الأولى فى حكومته . وكان الفرنسيون ينظرون إلى أعمال محمد على بعين الأعجاب والفخر لأنه أنشأ حكومة ودولة أقوى كثيراً من الحكومة التى أقامتها جيوش أوربا وعواطف شعوبها على اطلال اليونان القديمة [1]

من أجل ذلك أصبح محمد على محل أعجابهم ووجدت الحكومة الفرنسية فيه حليفا تعتمد عليه فى نشر نفوذها على سواحل البحر الأبيض المتوسط ضد نفوذ انجلترا . وفوق ذلك كانت فرنسا ترى فى تعضيدها لمحمد على تعضيداً وإنهاضاً لتركيا نفسها . ومع انه لم يكن من رأيها استقلال محمد على استقلالا تاما عن الترك كانت ترى أن يبقى محمد على وممتلكاته جزءاً من نظام الدولة العلية التى ضمنت الدول استقلالها ووحدتها .

غلطة فرنسا السياسية

غير أن سياسة فرنسا فى الحقيقة لم تكن بمثل هذه الصراحة فلم تعلن فرنسا آراءها للدول على الرغم من ظهورها دائما بمظهر المعضد لمحمد على وفضلت أن تخفى الحقيقة وتظهر للدول أنها كغيرها صديقة للسلطان .

---

(١) راجع « مذكرات السير شارلس مرى » عن محمد علي

وفوق ذلك كانت تعمل دائماً سراً وعلانية ضد سياسة الروسيا . وكانت نتيجة هذه الآراء المتضاربة انضلت سياسة فرنسا طريق الصواب وأدى ذلك إلى وضع المذكرة المشتركة وتقديمها إلى الباب العالى . وهنا غلطة فرنسا الكبرى فانه لم يكن من مصلحتها الاشتراك فى تقديم مثل هذه المذكرة فى حين أنها تعلم أن آراءها فى مستقبل محمد على لم تكن لتوافق عليها باقى الدول

خطة الروسيا

أما الروسيا فقد وقعت على المذكرة لعلمها بأن اكتساب ثقة الدول وخاصة ثقة انجلترا أنفع لها كثيراً من مركزها الوهمى على البسفور . وأما النمسا فانها رضيت بفكرة اجتماع مؤتمر الدول للبحث فى المسألة الشرقية

وماذا كان يهم « مترنخ أو نيقولا » من جهة محمد على أو بشأن ماينمحه السلطان من الأقاليم بجانب الأزمة السياسية بأوربا وما يمكن أن تنتجه من المنازعات ؟ وحال تقديم المذكرة بدأت فرنسا تصلح خطأها الأول وذلك بأيضاح شروط الصلح مع محمد على . وقد أرجأت الحكومتان الانجليزية والفرنسية المناقشة فى تجديد الأقاليم التى تمنح لمحمد على لتظهرا بمظهر الاتحاد التام أمام الروسيا فى أول الأمر .

ظهور الخلاف بين انجلترا وفرنسا

وأول ما بدأ الخلاف كان بشأن الأسطول العثمانى الذى وضع فى أيدى محمد على فقد كان من فكر الحكومة الانجليزية إخراج الاسطول بالقوة من المياه المصرية ولكن فرنسا اعترضت على استعمال القوة ضد محمد على وفى المرة الثانية نشأ خلاف بين الحكومتين بسبب وجود اللورد « بنسبنى » السفير الانجليزى بالقسطنطينية الذى كان يعمل ضد اغراض الحكومة الفرنسية .

أما الخلاف الحقيقى بين الحكومتين فانه نشأ بسبب مسألة الأقاليم

التى تمنح لمحمد على . فقد كتب «سولت» الى سفيره بانجلترا فى ٢٦ يوليه يقول : إن محمد على لا بد أن يشعر بتحسين مركزه عقب انتصاره على السلطان الذى هاجمه من غير حق وله على ذلك أن يطمع فى أكثر مما كان يستحقه وإذا أغفلنا ذلك نكون قد أنكرنا الحقائق المؤكدة . (١)

ثم استطاع «بالمرستون» أغراض حكومة فرنسا فعلم أنها تريد اعطاء محمد على حق الوراثة فى حكم الولايات التى يحكمها ماعدا «أطنه» و«كريد» وبلاد العرب . (٢)

غير أن «بالمرستون» كان يظن انه إذا بقيت سوريا تحت حكم محمد على فانه لا يمكن أن يتم سلام بينه وبين السلطان وفوق ذلك فان استحواذ محمد على على سوريا يجعله سيد الطريقين إلى «الهند» طريق «السويس» وطريق «الفرات»، وسيادة محمد على تنطوى على امتداد النفوذ الفرنسى فى الشرق وهذا ماكان يريد «بالمرستون» إيقافه. وعلى ذلك أعلم «بالمرستون» الحكومة الفرنسية باعتقاده أن الصحراء يجب أن تفصل بين ممتلكات محمد على والسلطان وأن الواجب يقضى بأن ينكمش محمد على فى مهده الأول « مصر » (٣)

فلما عارضت حكومة فرنسا زاد ارتياب « بالمرستون » فى نية الحكومة الفرنسية واستبعد اتفاقها معها فى سياسته فتحول إلى نقطة أخرى يختبر منها حقيقة شعور الحكومة الفرنسية نحو محمد على فطلب منها إبداء رأيها

---

(١) اوراق برلمان : سولت الى بوركنى ١٦ يوليه سنة ١٨٣٩

(٢) « مذكرات جيزو » جزء رابع ص ٣٤٣

(٣) «تاريخ حياة بالمرستون» من بالمرستون الى بلور اول سبتمبر سنة ١٨٣١

بشأن الوسائل القهرية التي ترى انه يجب أن تستخدم ضد محمد على فى حالة اصراره على مواصلة الحرب ضد السلطان أو فى حالة رفضه للشروط التى ستقدم اليه وامتناعه عن تسليم الأسطول العثمانى، وكانت هذه المسألة من أدق النقط فى نظر الحكومة الفرنسية ولا تستطيع أن توضح رأيها فيها فلم ير « سولت » مندوحة عن أن يقول انه يجب الاتفاق على الشروط قبل كل شىء . غير أن « بالمرستون » علم الحقيقة من سفيره « بلور » وهى أن فرنسا لا يمكنها أن توافق أبداً على استخدام وسائل قهرية ضد محمد على [١] فزالت ثقة « بالمرستون » بفرنسا وأخذ يتهمها باغراض ومطامع شخصية تعمل لها وتخشى التصريح بها وأنها لا تعنى بمصالح السلطان جانباً من الأهتمام هذا إلى عدم احترام عهودها وتصريحاتها . [٢]

***

انتهاز الروسيا فرصة الخلاف بين الحكومتين

أسرع سفير الروسيا بباريس وأخبر حكومته برفض فرنسا استخدام الوسائل القهرية ضد محمد على وأشار إلى الخلاف الواقع بين فرنسا وانجلترا فى هذه المسألة . وكانت خطة الروسيا فى ذلك الوقت تدعو إلى الأعجاب فقد كتب وزير الروسيا الكونت « نسلرود » إلى الدول ليوجهوا مساعيهم نحو الاسكندرية بدل توجيهها إلى القسطنطينية حيث لا يتوقع فيها خطر مطلقا وان الروسيا وإن أظهرت فى هذه المذكرة غيرتها على القسطنطينية فقد كانت تحبذ مع هذا فكرة المفاوضة مباشرة مع محمد على . غير ان مترنخ « وبالمرستون » لم يرغبا فى الاعتراف بمركز محمد على المستقبل

(١) من « بلور » الى « بالمرستون » ٢٦ اغسطس سنة ١٨٣٩

(٢) « بالمرستون » الى « بلور » ٢٤ ستمبر سنة ١٨٣٦

فيفاوضاه مع ان الدول كانت على علم باتفاق محمد على مع السلطان عند «كوتاهيه» وان السلطان قد أرسل مندوبين من قبله للمفاوضة مع محمد على، وعلى ذلك تغافلت الدول عن حقيقة الاحوال وولت وجهها نحو فرنسا تستفسر عن رغبات محمد على .

ولما وصلت رسالة السفير الى روسيا تنبه القيصر وأراد أن ينتهز فرصة الخلاف بين انجلترا وفرنسا فيصلح علاقات الروسيا بانجلترا ، وكان كره القيصر لاتحاد حكومتي الغرب النيابيتين كرها لا يفوقه الا كرهه الشخصى «للوى فيليب» ملك فرنسا ففطن « نسلرود » لرغائب «بالمرستون» وبادر بارسال مندوب خاص الى حكومة انجلترا خوفا من أن تتحسن العلاقات ثانيا بين انجلترا وفرنسا وكتب سفير انجلترا فى بطرسبورج الى بالمرستون يقول «انه مادعا القيصر لارسال المندوب الخاص الا علمه بأن حكومة انجلترا قد حسنت ظنها بروسيا وأخذت تنظر الى سياسة القيصر ورغائبه بعين العدل والموافقة»[1]

رسالة البارون « برنوف » الى انجلترا

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٣٩ وصل البارون « برنوف » الى لندره وكان سياسيا قادراً وملما بسياسة الروسيا الخارجية وبآراء القيصر ففاتح الحكومة الانجليزية فى مهمته وأخبر بالمرستون أن الروسيا ترى ان يمنح محمد على حكومة مصر فقط وتجعل وراثية فى أسرته وان تخلى الاقاليم الاخرى وان الروسيا مستعدة للاتفاق مع باقى الدول فى استخدام أى وسائل قهرية تراها الدول، وعلى الروسيا ان تحمى القسطنطينية وآسيا الصغرى بصفة

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) الى بالمرستون فى ٢٧ اغسطس سنة ١٨٣٧

كونها منتدبة عن الدول لا بحق معاهدة «هنكارسكلسى» ، وقد ادهش البارون «برنوف» بالمرستون باعلانه استعداد حكومة الروسيا للنزول نهائيا عن هذه المعاهدة وان يحل محلها معاهدة دولية أخرى تحتم احترام المبدأ القاضى باغلاق البسفور والدردنيل امام جميع السفن الحربية . وزاد برنوف على ذلك أن أسرّ القول لبالمرستون بأن رفض فرنسا الدخول فى المعاهدة مما يزيد القيصر سروراً [١] . بعد ذلك أعلم بالمرستون فرنسا وباقى زملائه بفحوى الرسالة الروسية وجاء الردمن سولت ينحى على بالمرستون باللائمة ويقول ان غرض الروسيا ظاهر وهو فصل فرنسا من انجلترا وتدخلها فى القسطنطينية بمفردها، وقال فى الختام لسفيره ان فرنسا لا يمكن أن تسمح ابداً بدخول اسطول أجنبى أمام القسطنطينية مالم يظهر اسطول فرنسا أيضا [٢]

معارضة الحكومة الانجليزية

فاعتمدت الوزارة الانجليزية على اعتراض حكومة فرنسا واعتذرت عن قبول مقترحات «برنوف»، ولكن على الرغم من عدم موافقة الوزارة أبدى بالمرستون ارتياحه الخاص لاراء روسيا ورحب بمقترحات برنوف وأفهمه أنه يريد العمل مع الروسيا وترك فرنسا اذا رفضت الاشتراك فى المشروع المعروض

ولكن انفصال فرنسا عن انجلترا كان عملا لا ترضاه الوزارة ولا الملك، ولم يكن بالمرستون نفسه يريد الانفصال نهائيا لعلمه بأن فرنسا

---

(١) سجلات وزارة الخارجية من بالمرستون الى سفير الروسيا فى ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٣٩

(٢) من سولت الى بوركنى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩

وحدها هى التى يمكنها التأثير فى محمد على . وعلى ذلك اضطر الى ارضاء الوزارة فعدل شروطه الاولى ورضى أن يحيد عن مبدئه تفاديا من الانفصال عن فرنسا ففرض على سبستيانى السفير الفرنسى بلندره أن يمنح محمد على ولاية عكا زيادة على مصر ويكونان وراثيتين ولكن بشرط أن تشترك فرنسا فى قهر محمد على اذا رفض(١) فأبلغ السفير اقتراح بالمرستون الى حكومته وذكر ان هذه الشروط وان كانت لا تفى بأغراض فرنسا فانه يخاف أن تكون آخر ما يمكن الحصول عليه . ثم ما عتم أن جاء جواب الحكومة الفرنسية فكان مثيراً لغضب بالمرستون فانها لم تقتصر على الاحتجاج على استعمال الدول الوسائل القهرية ضد محمد على بل وضعت نفسها موضع محمد على ورفضت الشروط المقدمة قائلة «ان محمد على لا يخضع لشروط كهذه يرى فيها سقوطه وانه يفضل ان يثير الحرب ثانية فتكون أقل ضرراً به وأشد وبالا على أوربا . ان فرنسا ترفض ان تسوق محمد على الى نتيجة كهذه مع علمها تماما بأن هذا الرفض سيقرب ما بين انجلترا والروسيا » (٢)

السعى فى كسب فرنسا بجانب انجلترا

رفض تيير للشروط المقدمة

لم يسىء الى قضية محمد على شىء اساءة رد فرنسا عنه فان الشروط المقدمة كانت أقصى ما كان ينتظر ان توافق عليه بقية الدول . لذلك استقبل بالمرستون جواب الحكومة بسكوت تام ولما انتهى السفير من كلامه سحب باسم الوزارة الاقتراح المقدم وكانت نتيجة ذلك ان توترت العلائق بين الحكومتين وكانت الجرائد من الجانبين تضرم نار البغضاء وتثير شعور العامة

---

(١) من سبستيانى الى سولت فى ١٣ اكتوبر سنة ١٨٣٩

(٢) سولت الى سبستيانى فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٣٩

وخاصة فى باريس حيث كان محمد على فى المنزلة الاولى من قلوب الشعب الذى كان يعد أى اشتراك من جانب الحكومة فى حل ضار فى النهاية لمحمد على عملا ضد كرامة الوطن . وقد شارك الشعب فى هذا الشعور ,وزراء فرنسا والملك نفسه فاستدعت الحكومة سفيرها بالقسطنطينية أمير البحر «روسين » الذى اشتهر بعدائه لمحمدعلى،وردت الحكومة الانجليزية على ذلك باستدعاء الكولونيل كامبل معتمدها السياسى بمصر الذى اشتهر بالدفاع عن محمد على

مساعى محمد على لدى الديوان العالى

ولم تكن الاحوال فى الشرق هادئة أثناء ذلك فلم يكف محمد على عن السعى لدى ديوان السلطان والسلطانة الوالدة للموافقة على طلباته واتمام الصلح معه مباشرة بدلا من انتظار الدول لتصلح ما بينهما، ولم يكن الباب العالى بأقل رغبة فى عقد الصلح مع محمد على مباشرة وخاصة بعد أن اصطلح محمد على والوزير خسرو باشا وقد دعا ذلك السفير بنسبنى الى ان يكتب لحكومته يقول ان للباب العالى رغبة شديدة فى الاتفاق مع محمد على (١) . ولم يؤخر عقد هذا الاتفاق الا الحاف بنسبنى وتذكيره حكومة الباب العالى بأن مسألة الاتفاق ترجع الى الدول العظمى وتمسها فى أقرب مصالحها . فتأجل الاتفاق وطال عذاب حكومة تركيا امام قوتين قوة محمد على ذات التأثير السحرى فى الديوان والقسطنطينية وباقى الولايات ، وقوة الحلفاء الذين اكدوا لها الاتفاق والانجاز فى أول الامر ثم ما لبثوا ان اختلفوا اختلافا لا امل فى تلافيه بسهولة .

---

(١) بنسبنى الى بالمرستون فى اكتوبر سنة ١٨٣٩

وكان بالمرستون شاعرا بضرورة الاسراع فى انجاز الصلح ولذلك رحب بعودة الكونت برنوف الى لندره مزوداً برضاء القيصر عن تعديل الاقتراح الاول على حسب رغبة الحكومة الانجليزية وهو ان الروسيا توافق على دخول أسطول من دول الحلفاء الى البسفور مع الاسطول الروسى فى آن واحد .فزال بذلك كل اعتراض فى سبيل اتفاق الدول ، وأطلع بالمرستون السفير سبستيانى على تصريح الروسيا الجديد وأخبره بأن النمسا وبروسيا سيرسلان مندوبين الى لندره للاتفاق على ما يجب فأسرع سبستيانى الى اخبار حكومته بهذا النبأ فأحدث الخبر اضطرابا اذ لم يكن منتظراً أن الروسيا تتخلى عن مركزها الممتاز فى الاستانة ، وبذلك فقدت فرنسا أهم حجة تدافع بها عن خطتها أمام بالمرستون .ومع ذلك أبدى المارشال سولت ارتياحه العظيم من موافقة الروسيا غير المنتظرة ولكنه فى الوقت نفسه أبدى ارتيابه بشأن الاسباب التى دعت الحكومة الروسية الى تغيير أو تخطئة سياستها القديمة [1]

عودة برنوف واشتراك الروسيا مع انجلترا

فسئم بالمرستون من هذه الخطة التى اتبعتها فرنسا وصمم على العمل سواء انضمت فرنسا أو لم تنضم . أما فى فرنسا فثار الرأى العام ضد تحالف الروسيا وانجلترا وقام « تيير » فى مجلس النواب ينادى بأن واجب فرنسا يقضى عليها بمساعدة مصر بكل جهدها صونا لمصالحها ولشرفها .[2] وكانت نتيجة هذه الحركة أن انقلبت الحكومة وأصبح « تيير » رئيساً لها وعين « جيزو » سفيراً لفرنسا أمام قصر سنت جيمس وكان « تيير » من أشد

خطة المسيو تيير

(١) أوراق برلمانية : سولت الى سبستيانى فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٣٩

(٢) تاريخ اوربا السياسى «دبيدور» جزء اول ص ٣٧٤

أنصار محمد على وما كان ينتظر منه ان يوافق على اجتماع مؤتمر دولى يقضى على صاحبه . أما خطته السياسية فهى التمسك طبعا بمبدأ مذكرة ٢٧ يوليه ولكن كان رأيه انه اذا اتفق السلطان ومحمد على مباشرة فلا ينبغى أن تتدخل الدول وتلغى هذا الاتفاق . ومع ان هذا كان مخالفا للمذكرة كانت هذه الطريقة فى نظره هى التى بها يتمكن الباشا من كسب شروط فى مصلحته من غير اشتباك مع الدول . ولأجل أن يساعد فى اتمام هذا الحل أرسل « تيير » رسلا من لدنه الى القسطنطينية والاسكندرية لتسهل سبيل الاتفاق بين الطرفين وكتب الى سفيره فى لندره يحذره من الاشتراك فى مؤتمر أو فى اتفاق أو فى جلسات حتى يتسنى الاحتجاج على ما يقرر ولا يكون انفصال فرنسا ظاهراً . وأكد عليه أن يماطل قليلا ويكسب الوقت [١]

مندوبو الدول للعمل مع انجلترا

وبعد ذلك سارت المسألة ببطء إذ طلب الحلفاء مندوبا من تركيا ليشترك فى المؤتمر وكان قد حضر إلى لندره إثناء ذلك « نيومن » عن النمسا و « بيلوف » عن بروسيا ووصلتهما الأوامر من حكومتيهما أن يبذلا جهدهما فى تفهيم جيزو ضرورة الاتفاق وتحذيره من نتائج الانفصال. واستعملت النمسا نفوذها لدى بالمرستون ورغبت اليه أن يتساهل مع فرنسا مرة أخرى . وكان من رأى مترنخ أن لا يتم عمل من غير اشتراك فرنسا لأن أسطول انجلترا وحده لا يمكنه مساعدة الأتراك على طرد محمد على من الشام ولا بد من استعمال الجيوش البرية ولم تكن النمسا مستعدة لأرسال جنودها إلى الشام لأن الروسيا وانجلترا كانتا مشتغلتين

(١) « مذكرات جيزو » جزء خامس ص ٢٧

بحروبهما الأولى فى القوقاز والأخرى فى الأفغان والصين وكندا . لذلك اقترح مترنخ أن يعطى محمد على النصف الجنوبى من بلاد الشام زيادة على مصر « ولكن إذا رفض الباشا هذه الشروط فان النمسا لا تتردد فى اتخاذ الوسائل القهرية ضد محمد على وتضع أسطولها تحت تصرف بريطانيا والروسيا »(١)

فلم يمانع بالمرستون وبلغ الخبر إلى « جيزو » وهذا أبلغه الى حكومته فى ٧ مايو سنة ١٨٤٠ ولكن جواب « تيير » لم يكن أسعد حظا من جواب سلفه . قال « تيير » انه متأكد أن محمد على سيرفض الشروط ولا يقبل أبداً تقسيم سوريا ، وماذا تكون النتيجة لو طلب محمد على « أطنه » وهدد الدول بعبوره جبال طوروس وشبت نار الحرب ؟ (٢)

فضاعت بذلك فرصة ثانية لحل المشكل بطريق السلم . ولو كانت هذه الشروط عرضت على محمد على نفسه مباشرة ومن غير تأثير فرنسا لقبلها حتما . وقد نشأ عن هذا الرفض حدوث أزمة سياسية شديدة بين الدول ، وما سبب ذلك الا الفكرة المعكوسة التى كانت تشغل أفكار الفرنسيين من كبيرهم إلى صغيرهم من جهة قوة مقاومة محمد على فى بلاد الشام وكان « تيير » يعتقد تماما أن غالبية الوزارة الانجليزية لا توافق على مشروع بالمرستون ، كذلك كان من فكره أن النمسا وبروسيا ستضطران إلى التقهقر عاجلا أو آجلا . وعلى العموم كان « تيير » يعتقد أن الدول تتكلم ولا يمكنها أن تتفق على العمل سريعاً . وفى اثناء ذلك التردد يكون محمد على

---

(١) « مذكرات جيزو » جزء خامس ص ٨٠ ـ ٨٦

(٢) أوراق برلمانية تيير الى جيزو فى ١١ مايو سنة ١٨٤٠

قد سوّى شروط الصلح بينه وبين السلطان .

وفى غضون ذلك كانت الأحوال تجرى فى الشرق وفق رغبة «تيير» فقد سقطت حكومة خسرو باشا فى القسطنطينية وأصبح الصلح بين الجانبين قاب قوسين إذ أرسل محمد على فى ٢١ يونيه مندوبا خاصا ليهنئ السلطان بميلاد ابنه ومعه هدية قدرها ٢٠٠٠ كيس وفوق ذلك، فكانت رسالة سامى بك الى السلطان ترمى إلى الاتفاق على الشروط إذ أن العقبة فى سبيل الاتفاق قد زالت بسقوط خسرو باشيا وان محمد على مستعد لتقديم الأسطول العثمانى ولأخلاء بلاد العرب وكريد إذا رغب السلطان، وفى مقابل ذلك يلتمس محمد على منحه حكومتى سوريا ومصر وجعلهما وراثيتين فى نسله .[1]

وكان « تيير » قد أرسل رسلا من قبله لتسهيل طريق الاتفاق بين الطرفين فعلم بالمرستون بمساعى «تيير» وخشى انه إذا لم يقم بعمل حاسم فان المسألة تفلت من يده وتدخل فى حيز العمل الواقع

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) من هودجس الى بالمرستون ١٦ يونيه سنة ١٨٤٠

الفصل التاسع

الازمة السياسية فى سنة ١٨٤٠

كانت نتيجة موقف الجمود الذى وقفه «تيير» أمام الدول أن دخلت المسألة المصرية فى دورها المملوء بالحوادث العنيفة . فى هذا الدور وصلت الدول ، بعد بحث وتبادل آراء دام سنة ، الى انه لأجل استتباب السلم فى انحاء الدولة العلية يجب الاستعداد لخوض غمار الحرب. فى هذا الدور انفرط عقد الحلفاء وتهدم ما أبدته الدول مراراً من اتفاقها وفيه أيضاً ظهرت قوة محمد على بمظهر لا يتفق مع ما عرف عنه فى أوربا وقد امتلأ هذا الدور بالمناقضات الغريبة من تقرير وتغيير وعزل وإعادة مما زاد فى خبال الدول .

اسراع بالمرستون فى عقد المعاهدة

ترادفت الحوادث التي اضطرت بالمرستون الى العمل فقد جاء نورى بك مندوب تركيا وقدم للحلفاء مذكرة فى ١٨ مايو يشكو المحن التى حلت بتركيا من جراء تأخير الصلح فى الشرق ، ثم قدم شكيب المفوض العثمانى أمام مؤتمر الدول وقدم مذكرة للسفراء بلهجة شديدة قال فيها : « انه مهما بلغ الأيلام من جراء الاتفاق مع محمد على مباشرة فان إيلام تركيا من جراء عدم تنفيذ الأمانى الحسنة المدونة فى المذكرة المشتركة اكثر وأشد[1]

كذلك تذمرت حكومة روسيا من تأخير وتردد بالمرستون وأرسل سفير سنت بطرسبورغ يذكر بالمرستون بأن روسيا تنتظر بنافد الصبر

(١) أوراق برلمانية « شكيب » الى « بالمرستون» فى ٣١ مايو سنة ١٨٤٠

عزم حكومة جلالة الملك على الخطة التى ستتبعها من غير اشتراك فرنسا(١)

على أن بالمرستون لم يكن فى حاجة لمثل هذا التذكير فانه لم يتأخر عن العمل مراعاة لرأى الوزارة الانجليزية ولخواطر النمسا وبروسيا اللتين لم تريدا السير بدون فرنسا ، ولقد اجتهد مندوباهما فى اشتراك فرنسا فى الساعة الأخيرة فقدما مشروعا يعطى به محمد على مصر وراثية والشام طول حياته ولكن «تيير» رفض مرة أخرى وأصر على الوقوف منفرداً .(٢)

عند ذلك لم يبق أمام بالمرستون إلا طريقان إما أن ترجع الدول عن وعدها الأول لتركيا وتترك المسألة تحل بنفسها وحينئذ تكون الدول قد أضرت بمصالحها ولم تبر بوعدها . وإما أن تتقدم الدول لمساعدة السلطان من غير اشتراك فرنسا مؤقتاً . واختار بالمرستون ومندوبو الدول الطريقة الأخيرة . ذلك لأن الظروف جاءت وفق اغراضهم فقد أخفق سامى بك مندوب محمد على فى مهمته وأصبح رشيد باشا وزيراً . وكان هذا الوزير تركيا صميما تربى تربية غربية صحيحة فكان يعتقد أن الدولة يجب أن تبقى واحدة لا تتجزأ ولا ينبغى أن ينشئ محمد على أسرة مالكة فى قلب الدولة وأخذ بنسبنى يعضده على السياسة اللازمة فكتب يطالب من الدول تنفيذ مذكرة يوليه سنة ١٨٣٩ . ولما مال السلطان الى الاتفاق مع محمد على بمساعى سامى بك هدد رشيد بالاستقالة

ولكن أهم من هذا كله أنه حدثت حوادث لم تشجع على قطع

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (روسيا) سفير الروسيا الى بالمرستون ١٤ فبراير سنة ١٨٤٠

(٢) « مذكرات جيزو » الجزء الخامس ص ٢٠١

انتهاز فرصة الثورة فى الشام

تيار المفاوضة مع محمد على فحسب بل شجعت الجميع على ضرب محمد على ضربة مؤلمة ، ذلك قيام ثورة فى سوريا ضد الحكومة المصرية التى كانت تريد أن تنهض بالبلاد حربيا وزراعيا وتجاريا فأدخلت نظام الجندية والاحتكار وأدخلت نظام المحاكم الحديثة التى يتساوى أمامها الجميع مهما اختلفت نحلهم . كل هذا نظر اليه سكان الجبل نظر المستريب . غير أن الثورة لم تقم فعلا إلا بعاملين الأول التشجيع من قبل حكومة تركيا والسفارة الانجليزية بالقسطنطينية والثانى قيام ابراهيم باشا بنزع السلاح من سكان لبنان ، واستفحل أمر الثورة فشغل ابراهيم باشا بقمعها واهتم محمد على فأرسل لابنه نجدة قوية على رأسها حفيده عباس باشا فلم يمض إلا قليلا حتى أخلدت البلاد الى السكون وكتب المعتمد الانجليزى فى دمشق الى حكومته يقول إن الثورة قد انتهت .[١]

ولكن قبل وصول الخبر إلى أوربا كان بالمرستون قد استخدم حادث الثورة فى إقناع زملائه فى الوزارة بضرورة العمل ضد محمد على وكانت الآراء فى الوزارة الانجليزية منقسمة انقساما بينا ، فكان رئيس الوزارة اللورد « ملبورن » يخشى حدوث أزمة وزارية تفضى باستقالة الوزارة أو باستقالة بعض أعضائها فكان يعمل على التوفيق بين أعضاء الوزارة ، وكان بالمرستون مصراً على اتخاذ الخطوة النهائية وهى عقد المعاهدة من غير اشتراك فرنسا، غير أن الشعور العام فى قصر الملكة وبين الأحرار المتطرفين كان لا يميل الى التدخل ضد محمد على خوفا من انفصال فرنسا عن انجلترا . ولا يزال للآن عدد من الرسائل المقدمة لأعضاء البرلمان بطلب

المعارضون لبالمرستون

---

(١) أوراق برلمانية : من هدجس الى بالمرستون ١٦ يوليه سنة ١٨٤٠

العطف على قضية مصر وعدم اهمال مصالحها وتضحية الأنظمة الراقية التى أدخلها محمد على فيها ارضاء لسياسة المحافظة على كيان الدولة [1] وقد ظهر فى البرلمان نفسه عدد من الأعضاء يدافعون عن قضية محمد على.

تهديد بالمرستون الوزارة بالاستقالة

ولما رأى بالمرستون أن حزب المعارضين له قد قوى هدد الوزارة بالاستقالة إذا لم يعقد الاتفاق فقال فى جوابه لرئيس الوزارة « أرانى ازاء الاختلاف فى الرأى بينى وبين أعضاء الوزارة بشأن موضوع المسألة الشرقية الهام مضطراً لترك منصبى تحت تصرف رئيس الوزارة وان رأيى فى هذا الموضوع رأى صريح لا يقبل التحوير وهو أننا إذا تقهقرنا واحجمنا عن عقد الاتفاق مع الروسيا والنمسا وبروسيا لأن فرنسا لا تريد الاشتراك معنا فاننا نضع حكومتنا فى مركز مهين غير لائق وتصبح انجلترا كأنها آلة تحركها فرنسا. أما من جهتى فانى ما اقتنعت بشىء فى حياتى اقتناعى بصحة رأيى هذا ، وانى إذا كنت غير محق فى هذه المسألة فانى لا أرى لرأيى قيمة فى أى مسألة أخرى (٢)

ثورة الافكار فى فرنسا

فكانت النتيجة أن خشيت الوزارة السقوط واضطرت إلى موافقة بالمرستون ؛ فلم يبق أمامه الا اقناع النمسا وبروسيا بعدم انتظار فرنسا ولم يجد صعوبة مافى التأثير فيها لما كان جاريا فى فرنسا من الثورة فى الافكار والمظاهرات والمقالات الحماسية وذكرى الحروب والانتصارات النابليونية وذلك لسبب انتظار رفات نابليون من جزيرة «البا»، وعلى ذلك تم عقد الاتفاق فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠. وفى يوم ١٧ يوليه طالب « جيزو » الى وزارة

---

(١) رسالتا « توماس واجهورن » سنة ١٨٣٧ و سنة ١٨٣٨

(٢) « تاريخ حياة بالمرستون» الجزء الثانى : بالمرستون الى بلور ، يوليه سنة ١٨٤٠

الخارجية وهناك قرأ له بالمرستون مذكرة تنبيء (١) بعقد اتفاق بين الدول الأربع من جهة وتركيا من جهة أخرى لتهدئة الحالة فى الشرق . وأبدى بالمرستون أسفه لانفصال الدول المؤقت عن فرنسا ورجا أن لا يدوم الانفصال طويلا وان تستعمل فرنسا نفوذها فى الاسكندرية لدى الباشا لقبول شروط الاتفاق (١) أما جيزو فانصت طول الوقت ولم ينبس ببنت شفة ثم غادر مقر الوزارة وبلغ الخبر إلى حكومته

عقد معاهدة لندره يوليه سنة ١٨٤٠

تعهدت الدول بمقتضى الاتفاق بمساعدة السلطان فعلا فى اخضاع محمد على ، وبينوا فى لائحة خاصة أن يعرض السلطان على محمد على حكومة مصر وراثية وولاية عكا طول حياته وان يكون لمصر حق الاستقلال الداخلى بقيود متينة تربطها بالدولة مثل دفع الجزية وعدم تمثيل مصر فى الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح الألقاب الشرف وضرب النقود الخ ، وان يمنح محمد على فضلا عن مصر ولاية عكا طول مدة حياته فاذا لم يقبل هذه الشروط فى عشرة أيام تنقص من حقوقه حكومة عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل فللسلطان الحق فى اتخاذ أى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه . وفى وثيقة ثالثة وافقت الدول على أن الحالة فى سوريا والحالة السياسية الخطرة فى أوربا تحتم عليها الاسراع فى اتخاذ الوسائل الفعلية بلا تأخير ولا انتظار موافقة الحكومات على المعاهدة .

نقد المعاهدة

ويرى الباحث فى شروط المعاهدة تناقضا ظاهرا لحقوق محمد على وهو المنتصر فى ميدان الحرب الواقفة جنوده فى جميع البقاع التى يطلب بقاءها فى يده . وهو

« مذكرة بالمرستون » فى ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠

وحده الذى كان يمكنه لو شاء اثارة حرب أوربية عامه بأن يأمر جنوده بالزحف على القسطنطينية. على أن المعاهدة لم تكن مبنية على قاعدة منطقية إذ لابد أن يكون محمدعلى أحد رجلين. إما رجلا يستحق شيئا أو لا يستحق. فاذا كانت الحالة الأولى فلأى سبب عزلت فرنسا ووضعت شروط صبيانية لا يمكن أن ترغم محمد على او تؤثر فى رجل مثله. وسواء اعطى محمد على مصر وحدها أو هى والشام فأن العبث بكيان الدولة حاصل على كل حال، وإذا كان محمد على لا يستحق شيئاً فلم لم تشهر عليه الدول الحرب صراحة وتطرد جيوشه من الشام ومصر أيضاً؟

موقف فرنسا ازاء المعاهدة

لذلك لم يكن للاتفاق أثر حاسم الا سوء العلاقات بين انجلترا وفرنسا التى أصبحت منذ اعلان شروط الاتفاق من ملكها لوى فيليب ووزرائها إلى أصغر رجل فى حالة هياج شديد ضد اجماع الدول على فرنسا التى ثار ثائرها من أجل تألب دول أوربا عليها كما فعلت فى سنة ١٨١٥ واتفاقها على عزلها خارج هيئة الدول والاتفاق على حل مسألة حيوية أو أوربية من غير استطلاع رأى فرنسا بل وعلى غير رغبتها. وقدعد الفرنسيون اتفاق ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ اهانة لحقت الشرف الفرنسي وضربة قاضية لا بد من الانتقام بسببها. فقام «لوى فيليب» وهدد الدول بأنه سيتولى رياسة الشعب الثائر ويطلق «غول» الثورة من عقاله بعد أن عمل على كبح جماحه عشر سنوات(١) وكتب صديق الى «جيزو» يصف له الحالة فى فرنسا فقال «ان الشعور الحربى بالغ أشده وكل يريد الحرب. حتى الرءوس

(١) «تاريخ أوربا السياسى» لديبدور جزء أول : ص٣٨١

المعتدلة قد جرى فيها التيار وأصبحت تتوق للحرب وما من نائب كلمته إلا وصرح بضرورة اظهار قوة فرنسا »(١)

أما « تيير » فنزل عليه الخبر كالصاعقة لأنه لم تصله من « جيزو » معلومات محدودة عن توقع عقد الاتفاق . وكل الذى وصله عبارة عن الخلاف بين أعضاء الوزارة واحتمال استقالة بالمرستون ، لذلك اتهم جيزو بقلة النشاط وقصر النظر. ولكن الحقيقة هي أن جيزو قام بالواجب ولم يقصر فى شيء فكتب إلى رئيسه فى ١١ يوليه يقول « ان بالمرستون قد أوضح للوزارة آراءه بشدة واصرار وبين خطة العمل لعقد اتفاق مع الدول الاربع» (٢)

مسؤولية « جيزو » « وتيير »

أما الخلاف بين أعضاء الوزارة فقد صدق فيه حدس جيزو وانفرد لورد «هولند» ولورد «كلارندون» وهما عضوان من الوزارة وقدما اعتراضا للملكة ونصها: « تنصح الوزارة لجلالتك بالدخول فى اتفاق الغرض منه اخراج محمد على من سوريا . ويرى اللورد هولند واللورد كلارندون أن مثل هذا التدخل ليس من حسن السياسة ولا هو ضرورى لصيانة شرف تاج جلالتك ولا مفيد لمصالح رعايا جلالتك» (٣)

فاذا كان قد قصر جيزو فى انذار حكومته باحتمال ابرام الاتفاق فانما السبب فى ذلك يرجع الى حذر بالمرستون وكتمانه كل شيء حتى يتم الاتفاق ولا يخشى من اذاعة الخبر . فالغلطة نهائيا هى غلطة تيير وغلطة

---

(١) «مذكرات جيزو» الجزء الخامس : ص ١٥٠
(٢) « مذكرات جيزو » الجزء الخامس ص ٢١٣ و ٢٥٠
(٣) « تاريخ حياة كلارندون » لمكسويل الجزء الثانى ص ١٩٦

فرنسا التي رفضت مرارا كل المفاوضات التي عرضت على أعضاء الحكومة ولم يفكروا يوما فيما عسى أن يكون مركز فرنسا لو اتفقت الدول ضدها. لذلك لما فوجئت الحكومة الفرنسية بالاتفاق خفى عليهم طريق العمل وتخبطوا في سياستهم وخاصة أن فرنسا كانت مضطرة الى التمسك بمذكرة ١٨٣٩ التي وقعت عليها، فما كان يمكنها الوقوف في جانب محمد علي ومساعدته ضد الدول، إذ لا بد أن يجر ذلك الى حرب أوربية عامة لم تكن الحكومة في حالة تمكنها من الدخول فيها إلا بعد سنة على الأقل.

خطة الحكومة الفرنسية بعد المعاهدة

من أجل ذلك دعا الملك «لوى فيليب» اكبر رجال حكومته الى قصره للبحث في الحالة وقر رأيهم على إرسال رسل الى محمد علي ليشجعوه ويتعهدوا حصونه واستعداده الحربي وليخففوا من حدته، وفي اثناء ذلك يجب أن تستعد فرنسا للحرب. وكتب « تيير » الى سفراء حكومته يشير عليهم بملازمة التحفظ وابداء التأثر في معاملاتهم مع سفراء الدول. أما رد تيير على بالمرستون فكان رداً قوى الحجة. فقد كتب يقول « ان فرنسا ترى انه ليس من مصلحة السلطان في شيء ان تترك له اقاليم يعجز عن صيانتها وحكمها، كذلك لا ترى أي فائدة للسلطان من اضعاف الباشا الذي قد يكون قوة منيعة للدولة. وان فرنسا تعتقد انه ليس من الحكمة ولا من الاحتراس في شيء ان تقر الدول على وسائل تعجز عن تنفيذها، أو اذا نفذتها فبطرق ناقصة عظيمة الضرر » (١) وكتب الى جيزو يأمره بمعاملة بالمرستون كما عامله فيتلو عليه المذكرة ويوجه اليه الاسئلة بشجاعة

---

(١) اوراق برلمانية: مذكرة جيزو الى الحكومة الانجليزية في ٢٤ يوليه سنة ١٨٤٠

مستفهماً منه عما إذا كان لديه وسائل لمساعدة الثوار فى سوريا وما ذا يكون شأن الدول لو رفض محمد على الشروط التى يقدمها له السلطان رفضاً باتاً (١)

وكان « تيير » مصمماً فى الحقيقة على الدخول فى حرب أوربية إذا لم تحل العصابة الأوربية ، ولم يكن غرضه تعضيد محمد على فقط بل تمزيق معاهدات سنة ١٨١٥ وأعد إعتماداً ماليا عظيما للاستعداد للحرب، وزيد الجيش والأسطول وأخذ فى تحصين القلاع وانبعثت الحماسة فى داخل فرنسا وأخذ الناس يترنمون بالأناشيد الوطنية فى مجتمعاتهم .

وثوق بالمرستون فى النجاح

غير أن هذه المظاهر لم تؤثر فى بالمرستون الذى كان واثقا أن الملك لوى فيليب لا يمكنه الدخول فى حرب تجر معها ثورة قدتودى بعرشه، فكتب إلى « هودجس » المعتمد البريطانى بمصر يقول له ان فرنسا لا يمكنها أن تدخل فى حرب ضد باقى دول أوربا من أجل محمدعلى ، وليس لدى فرنسا من القوة مايمكنها من ذلك (٢)

وكانت فكرة بالمرستون تقضى بأخضاع محمد على عاجلا حتى اذا هزم رأى الفرنسيون أن لا ضرورة لدخول الحرب فتنتهى الأزمة بسلام . لذلك رأى ضرورة السرعة والانجاز فى العمل. فبينما كانت المفاوضات دائرة بين معتمدى الدول ومحمد على أرسل للأسطول البريطانى فى مياه البحر الأبيض المتوسط أن يقطع المواصلات بين سوريا ومصر وكلف ممثلو الدول فى سوريا إذاعة نصوص الاتفاق للعموم ،وأخذ « بنسبنى » ينظم حركة

(١) « مذكرات جيزو » جزء خامس : ص ٣٣٠ — ٣٣٥

(٢) أوراق برلمانية :بالمرستون الى هدجس ١٨ يوليه سنة ١٨٤٠

الثورة فى سوريا وشرع أعوانه يرسلون السلاح والذخيرة خفية الى الثوار (١)

قيام الثورة فى سوريا من عمل القسطنطينية

نعم ان الثورة كانت قد خمدت فى يوليه ولكن كان هناك وميض تذمر لو تعهده خدام السوء بالمال والسلاح لشبت نار الثورة وشغلت ابراهيم عن الزخف على القسطنطينية وعرقلت مساعيه الحربية والحلفاء يحاصرونه من البحر فكان مما لا بد منه لنجاح خطة الحلفاء اضرام نار الثورة فى الداخل . وفعلا نجح الحلفاء فى ذلك فكانت ثورة سوريا سبب اخفاق ابراهيم ومحمد على أمام الحلفاء . الا انه لم يكن من الشهامة فى شيء أن تتولى سفارة بريطانيا فى القسطنطينية تحريض قوم عرفوا بتمردهم ضد أى حكومة نظامية وخاصة بعد اعتراف ممثلى انجلترا نفسها بكفاءة ومقدرة الحكومة المصرية (٢) . ولقد كان حقاً على « تيير » أن يستفهم من الحكومة الانجليزية : «هل كان التحريض على الثورة من

---

(١) بالمرستون الى بنسبى فى ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠

(٢) ومما يؤيد اشتراك سفارة القسطنطينية فى اثارة الشعور ضد محمد على رسالة «بالمرستون» الى «بنسبى» عقب انتهاء الحوادث وهذا نصها: « انى انتهز هذه الفرصة لاذكر لك انه لما كان أهالى سوريا لم ينهروا السلاح فى وجه محمد على الا بتحريض الموظفين الانجليز أصبح من واجب الحكومة أن لا تدخر وسعا فى نصح السلطان بعمل كل ما يضمن تخليص السوريين من الظلم (١٢ ديسمبر سنة ١٨٤٠)

وقد بلغت نفقات الذخائر الحربية الموزعة فى بلاد الشام بوساطة السفارة البريطانية ٩٢٨ و ٤١ جنيها و ١٣ شلنا وقد طلبت الحكومة الانجليزية تسديدها من الحكومة العثمانية (فبراير سنة ١٨٤٠)

الأعمال التى تفيد الدولة العلية التى هى فى حاجة الى الراحة والطمأنينة ، وهل الثورة فى الشام تولد حب الطاعة والنظام فى قلوب رعايا السلطان ، وهل ينجح السلطان فى حكم هؤلاء القوم بعد أن اثارهم الباب العالى فى وجه الباشا ؟»(١)

***

استعداد محمد على لاستقبال المعاهدة

حين وصلت الى مسامع محمد على أخبار اتفاق ١٥ يوليـه أخذ يستعد فى مصر لدفاع عظيم خليق بهمته المعهودة فكون فرقا من الحرس الوطنى من جميع الصناع والفعلة وأخذ يدربهم على الحركات العسكرية . وأقام القلاع على الشاطىء من رشيد الى الاسكندرية وأمر بعودة جيش بلاد العرب ووحد الاسطولين العثمانى والمصرى تحت أمرة ضابط مصرى ، وأرسل الى سوريا لتقوية حصن عكا ثم أرسل ينذر الباب العالى بعاقبة تدخل الدول قائلا انها لا تكلف نفسها مؤونة حرب لا تجنى من ورائها مصلحة ذاتية

وأخذ يعامل معتمدى الدول بجفاء وصلف . ولقد شكا « الكولنيل هدجس » كثيراً مما كان يلقاه من المعاملة الجافة وكانت مهمة هدجس محفوفة بالشكوك إذ أرسله بالمرستون ليحل محل « الكولونيل كامبل » نصير

(١) أوراق برلمانيه : مذكرة جيزو ٢٤ يوليه سنة ١٨٤٠

(٢) كتب هودجس الى حكومته يقول : « ما كدت أطأ أرض هذه البلاد حتى حوطنى الباشا بالجواسيس ليراقبوا حركاتى ولذلك أصبح من الواجب استعمال الاحتراس الشديد لتجنب كل ما من شأنه اثارة شكوك الباشا وكل ما يشير الى الغرض الحقيقى الذى أرمى اليه » . مراسلات وزارة الخارجية : من هودجس الى بالمرستون ١٦ يناير سنة ١٨٤٠

محمد على ، وليدل الحكومة الانجليزية على بعض الأرشادات الحربية فيما إذا اقتضت الحال إرسال حملة ضد محمد على .[٢] وفى ١١ أغسطس حضر المندوب العثمانى رفعت بك حاملا شروط الاتفاق لعرضها رسمياً على محمد على فلما قدمت له بحضور معتمدى الدول قابلها بثبات تام وخاطبهم قائلا : «إن هذه الشروط لا يمكن قبولها وأنتم أعلم بأخلاق محمد على . فهو لا يقضى على نفسه بالموت وهو على قيد الحياة وانى لا أستطيع قبول شروط مذلة لى»[١]

رد محمد على المعاهدة ومعتمدى الدول

فكتب اليه المعتمدون يذكرونه بما للمعاهدات الدولية من القداسة وأنها لا تقبل التغيير والتبديل، فلم يؤثر هذا فى عزيمة محمد على واعتمد على تعضيد حكومة فرنسا وما كان عليه الشعور العام فيها إذ أكد له المسيو « كوشليه » معتمد فرنسا إن الحرب الأوربيـة لا محالة واقعة ، وقامت الجاليات الأجنبية واحتجت لدى حكوماتها على اتفاق الدول ضد محمد على . «وكانت الجالية الانجليزية أشد الجاليات احتجاجا وأكثرها سخطا على سياسة حكومتها وممثليها»[٢]

فقوى هذا الشعور عزيمة محمد على . وفى ٢٥ أغسطس حضر اليـه المعتمدين والمندوب العثمانى فلم يزد عما قاله فى الجلسة السابقة وأخبرهم بأن لا فائدة من الحضور ثانية بعد عشرة أيام لأنه ليس لديه إلا جواب واحد ثم صارحهم القول فأخبرهم بأن يعدوا العدة للسفر لأنه إذا نشبت الحرب

---

(١) سجلات وزارة الخارجية : من هودجس الى بالمرستون ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) هودجس الى بالمرستون ٢٣ اغسطس سنة ١٨٤٠

لا يمكن أن يثق فيهم ، «فالرحيل خير وأشرف لكم وآمن لى.» (١)

غير أن رفعت بك والمعتمدين مثلوا أمام الباشا فى ٥ سبتمبر على حسب التعليمات الرسمية ليسمعوا كلمته الأخيرة عن القبول أو الرفض . فقابلهم محمد على بمفاجأة غريبة ذلك انه يقبل الشرط الثانى من شروط الاتفاق وهو حكومة مصر الوراثية ، وأما عن سوريا فقال انه مستعد ان يطلبها « صدقة » من السلطان . وكان هذا الرأى نتيجة ما وصل اليه مجلس الحكومة الأعلى الذى اجتمع لهذا الغرض . فلم يكن من المعتمدين الا أن وضعوا العقبات وظنوا ان هذه حيلة يكسب بها محمد على الوقت فرفضوا الطلب واعلموه باتخاذ الوسائل القهرية من غير ابطاء . فأجابهم محمد على بقوله : « ليكن ذلك ولكن أرسلوا طلباتى الى لندره أو الى القسطنطينية » فطلب المعتمدون ضمانا لحسن نيته رد الأسطول العثمانى ،فانهال عليهم الباشا بصراخه وغضبه وانفض المجلس(٢) ولم يغادر المعتمدون الاسكندرية إلا فى ٢٣ اكتوبر .

قيام الحرب بين محمد على والدول

والحقيقة انه لا يفل محمد على إلا الحديد فقامت الحرب وتحملت انجلترا الجزء الأعظم منها ، إذ اقتصرت النمسا على إرسال قطعتين من الأسطول .ثم ما لبثت الثورة إن قامت مرة ثانية فى سوريا بفضل مساعى « وود » الموظف البريطانى الذى كتب الى بنسبنى يقول :« انه لم يدخر وسعاً فى تنظيم حركة الثورة ، وانه تكبد مشاق عظيمة ، وعرض نفسه

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) مقابلة محمد على ٥، أغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية (مصر) مقابلة محمد على فى ٥ ستمبر سنة ١٨٤٠

لأخطار جسيمة من أجل قيامه بالواجب.»[1] ثم فكر بنسبنى فى مشروع يسهل على «وود» نشر الثورة فنصح للباب العالى تحت مسئوليته بأصدار الأمر بعزل محمد على قائلا انه من العبث أن يترك محمدعلى ممتعا بنفوذ السلطان مع انه يستخدم نفس هذا النفوذ ضد وجود السلطان [2]

عند ذلك كانت الحرب قد دارت رحاها بين ابراهيم باشا فى سوريا والحلفاء الذين وقفوا بأسطولهم أمام السواحل بقيادة أمير البحر «استبفورد» ثم نزل الضابط البحرى « نابيير » وأصدر منشوره للأهالى يحرضهم فيه على القيام فى وجه الحكومة ،واشتبك الطرفان فى منتصف شهر سبتمبر ولم يمض قليل حتى كان النصر فى جانب الحلفاء بمساعدة أساطيلهم فاحتلت بيروت ثم نزلت قوة إلى البر مؤلفة من ٥٠٠، ٣ تركى ٥٠٠، ١ بحار انجليزى و ١٠٠ نمسوى فسقطت حيفا وصيدا . وفى ١٣ نوفمبر سقط حصن عكا المنيع عقب انفجار هائل من الداخل لم يعرف سببه . ولولا هذا الانفجار ما سقط الحصن فى ذلك الوقت ولدامت المقاومة طويلا [3] .

تقدم الحلفاء على السواحل

وبسقوط عكا انحطت قوى محمد على المعنوية. غير أن جيوشه التى تبلغ ٦٠،٠٠٠ بقيادة ابراهيم باشا كانت لا تزال متفوقة فى داخلية البلاد وكانت دمشق وحلب والقدس وغزه لا تزال فى أيديهم فلم يكن فى إمكان الحلفاء محاربة ابراهيم فى الداخل واقتصروا على مناوشة الجبليين لجيوشه،واكتفوا هم بتضييق الحصر البحرى على الموانىء المصرية وقطع الصلات بين سوريا

---

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) من وود الى بنسبنى ٣ اغسطس سنة ١٨٤٠

(٢) كان ذلك فى ١٥ ستمبر سنة ١٨٤٠

(٣)« الحرب فى الشام » الجزء الاول ص ١٩٦ ـ ٢٢٥

ومصرولم يدم تعضيدا لجبليين لهم طويلا بدليل ما كتبه «نابيير» إلى بنسبنى يقول انه إذا استمرت الحرب مدة فلا بد من أن يقوى حزب ابراهيم فى سوريا (١)

الازمة السياسية فى أوربا

وفى هذه الاثناء كانت الحوادث فى أوربا تنبىء بوقوع أزمة سياسية قد تؤدى إلى حرب عامة فى أى وقت . فقد توترت العلائق بين فرنسا والباب العالى و بلغ ذلك درجة أزعجت الدول. وكانت الحكومتان الانجليزية والفرنسية تبذل جهدهما لمنع ما يمكن أن يزيد الحالة تعقيداً بينهما، والفضل فى ذلك لوساطة الملك «ليوبولد» صهر لوى فيليب وخال الملكة فيكتوريا وملك باجيكا. ثم بدأ النزاع فى الوزارة الانجليزية من جديد وكاد الأمر يفضى الى الاستقالة لولا تدخل الملكة فيكتوريا نفسها ونصيحتها للوزارة بضرورة الظهور امام العالم مظهرا يوافق سمعة انجلترا ومركزها لتدرأ بذلك ما يمكن أن ينجم من النتائج السيئة

ثم جاء خبر عزل السلطان لمحمد على فقامت فرنسا قومة واحدة ، وفطن بالمرستون لما يمكن ان يؤدى اليه مثل هذا الحادث فبادر بابلاغ الحكومة الفرنسية ان هذا العزل عمل مؤقت لجأ اليه الباب العالى ليرغم محمد على على قبول الاتفاق (٢)

تعضيد فرنسا لمحمد على

ولكن الشعب الفرنسى لم يسكت واراد انتهاز الفرصة فيتقدم لمساعدة حليفه محمد على وبلغت الحماسة حداً جعل «اللورد جرانفيل» سفير

---

(١) «الحرب فى الشام» : الجزء الاول ص ٢٥٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية « فرنسا » بالمرستون الى جرانفل ٢ اكتوبر سنة ١٨٤٠

انجلترا فى باريس يكتب الى حكومته يقول « ان حالة البلاد بالغة الغاية فى الارتباك بسبب ثورة الافكار التى يخشى ان تهدد السلام فى أوربا وليس هناك حكومة يمكنها أن تمتنع عن مقاومة من يحاول قهر محمد على أو طرده من مصر»[1] وكتب «تيير» الى «جيزو» يخبره «بأن حكومة فرنسا تعد وجود محمد على كقوة سياسية فى العالم أمراً ضروريا ، ولا بد منه حتى يكمل التوازن بين حكومات العالم وذلك بسبب سعة الاقاليم التى يحكمها والبحار التى تحت سلطانه»(٢)

ولم يكن فى رسالة تيير شىء يشير الى العنف أو استعمال القوة فاطمأنت الوزارة البريطانية وهدأ روعها وكتب بالمرستون الى سفيره بالقسطنطينية ينبهه الى « أنه بمقتضى شروط الاتفاق يجب أن يعمل الباب العالى كل ما يوافق مصالحه بشرط ان لا يحيد عن نصح حلفائه له . فالدول توصى السلطان باعادة محمد على رسميا الى حكومة مصر وجعلها وراثية اذا ما أعاد الاسطول وأخلى جميع الاقاليم عدا مصر وملحقاتها فى افريقيا » (٣) ولكن مترنخ اقترح أن يطالب محمد على العفو أولا من السلطان . وهنا نترك بنسبنى يضع العراقيل فى سبيل الصلح مع محمد على على الرغم من أمر حكومته الصريح ليسهل عقد الصلح ما استطاع

---

(١) سجلات وزارة الخارجية « فرنسا » جرانفيل الى بالمرستون فى ٥ و٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية « فرنسا » من تيير فى ٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠

(٣) سجلات وزارة الخارجية « تركيا » بالمرستون الى بنسبنى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٤٠

فشل الحركه فى فرنسا

ولنعد الى فرنسا حيث الانظار متجهة من كل جوانب أوربا المشاهدة ما تقوم به الحكومة من المفاجآت الغريبة ، ولكن ما كاد العالم يستفيق من هول النظر الى حركات الجيوش والاساطيل حتى فتح عينيه فاذا هو يرى منظراً مضحكا مبكيا وهو سقوط وزارة « تيير » التى كانت تريد الحرب وقيام وزارة معتدلة برياسة « جيزو » . ذلك لأن الملك لوى فيليب لم يفكر فى الحرب بطريقة جدية بل كان يريد السلم بأى الوسائل . نعم سبق انه تكلم عن الحرب، ولكن كما أوضح لسفير انجلترا « الكلام عن الحرب شىء والدخول فيها شىء آخر » (١) ومما أضعف لوى فيليب خوفه من قيام الثورة. فقد تعدى عليه فوضوى يريد قتله فى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٤٠ وفى نفس هذا الشهر أيضاً حاول لوى نابليون الهرب من معتقله وتحريك الثورة زد على ذلك ما ظهر من ضعف محمد على فى سوريا وما كان يرسله بالمرستون من الكلمات المزرية ، فمن ذلك ما كتبه لسفيره « قل للملك ان فرنسا اذا تحدتنا فأن انجلترا لا تتردد فى منازلتها وانها إذا بدأت الحرب فأنه من المؤكد ان تفقد أسطولها ومستعمراتها وتجارتها . واما محمد على فأننا لا نفعل معه أكثر من قذفه فى النيل » (٢)

كل هذا أثر فى نفس لوى فيليب الذى فضل أن يعارض تيير على ان يعارض أوربا. وأخيراً جاء وقت افتتاح مجلس النواب فوضع تيير على لسان الملك خطبة عدائية حربية لم يقبلها الملك فسقطت الوزارة ، وتولاها من بعده المرشال سولت وجيزو فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠

---

(١) « تاريخ حياة بالمرستون » الجزء الثانى ص ٣٥٢

(٢) « « « من بالمرستون فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠

نيات تيير

ولقد أوضح تيير خطته فى مجلس النواب عقب انتهاء الأزمة فصرح بأنه كان « يرمى إلى زيادة جيش فرنسا الى ٦٣٩٫٠٠٠ وتكوين حرس وطنى يتألف من ٣٠٠٫٠٠٠ . ومتى تم له ذلك ، يوقف كل المفاوضات مع الدول المتحالفة بشأن المسألة الشرقية حتى يستعد وينصح محمد على بتجنب كل ما من شأنه أن يسبب تدخل فرنسا قبل الأوان . وبعد أن تتم المعدات تلح حكومة فرنسا فى طلب الغاء معاهدة ١٥ يوليه وتطالب أيضاً إعادة النظر فى معاهدات ١٨١٥ فتعدل بطريقة توافق مصالح فرنسا ومكانتها » (١)

مهمة « شارلس نابيير »

وكان سقوط وزارة تيير عهداً للناس بأن فرنسا لا تتحرك فى حرب من أجل محمد على . وعلى ذلك قسا الباب العالى واللورد بنسبنى فى معاملتهما لمحمد على ، لولا ما بعثته العناية الالهية فى قالب رجل حر شجاع هو « شارلس نابيير » من اكبر ضباط الأسطول الانجليزى . رأى هذا الضابط بعينى بصيرته أنه من الصعب اخضاع محمد على بقوة الأسطول منفردة ورأى قوة ابراهيم فى الداخل ، وفساد الحكم التركى الجديد الذى يريد الحلفاء تثبيته بدل حكومة مصر — رأى حقائق الحال فكان مرابطاً امام الاسكندرية ومعه خمس قطع حربية ففتح باب المفاوضات مع حكومة الباشا مباشرة .

اتفاقه مع حكومة محمد على

وكان « نابيير » من حزب الأحرار المتطرفين وكانت تصله الأخبار من أصدقائه بلندره ، فعرف فحوى الخطاب الذى أرسله بالمرستون . . . فى اكتوبر ، وبنى من تلقاء نفسه على ما جاء فيه أساس اتفاق بينه وبين

---

(١) جريدة « المونيتير الفرنسية » فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠

بوغوص باشا وزير محمد على المفوض بمقتضاه وعد محمد على بتسليم الاسطول العثمانى وبأخلاء ابراهيم باشا السوريا، وفى مقابل ذلك تعهد « نابيير » بأن تضمن الدول لمحمد على حكومة مصر وراثية وبأن لا تمس سواحل مصر بسوء وان تعود العلاقات بين مصر وسوريا، فرحب محمد على بالاتفاق على الرغم من نصيحة فرنسا له بضد ذلك لانه كان قد سئم من جمود فرنسا نحوه ووقع على الاتفاق فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٤٠. وكتب « نابيير » إلى حكومته يقول « إنه أخذ على عاتقه هذا العمل متحملا وحده تبعته، وأنه عمل ما رآه صواباً راجياً موافقة الحكومة . نعم إن التبعة خطرة ولكن يجب أن لا يحجم الضابط عن العمل من غير أمر متى كان العمل فى صالح الوطن (١)

غير أنه من دواعى الأسف أن السلطان لم يعترف بنص هذا الاتفاق إذ أنكره أمير البحر « استبفورد » واللورد بنسبنى والحكومة العثمانية ، ما عدا بالمرستون فانه وافق عليه . وأرسل إلى « استبفورد » يكلفه مثل الذى قام به نابيير ، ويكون بذلك قد اضطر بالمرستون فى نهاية الأمر إلى مفاوضة محمد على رأساً، ولو فعل ذلك من أول الأمر لكانت المشكلة قد انتهت من زمن من غير إراقة دماء . وهناك أسباب دعت بالمرستون لأن يخفف من غلوائه ضد محمد على. فقد كتبت اليه الملكة مرة بتاريخ ١٧ اكتوبر وأخرى فى ١١ نوفمبر تطلب اليه بشدة أن يخفف من حدته (٢)

موافقة بالمرستون على مشروع الاتفاق

---

(١) « الحرب فى الشام » الجزء الاول : نابيير الى بالمرستون فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٤٠

(٢) « مذكرات جرفل » الجزء الرابع ص ٣٥٠
و « خطابات الملكة فكتوريا » جزء اول ص ٢٤٨

ومن هذه الأسباب أيضاً وجود «جيزو» على رأس الوزارة الفرنسية فقد اضطرت الحكومة مجاراة للرأى العام أن تستمر فى معدات الحرب ولكن أصبح من الواجب على الحلفاء مساعدة «جيزو» ومصالحة فرنسا التى بدأت تهدأ ثائرتها عقب سقوط « عكا »

الفصل العاشر

خاتمة المرحلة الاولى

مفاوضة الدول رأسا مع محمد على

فى صباح ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠ نزل إلى الاسكندرية الضابط « فانشو » مندوباً من أمير البحر « استيفورد » قائد قوات الحلفاء ليبلغ محمد على رغبات الدول فقبل محمد على كل ما أشار به الضابط وكتب خطاباً يستعطف به السلطان وأرسله إلى الصدر الأعظم، ولكن لعبت الأيدى المستترة فى القسطنطينية فشك الباب العالى فى إخلاص محمد على وأرسل بنسبنى إلى قواده فى سوريا بأن يؤذوا جيش ابراهيم أثناء إخلائه سوريا على حسب أمر الباشا وعلى العموم لم يدخر بنسبنى وسعاً فى الاضرار بمحمد على حتى أن نابيير كتب يقول « لو كان لبنسبنى القوة لما تردد فى تضحية الأسطول البريطانى حباً فى إهلاك محمد على » (١)

معاكسة بنسبنى لمحمد على

وآخر ضربة من بنسبنى أنه أغرى الباب العالى بأن يمنح محمد على حكومة مصر ويهمل ذكر حق الوراثة، وكان الباب العالى قد تشجع بانكسار محمد على وأخذ يتبجح بطلباته إذ كتب رشيد باشا إلى المندوب العثمانى بلندرة يقول : « كيف توفق الدول الأربع بين مبدأ المحافظة على كيان الدولة ومنح محمد على حكومة وراثية (٢)

ولكن لم تكن هذه الألاعيب السياسية إلا لتوغر صدر النمسا

---

(١) « الحرب فى الشام » لنابيير الجزء الثانى ص ١٩٥

(٢) اوراق برلمانية : من رشيد باشا الى شكيب باشا فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٤٠

ارسال الفرمان

وبروسيا وروسيا فاحتج السفراء لدى الباب العالى وكانت النتيجة أن ارسل السلطان فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ . ولكن هذا الفرمان اشتمل على كثير من الشروط غير المعقولة كحق السلطان فى اختيار والى مصر من أسرة محمد على واستيلاء السلطان على ربع دخل مصر وتضييقات أخرى تتعلق بمنح الالقاب العسكرية وغيرها مما اثار غضب محمد على فرفض قبول الفرمان ما لم يعدل على حسب طلباته وكتب بها مذكرة وأرسل للسلطان يقول « ان الله سبحانه وتعالى لم يثقل كاهل العبد بشروط ليست فى وسعه فكيف يطلب السلطان خليفة الله فى أرضه ان يضيف الى منته شروطا لا يمكن تنفيذها »[1]

محمد على يطلب تعديله والدول تؤيده

وكتبت حكومة النمسا للسلطان والى الحكومة الانجليزية تهدد بالانسحاب من المحالفة اذا لم يعدل الفرمان على حسب طلبات محمد على وفعلا أمرت قائدها بأن لا يعمل ضد ابراهيم أو ضد مصر [2] وأرسلت حكومتا بروسيا والروسيا كتابة بهذا المعنى ، فلم يكن من بالمرستون الا أن أرسل خطابا الى سفيره بالقسطنطينية يلح عليه الحاحا شديدا أن يبذل كل جهده لدى الديوان لأرسال الفرمان بالتعديل المطلوب فى أقرب فرصة . فتم الفرمان الجديد ، وكان الوزير رشيد باشا قد استقال وخلفه فى وزارة الخارجية « رفعت بك » فعدل الفرمان بشأن أهم النقط . وهى أولا أن تكون الوراثة لأكبر أفراد الأسرة على حسب القانون العثمانى . — ثانيا — أن تحدد الجزية بمقدار ٨٠٠٠٠ كيس (٤٠٠٠٠٠ جنيه) — ثالثا — ان يكون للباشا حق منح الرتب العسكرية لغاية رتبة « قائمقام » ، وفى ٢٢

---

(١) أوراق برلمانية : من محمد على الى الصدر الاعظم فى مارس سنة ١٨٤١

(٢) « « : من بوفيل الى بالمرستون فى ٩ ابريل سنة ١٨٤١

مايو وافق السفراء على نص الفرمان الجديد وفى ١٠ يونيه قرىء الفرمان الجديد رسمياً فى قصر محمد على باحتفال لائق [1] وعلى ذلك يكون محمد على قد نجح فى تثبيت عرشه على أرض مصر بحسب الشروط التى أملاها هو.

بعد ذلك اهتمت الدول بمصالحة فرنسا فقبل جيزو ذلك بشرط ان تحل المحالفة وذلك بكتابة كلمة تنبىء بانتهاء الازمة الشرقية ، فتم ذلك ووقع الاربع الدول على قرار الانتهاء . واشتركت الدول الخمس فى التوقيع على « معاهدة المضايق » وهى اعلان من الدول بقبول المبدأ القديم القاضى باقفال البوغازات امام جميع السفن الحربية وفتحها للسفن التجارية

تلخيص ختامى

وعلى ذلك انتهى المشكل الدولى الذى شغل بال الحكومات مدة سنتين أصبحت الحرب الاوربية فى اثنائها قاب قوسين. ولو تركت الدول المسألة من غير تدخل ما بلغت الازمة أشدها ولاتفق السلطان ومحمد على على حل كما اتفقا فى سنة ١٨٣٣ بمرأى من الدول ،ولكن خشيت الدول تدخل الروسيا بمفردها وهذا الخوف جرهم الى التدخل فى شؤون الحكومة العثمانية تدخلا لم يسبق له نظير . ولما زالت الهواجس من جهة الروسيا

---

(١) وهذا نص اعتماد سفراء الدول فى القسطنطينية على الفرمان النهائى :
« نحن الموقعين ادناه ممثلى الدول الاربع العظمى حلفاء الباب العالى نعلن حسب طلب الباب العالى بانه قد وصلنا الفرمان الجديد المراد ارساله الى محمد على باشا حاكم مصر ولم نر فيه شيئا ايا كان يدعو الى معارضتنا. وعلى ذلك لم يبق علينا الا أن نطلب من الباب العالى ارسال الفرمان الى صاحبه بأسرع ما يمكن» ٢٢ مايو سنة ١٨٤١

استورمر : النمسا　　　كونجزمارك : بروسيا

بنسنبى : انجلترا　　　بوتنف : روسيا

بتوقيعها على المذكره الدولية فى يوليه سنة ١٨٣٩ سنحت فرصة لبالمرستون تمكنه من حل المشكل حسب مصالح السلطان التى كانت تتفق وقتئذ مع مصالح انجلترا

ولأجل تنفيذ هذه الخطة وجد بالمرستون ان لا بد من الانفصال عن محالفة فرنسا التى كانت مصالحها تتفق مع مصالح محمد على . فزاد الخلاف بين الحكومتين وأصبح الانشقاق مؤكداً، فاجتهد بالمرستون فى كسب الدول الاوربية الى جانبه وتم له ذلك لخوف هذه الدول وغيرتها من فرنسا. بعد ذلك ظهر لبالمرستون أن محمد على قد يعارض الدول ويقاومها بالقوة واذا اريدقهره فلا بد من الحرب، ولم يكن بالمرستون ولا حلفاؤه على استعداد تام للحرب وحيئنذ عنّ له أن يكسب اتفاق فرنسا بنزوله لها عن بعض شروط لمحمد على . ولكن فرنسا عاندت ورفضت مراراً واستعملت دعاوي عريضة أوغرت صدر بالمرستون .

وحدا فرنسا على سلوك هذه السياسة اتكالها على استحالة اتفاق الدول من غير اشتراكها واعتمادها على قوة محمد على العظيمة. ولكن خاب ظنها من الوجهتين فأن مصالح انجلترا فى المسألة كانت حيوية ولذا قر بالمرستون على عقد الاتفاق وضرب فرنسا ضربة أدبية أعادت اليها رشدها . نعم كان من المظنون أن تدخل فرنسا الحرب من أجل هذه الاهانة لولا مساعى ملكها لوى فيليب الذى كان يفهمه بالمرستون حق الفهم.

ثم ما لبثت قوة محمد على فى سوريا أن تداعيت تداعيا سريعاً ونجحت بذلك سياسة بالمرستون نجاحا كاملا . وأراد الباب العالى ان ينتفع بالفرصة فيقص من جناحى محمد على ، ولكن بالمرستون وحلفاءه فطنوا الى سوء

هذه السياسة فأوقفوا الباب العالى عند حده وفتحوا باب المفاوضة مع محمد على مباشرة، وانتهى المشكل بانضمام فرنسا الى الدول . وخرج محمد على من الأزمة مغلوبا فى الحرب لأنه اعتمد على تعضيد فرنسا له ، وحكومة فرنسا لم تزوده الا بالاقوال والدعاوى ، حتى اذا جاءت الساعة العصيبة أحجمت ، لأن الملك رأى غير ما كان يراه الشعب . غير ان محمد على نال أقصى أمانيه ومطامعه اذ ثبت عرش اسرته فى ارض مصر بموافقة الدول وسوّى العلاقات بين حكومته وبين الباب العالى بحسب الشروط التى اختارها لنفسه وبتسوية المسألة انتهت المرحلة الأولى من مسألة مصر

ملحق (أ)

مشروع لجمعية الأمم في سنة ١٨٤٠[1]

كانت دول أوربا العظمى قد قررت سنة ١٨١٥ فى مدينة ڤينا أن يجتمع مندوبون من قبلها فى مؤتمر غايته الاتفاق على الطرق التى تكفل بقاء السلم العام فى أوربا، وقد عقد المؤتمر ولكنه لم يأت بالغرض المرجو منه لأن الدول اقتصرت على تطبيق المبدأ من جهة واحدة. ذلك انها اهتمت فى المؤتمر الأوربى الأول الذى عقدته بشؤون غيرها من الأمم وغفلت عن نفسها واغلاطها فتركتها من غير قيد ولا شرع زاعمة أن الثورات الداخلية وحدها هى التى يخشى منها على بقاء السلم ونسيت أو تناست أن المطامع الفردية إذا تسلطت على إحدى الدول العظمى كانت مدعاة إلى نشوب الحرب لا محالة

وهناك أمران ساعدا على فشل المؤتمر الأوربى الأول قيام انجلترا ضد دول أوربا المستبدة ناصرة للممالك الصغيرة وقائلة بعدم التصدى لها فى شؤونها الداخلية. والثانى سعى كل من الدول العظمى فى اغراضها الخاصة بها من غير اكتراث لقانون الحقوق الشرعية ولا مراعاة لتخوم الممالك التى قررها مؤتمر ڤينا سنة ١٨١٥. فقد حدث ان تعرضت روسيا لشؤون الدولة العثمانية بين ١٨٢٨ — ١٨٣٣ وكادت تقضى على استقلال تركيا فى أوربا، وتعرضت النمسا لشؤون ايطاليا وتعرضت فرنسا وانجلترا لشؤون

(١) نشرها المؤلف فى مجلة « المقتطف » فى عدد ابريل سنة ١٩١٦

هولندا حتى باتت الحرب فى كل حادثة من الحوادث المذكورة على قاب قوسين وباتت فكرة السلام العام أملا مضيعاً ونسياً منسياً

كان من جراء هذه الحوادث وأمثالها ان علم سواس أوربا الذين كانوا يتوقون إلى السلم ان الضمان الحقيقى للسلام العام انما هو وضع حد لمطامع أية دوله من الدول العظمى نفسها تظهر ميلا الى التعدى وذلك باتفاق باقى زملائها عليها — لا فى مراقبة الدول الصغيرة وحراستها . ولو وجد مؤتمر على هذه القاعدة لعمر طويلا فى أوربا وليس فى التاريخ ذكر لجمعية الأمم هذه وانما توجد مستندات تاريخية تؤيد محاوله بعض الساسة تأليف جمعية للأمم فى أوربا ١٨٤٠ . فقد تولدت هذه الفكرة فى ڤينا والفضل فى ابرازها يرجع إلى رجلين الأول اللورد بوڤيل (السير فردريك لام) سفير بريطانيا العظمى فى ڤينا والثانى البرنس مترنخ رئيس حكومة النمسا وصاحب المبادىء الرجعية المعروفة وكان ذلك فى اغسطس سنة ١٨٤٠ أيام ان عكرت المسألة المصرية صفو أوربا وكادت فرنسا تشعل الحرب من أجل محمد على باشا . ويغلب على الظن ان الأوراق التاريخية التى نحن بصددها لم يسبق نشرها فان المستر « أليسن فيلبس » لم يشر فى كتابه الشهير « اتحاد أوربا » بكلمة ما الى هذه الخطوة الهامة فى سبيل تكوين جمعية الأمم . والاوراق المشار اليها تنبىء عن مشروع تكوين عصابة أوربيــة دفاعية من الاربع أو الخمس الدول العظمى التى أخذت على عاتقها اصلاح ذات البين بين الدول والوقوف أمام أى دولة سواء كانت من أعضاء الجمعية أو خارجة عنها تهدد السلم العام اما بالمظاهرات أو بالحرب الفعلية . ومقاومة جمعية الأمم لهــذه الدولة المتعدية إما أن

تكون بواسطة الاحتجاج أو باستعمال القوة لو قضت الضرورة بذلك

وتمتاز هذه الجمعية عن الجمعيات التى ألفت قبلها لتأييد السلم العام بثلاث نقط أولها وأهمها ان المشروع يقضى صراحة بوجوب العمل ضد أية دولة من الدول العظمى تسعى فى تهديد السلم العام . ثانيا: إن المشرع لا يقضى بتكوين جمعية دائمة لمندوبى الدول ، إنما يجتمع النواب بناء على دعوة ترسلها إحدى الدول أو فى حالة ما اذا أصبح السلم فى أوربا مهدداً فى نظر الجميع ثالثا: إن الدول فى هـذه المرة كانت مدفوعة بعامل الاخلاص لأجل المحافظة على السلم العام لا سعياً وراء مصلحة الملوك فقط بل وراء مصلحة الشعوب أيضاً ودوام سعادتها

ويلاحظ أن عدد الممالك التى تتألف الجمعية منها لم يحدد فى المشروع وذلك لعدم وثوق الدول بأمكان انضمام فرنسا اليهن على أن المادة السادسة من المشروع تقضى بقبول أية دولة أوربية فى الجمعية بشرط أن تحفظ الدول العظمى لنفسها حق دعوة من تريد أن تشركها من الحكومات فى جلساتها كذلك يلاحظ مطابقة روح المشروع لافكار اكبر القائلين بتأييد السلام العام . فقد قال المسيو نوبل صاحب الجائزة المعروفة « اذا عاهدت الدول نفسها بان تتحد ضد أول معتـد من الامم استحال وقوع الحرب وتعذر على أشد الحكومات عناداً سلوك أى طريق سوى السكون أو التحكيم » . وذكر السير فردريك بلوك « ان المنازعات على التفوق فى العالم لا يفصل فيها بالبراهين والحجج المنطقية وليس هناك الا علاج واحد مفيد وهو وجود عصبة تعمل على تنفيذ مبدأ السلام العام »

وهاك نص المشروع الذى وضعه سفير بريطانيا فى فينا بالاتفاق مع

البرنس مترنخ وهو [1]

المــادة الاولى

تتعهد الدول الاربع ... كل على حدة وبالتضامن بان لا تعمد نفسها الى استعمال القوة ضد أى حكومة أوربية من غير أخذ رأى الدول الاخرى الموقعة على هذه المعاهدة أولا حتى يمكن ان تنظر الدول فى رفع ظلامتها وانصافها بالطرق السلمية .

ملاحظة : « وافق البرنس مترنخ على هــذه المادة معتبراً انها أساس المشروع كله »

المــادة الثانية

اذا قدم طلب مثل هذا تتعهد الدول بالاجتماع فى المدينة التى تعينها الدولة التى طلبت الاجتماع للاتفاق معاً على الطرق التى تكفل منع الحرب ومتى درست الدول حقــائق الموضوع تسرع الى ازالة بواعث الحرب باستخدام نفوذها الادبى لحماية الدولة المهددة أو لتعيين التعويضات اللازمة حسب ظروف القضية .

« ملاحظة :هنا اقترح البرنس مترنخ ان تُعين المدينة التى يجتمع فيها فكان جواب اللورد بوفيــل أن قد تمضى سنة فى مفاوضات عديمة

---

(١) من سجلات وزارة الخارجية (النمسا) . شؤون خارجية من اللورد بوفيل الى اللورد بالمرستون وزير خارجية انجلترا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ « سرى »

الجدوى بشأن ذلك وان اللازم انه تعين المكان الدولة الطالبة للاجتماع فهى اعرف بالمكان الذى يوافقها. وأخيراً اقترح البرنس مترنخ أن يكون الاجتماع فى عاصمة الحكومة التي طلبته. ومع ذلك فيترك للمؤتمر حرية الانتقال الى المكان الذى يعتبره أكثر موافقة »

المادة الثالثة

اذا أصرت دولة مهاجمة على العدوان بالرغم من مساعى الدول الأخرى وفضلت استعمال القوة فللدول حينئذ وفى هذه الحالة فقط دون غيرها أن تأخذ التدابير اللازمة للدفاع المشترك وفى هذه الحالة يعتبر الهجوم ضد أى دولة كأنه هجوم ضد الجميع .

(ملاحظة : وافق البرنس مترنخ على هذه المادة)

المادة الرابعة

لكى لا يكون هناك أدنى ريب فى نيات الدول الحقيقية ازاء مشروع السلام العام تعلن الدول انه اذا هددت السلام إحدى الدول الموقعة على هذا فان الدول الاخرى تقوم بما فرض عليها كما هو مبين فى المواد السابقة وتعمل كما لو كانت هذه الدولة لا علاقة لها بالدول الاخرى ولا بهذه المعاهدة .

« ملاحظة : وافق البرنس مترنخ على هذه المادة »

المادة الخامسة

اذا لم يقدم للدول أى طلب ولكن اشتهر لدى الجميع أن السلام

العام فى خطر فالدول الموقعة على هذا تحفظ لنفسها حق الاجتماع فى عاصمة أى حكومة من بينها لاتخاذ التدابير والطرق اللازمة للمحافظة على السلام العام

« ملاحظة : وافق البرنس مترنخ على هذه المادة »

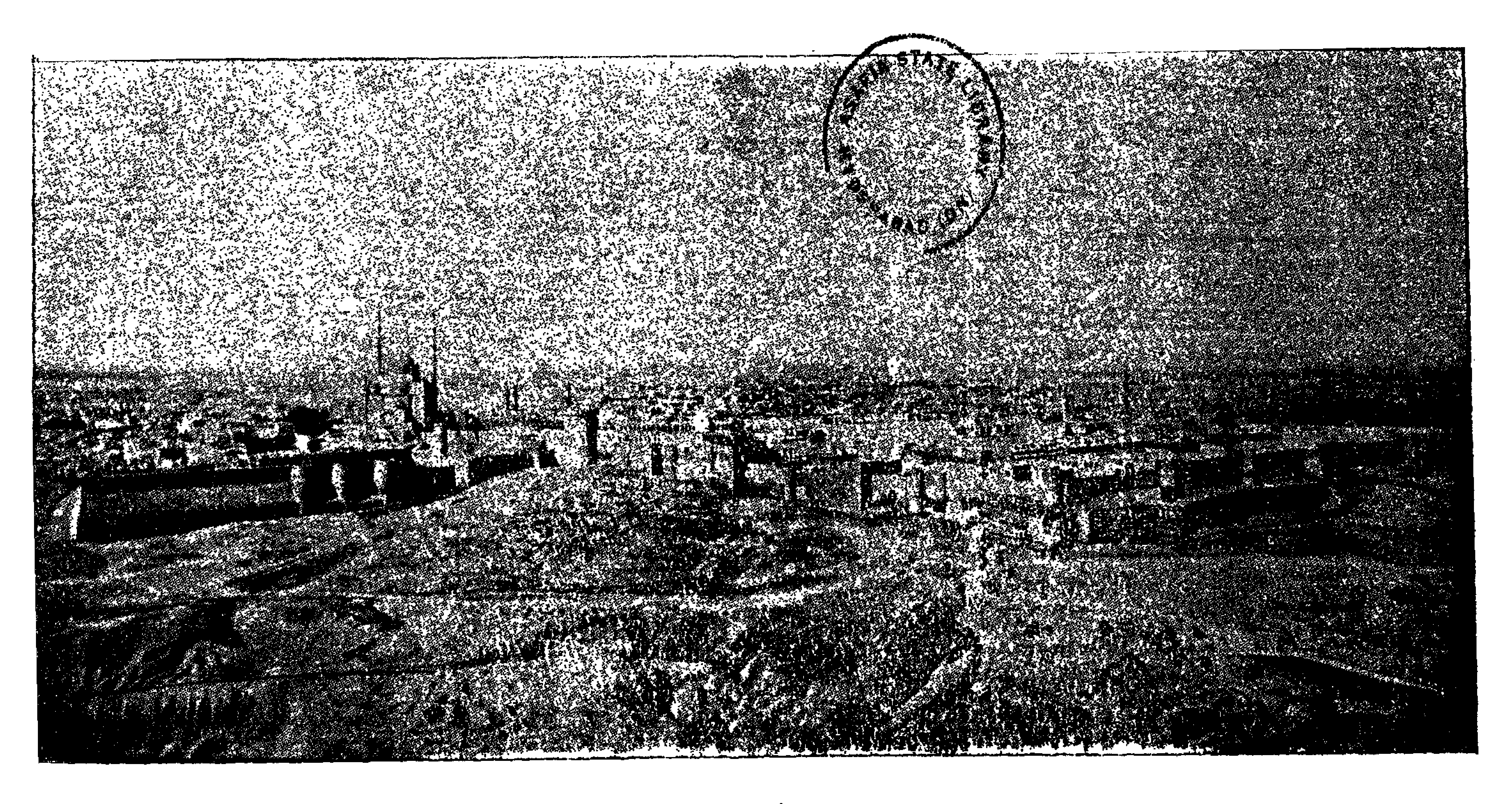
المادة السادسة

لما كانت رغبة الدول العظمى الاربع ... ان تتمتع أوربا بمثل هــذه الضمانات التى أخذتها الدول على نفسها فقد اتفق الدول على ارسال هذه المعاهدة الى الحــكومات الأخرى داعية اياها الى الانضمام اليها بشرط أن يبقى حق المذاكرة والفصل حسب نص هذه المعاهدة فى أيدى الدول الأولى الواضعة للمعاهدة .

« ملاحظة : صادق البرنس على هذه المادة ولــكنه ذكر انه يفضل الاشارة الى « معاهدة اكس لا شابل » التى تقضى بأن يشترك فى المذاكرة الحــكومات صاحبات المصالح فى المسألة المعروضة ولــكن من رأى اللورد بوفيل أن الأوفق عدم السماح بذلك لأنه لا بد أن تكون هناك دولة من الدول العظمى لها مصالح فى كل مسألة معروضة فهل يسمح لها بأن تكون حكما فى قضية تخصها . هذه مسألة معضلة وهناك معضلة أخرى وهى كيف يوفق بين فكرة دعوة حكومات أوربا للانضمام الى هذه المعاهدة وفى الوقت نفسه لا يسمح لها بالاشتراك فيما يقرره المؤتمر بشأن مصالحها الخاصــة ومع ذلك فالمشروع يكون عديم الفائدة من غير اعطاء هذا الحق للحكومات »



لم يقبل اللودر بالمرستون وزير خارجية انجلترا وقتئذ المداولة بشأن هذا المشروع لأن الأزمة السياسية التى هددت السلم العام فى اوربا كانت قد زالت بسقوط حكومة تيير فى فرنسا فى اكتوبر سنة ١٨٤٠



القلعة من ناحية جبل المقطم

ملحق ب

مصادر الكتاب

« مصادر أصلية »

١ ـ سجلات وزارة الخارجية بلندره
٢ ـ مكتبة المتحف البريطانى (المخطوطات)
٣ ـ الاوراق البرلمانية
٤ ـ « عجائب الآثار » فى أربعة اجزاء تأليف الشيخ عبد الرحمن الجبرتى
٥ ـ « سوريا ومصر » تأليف حنا باركر معتمد انجلترا فى مصر سنة ١٨٢٦ ـ ١٨٣٢ (انجليزى)
٦ ـ « نظرة عامة فى احوال مصر » فى جزئين لكلوت بك (فرنسى)
٧ ـ « تاريخ محمد على » تأليف مورييه فى ٤ أجزاء (فرنسى)
٨ ـ « مصر ومحمد على » تأليف « سنت جون » فى جزئين (انجليزى)
٩ ـ « مذكرات نابليون » تأليف « الكونت لا كاس » (فرنسى)
١٠ ـ « مصر فى سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٣٨ » تأليف « توماس واجهورن » (انجليزى)
١١ ـ « مذكرات جيزو » تأليف « جيزو » وزير فرنسا (فرنسى)
١٢ ـ « تاريخ حياة مترنخ » بنفسه (انجليزى)
١٣ ـ « الحرب فى الشام » تأليف « شارلس نابيير » فى جزئين (انجليزى)
١٤ ـ « تاريخ حياة بالمرستون » تأليف « هنرى بلور » فى ثلاثة اجزاء (انجليزى)
١٥ ـ « مجموعة هانسارد » للخطابات البرلمانية (انجليزى)
١٦ ـ « مذكرات جرفل » تأليف « هنرى جرفل » (انجليزى)
١٧ ـ « خطابات الملكة فكتوريا » سنة ١٨٣٧ — ١٨٦١ (انجليزى)

١٨ ـ « الثورة الفرنسية » تأليف « تيير » (فرنسى)

﴿ مصادر ثانوية ﴾

١٩ ـ « نابليون بونابرت فى مصر » تأليف « لاكروا » (فرنسى)
٢٠ ـ « تاريخ أوربا السياسى » تأليف « دبيدور » جزئين (فرنسى)
٢١ ـ « المسألة الشرقية » تأليف « دريولت » فرنسى)
٢٢ ـ « مسألة مصر » تأليف « ده فرسنيه » (فرنسى)
٢٣ ـ « البسفور والدردنيل » تأليف « غريانوف » (فرنسى)
٢٤ ـ « حقائق الاخبار عن دول البحار » تأليف «اسماعيل باشا سرهنك»
٢٥ ـ « الكافى » تأليف « شارو بيم بك »
٢٦ ـ « المماليك » للسير وليم ميور
٢٧ ـ « تاريخ أوربا منذ سنة ١٨١٥ » تأليف هازن (انجليزى)
٢٨ ـ « انجلترا وأسرة الاورليان » تأليف « هول » (انجليزى)
٢٩ ـ « التاريخ العام » تأليف « لافيس » (فرنسى)
٣٠ ـ « جورج كاننج » تأليف « تمبرلى » (انجليزى)
٣١ ـ « مذكرات عن محمد على » تأليف « السير شارلس مرّى »(انجليزى)
٣٢ ـ « مجموعة القوانين » تأليف « جلاد » (فرنسى)
٣٣ ـ « تاريخ حياة «اللورد كلارندون» تأليف« السير هربارت مكسويل»
انجليزى
٣٤ ـ « أوربا فى القرن التاسع عشر » تأليف « أليسن فيلبس »
٣٥ « تقدم دول أوربا » « « «

ملاحظة : هذه أهم ما نذكره من مراجع الكتاب . أما الكتب المدرسية فهى معروفة

ملحق (ج)

أسماء أهم الاعلام الاوربية الواردة فى الـكتاب

﴿ الفرنسيون ﴾

بليار	Belliard	« بليار » أحد قواد الحملة الفرنسية بمصر
بوالـكمث	Bois-le-Comte	مندوب فرنسي بالقاهرة سنة ١٨٣٢
بروى	Brueys	قائد أسطول الحملة الفرنسية
كلوت بك	Clot Bey	دكتور فى خدمة محمد على ومنشىء مدرسة الطب
كشلية	Cochlet	معتمد فرنسا بالقاهرة
سريزى	Cerisy	من منشئى الاسطول المصرى فى عهد محمد على
ديزيه	Desaix	أحد قواد الحملة
جيزو	Guizot	سفير فرنسا بلندره (مارس سنة ١٨٤٠) ثم وزير خارجية فرنسا اكتوبر سنة ١٨٤٠
كليبر	Klèber	القائد العام للحملة بعد عودة نابليون
لالند	Lalande	قائد أسطول البحر الابيض المتوسط سنة ١٨٣٩
ليبنتز	Liebnitz	أحد رجال لويس الرابع عشر
لوى فيليب	Louis philippe	ملك فرنسا سنة ١٨٣٠ — ١٨٤٨
مجالون	Magallon	ممثل الحـكومة الفرنسية باسكندرية قبل الحملة
ميزون	Maison	قائد الحملة الفرنسية بالموره سنة ١٨٢٨
مينو	Menou	القائد العام للحملة بعد قتل كليبر
منج	Monge	رئيس البعثة الفرنسية
ريني	Rigny	أمير البحر فى واقعة نوارين
روسين	Roussin	سفير فرنسا بالقسطنطينية
سبستياني	Sebastiani	سفير فرنسا بلندره لغاية فبراير سنة ١٨٤٠
سليمان باشا	Sèves	قائد بالجيش المصرى ومنشىء الجيش المصرى فى عهد محمد على

سولت	Soult	رئيس وزراء فرنسا لغاية فبراير سنة ١٨٤٠
تاليرند	Talleyrand	أحد أعضاء حكومة الادارة بفرنسا
تيير	Thiers	رئيس الوزارة من فبراير سنة ١٨٤٠ الى اكتوبر سنة ١٨٤٠
فارن	Varennes	معتمد بالقسطنطينية

﴿ البريطانيون ﴾

بوفيل	Beauvale	سفير بفينا
بورنج	Bowring	عضو فى البرلمان ومندوب لمصر سنة ١٨٣٧
بلور	Bulwer	سكرتير السفارة بالقسطنطينية ثم فى باريس
كاننج	Canning	وزير الخارجية ورئيس الوزارة سنة ١٨٢٧
كامبل	Campbell	معتمد بالقاهرة
كدرنجتن	Codrington	أمير البحر فى موقعة نوارين
فانشو	Fansahw	مندوب ليفاوض محمد على سنة ١٨٤٠
فريزر	Fraser	قائد الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٦
جرانفيل	Granville	سفير بباريس
هولند	Holland	أحد أعضاء الوزارة
هدجس	Hodgos	معتمد انجلترا بالقاهرة بعد كامبل
كيث	Keith	قائد أسطول البحر الابيض المتوسط سنة ١٨٠١
مندفيل	Mandeville	معتمد بالقسطنطينية
ملبورن	Melbourne	رئيس الوزارة
نابيير	Napier	ضابط فى الاسطول
بالمرستون	Palmerston	وزير الخارجية
بنسبنى	Ponsonby	سفير بالقسطنطينية من سنة ١٨٣٣
استبفورد	Stopford	القائد العام لحملة الحلفاء سنة ١٨٤٠
سدنى سمث	Sidney Smith	قائد بحرى امام عكا سنة ١٧٩٩
واجهورن	Waghorn	مندوب شركة الهند الشرقية الانجليزية

واكر	Walker	ضابط بالاسطول العثمانى
وود	Wood	موظف بريطانى

﴿ الروسيون ﴾

بوتنف	Boutenieff	سفير بالقسطنطينيه
برنوف	Brunnow	مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
ديبتش	Diebitch	القائد فى الحرب الروسية التركية سنة ١٨٢٩
هيدن	Heyden	أمير البحر فى واقعة نوارين
مدم	Medem	ممثل الحكومة بالقاهرة
مورافيف	Muravieff	مندوب خاص لتركيا ومصر سنة ١٨٣٢
نسلرود	Nesselrede	رئيس الحكومة
ارلوف	Orloff	مفوض بالقسطنطينيه سنة ١٨٣٣

﴿ النمسويون ﴾

لورين	Laurin	ممثل الحكومة النمسوية بمصر
نيومن	Neumann	مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
مترنخ	Metternich	رئيس الحكومة
بروكش	Prokesch	مندوب بمصر سنة ١٨٣٣
استورمر	Stürmer	سفير بالقسطنطينيه

﴿ البروسيون ﴾

بيلوف	Bülov	مفوض بلندره سنة ١٨٤٠
كورنجزمرك	Kœnigsmark	سفير بالقسطنطينية
ملتكه	Moltke	قائد بالجيش العثمانى

﴿ اليونانيون ﴾

Capo d'Istrias وزير خارجية قيصر الروسيا ورئيس حكومة اليونان سنة ١٨٣٠

Ipsilanti
Maurocordatos
Colcotronis
} زعماء الثورة

Miaoulis
Canaris
} قواد فى البحر

Klephtes عصابات الجبليين


اتساع نفوذ محمد علي
آسيا الصغرى
البحر الأبيض المتوسط
برقة
مصر
النوبة
السودان
الكردفان
الحبشة
العراق
بلاد الفرس
صحراء الشام
نجد
الحجاز
بلاد العرب
مسقط
عمان
اليمن
بحر العرب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٥	٣	المالح	الملح
١٩	٦	عما	مما
٢٣	١	بصرحة	لصرخة
٤١	٤	اغراضها	اغراضهما
٥١	٢١	الزود	الدود
٥٨	١١	الخزينة	الخزانة
٦٣	١٥	نصوصه	لصوصه
٦٥	٣	رحل ارمني	رجلا ارمنيا
٦٩	١٢	لتفاءل	تتصاءل
٧٣	٧	لمشيئ	لمنشئ
٩٤	١	اليه	فيه
٩٨	١٢	يحتذبه	يحتذيه
[illegible]	١٥	زار	زار مصر
[illegible]	١٦	بحب	وحب
١٠٥	الهامش	لمواقعة	لواقعة
١١٠	٥	نظراً	نظرنا
١١٥	٢	هذا الى	هذا الى ان
١٢٥	٩	الخزينة	الخزانة
١٢٨	١٢	وآرائه	وآراءه
١٣١	١٠	التى	الذى
١٤٤	٩	تعنى	تعبير
١٥٧	١٢	الشرق	الشرف
١٦٤	١٥	المتبعدين	المتعمدون
١٦٧	٧	تبذل	تبذلان
١٦٩	١٧	على ان	على
١٧٦	١٩	تداعيت	تداعت
١٨٧	١٤	Liebnitz	Leibnitz فيلسوف الماني